الدكتور
أحمد ارحيّم هبّو

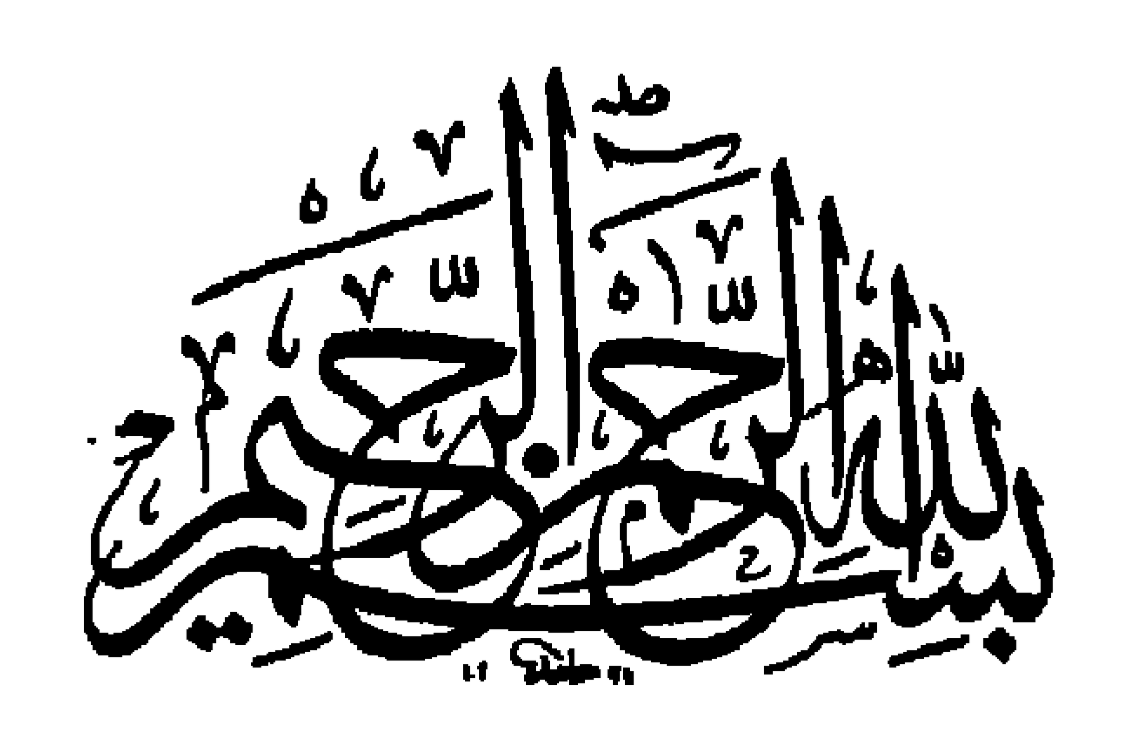
# معالم حضارة السّاميّين وتاريخهم

## في سورية وبلاد الرافدين

دار القلم العربي
دار الرفاعي

# مَعَالم حضارة السّاميين وتاريخهم

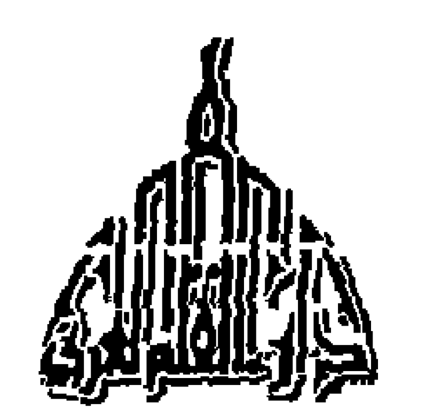
## في سورية وبلاد الرافدين



# مَعَالم حضارة السّاميين وتاريخهم

## في سورية وبلاد الرافدين

الدكتور
أحمد ارحيّم هبّو





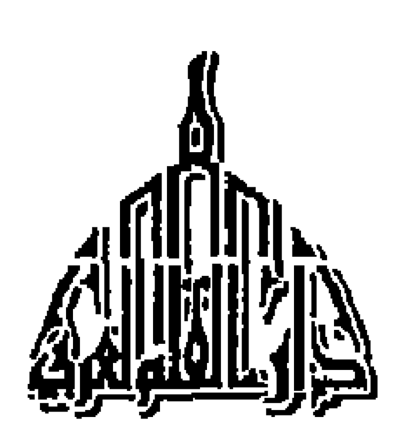
معالم حضارة السّاميين و تاريخهم ( في سورية و بلاد الرافدين )
تأليف :الدكتور أحمد ارحّيم هَبو
دار النشر : دار القلم العربي - دار الرفاعي
ISBN :2-8383-15
الطبعة الأولى
1423 - 2003



دار الرفاعي - سوريا - حلب
خلف الفندق السياحي
هاتف : 00963 21 2269599
ص .ب :78

دار القلم العربي - سوريا - حلب
هاتف : 00963 21 2213129
فاكس : 00963 21 2212361
e-MAIL :qalamrab@scs-net.org



# تمهيد

للإنسان قصة طويلة بدأت منذ خلقه الله في هذا العالم ، بعدما هيأ له البيئة المناسبة لمعيشته ، وزوده بما يحتاج من حواس وأعضاء ، وعقل مدبر يستعين به على تكاليف الحياة ، وجعله خليفة على الأرض ، يتدبر أمره ، وينظم شؤونه ، ويتحكم بأمره في هذا الكون الواسع العظيم .

وقد عاش إنساننا في عصور مختلفة على هذه الأرض ، ومر بأزمان عصيبة كتب عليه خلالها أن يجابه أعتى المخاطر ، وأن يلاقي أعظم الأهوال ، وكان عليه أن يصمد وأن يحافظ على نوعه .

كان في بداية أمره وحيداً في هذا العالم ، عليه أن يدافع عن نفسه أمام أبناء جلدته إذا ما حاولوا مهاجمته لسبب ما ، وأمام الحيوانات المفترسة التي كانت تطارده ، كما كان هو يطارد الحيوانات الصغيرة ليتغذى بها ، وأن يحصل على قوته مما هو متوافر في الطبيعة من أعشاب وثمار ، ولحم لم يتوصل إليه بقوة ساعده عن طريق القنص والصيد . ثم وجد السبيل إلى الاتفاق مع أمثاله من البشر ، وتعاون معهم في كل الأمور التي من شأنها أن تعينهم على الحياة آمنين مطمئنين . واستطاع الإنسان بعد حين من الدهور التي يدعوها العلماء بـــ "العصور الحجرية " إلى الاهتداء إلى طريقة إيقاد النار التي استعان بها على أمور معاشية كثيرة .

وصمد الإنسان في وجه الطبيعة وانتصر على أعدائه فيها ، وسخر وسطه الذي عاش فيه لخدمة حاجاته المادية والروحية باستخدامه العقل الذي مازه الله به من سائر المخلوقات . وكانت حصيلة ذلك ما نسميه " الحضارة " أو " المدنية " أو "الثقافة " ، وهي هذه الإنجازات التي أكدت قدرة الإنسان على التكيف مع وسطه ، وتسخير ذلك الوسط لصالحه .

ونتيجة لزيادة الإنتاج الزراعي والصناعي بدأت علاقات القرى التي تطورت إلى مدن صغيرة تزداد أواصرها بغرض تبادل السلع المتنوعة من غذاء ، ومواد خام كالمعادن ، ولاسيما النحاس الذي تم اكتشافه في مطلع الألف الخامس قبل الميلاد أو قبله بقليل ، والأخشاب التي يحتاجها لبناء البيوت والمعابد والسفن ، وغيرها من المواد . وظهرت التجارة ، وصارت من أهم العوامل التي عقدت الروابط بين المجتمعات ، ومازالت تربط فيما بينها ، وكثيراً ما أدت إلى نشوء المنازعات بين الشعوب نتيجة لحب السيطرة على الموارد الاقتصادية ، والاستئثار بها ، والإفادة من مردودها لمصلحة شخصية فردية أو جماعية ، فنشبت الحروب ، وتوسعت المدن والممالك ، وأسست الإمبراطوريات ، وانهارت الممالك والدول ، وظهرت دول أخرى . ومن هذه الدول في بلاد الرافدين : دول المدن السومرية ، والدولة الاكّدية ، والدولة البابلية ، ودولة آشور . وفي بلاد الشام : ماري ، ويمحاض ، وأوغاريت ودول المدن الفينيقية. وفي مصر دولة الفراعنة . وفي شبه الجزيرة العربية دول اليمن المتعددة : سبأ ، قتبان، معين ، حضرموت . وفي شمالها : دول المناذرة ، والغساسنة ، والحضر ، وقبلها دولتا الأنباط والتدمريين .

إن قصة الإنسان وحضارته هي قصة الإنسان في المشرق العربي نفسه ، إذ ثمة اتفاق بين أغلبية الباحثين أن الإنسان القديم ، إنسان عصور ما قبل التاريخ التي امتدت الألوف من السنين ، قد ترك آثاره الواضحة في عدد من الأماكن التي امتدت في الشرق العربي . في بلاد الرافدين ، وبلاد الشام ، وفي شبه الجزيرة العربية ، وفي وادي النيل الأدنى . وهناك اتفاق أيضاً بين الباحثين على أن المناطق الأولى التي ظهرت فيها الزراعة الأولى تتوضع في شمالي بلاد الشام وبلاد الرافدين ، كما نوهنا . ويرى أغلبية الباحثين أن المدن الأولى ظهرت في الأعوام الواقعة بين ٣٥٠٠ ــ ٣٠٠٠ قبل الميلاد في الشرق العربي القديم ، وفي جنوبي العراق على وجه التحديد ، فيما كان يسمى " أرض سومر " ، كما يؤكد الباحث غولاييف في كتابه "المدن الأولى " ، وغيره من المتخصصين في نشأة الحضارات ، وهي المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب من الأراضي التي تنحصر بين نهري دجلة والفرات قبل أن يصبا في الخليج العربي .

إن الشرق العربي القديم هو مهد الحضارة الإنسانية ، وإن تاريخه ، كما يرى الباحثون ، هو تاريخ البشرية نفسها . وقد قال أحدهم يوماً : التاريخ يبدأ في الشرق ، التاريخ يبدأ من سومر حيث اخترع الإنسان الكتابة ، والكتابة هي الحد الفاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية .

وسارت مقولة في عصر النهضة في الغرب الأوروبي مفادها أن " الحضارة مولدها في الشرق " ، وعبر عنها باللغة اللاتينية السائدة آنذاك في المحافل العلمية الأوروبية بالجملة EX ORIENTE LUX التي تعني حرفياً "النور يأتي من الشرق " . والمقصود بالنور هنا ظاهراً نور الشمس ، وهذه مقولة تعبر عن ظاهرة طبيعية واقعية ، لكن المقصود منها فعلاً المعنى المجازي ، وهو الحضارة والعلم . لأن العلم نورٌ ، والحضارة ضياء في عالم الإنسان القديم ودنيا الإنسان المعاصر . وشتان ما بين الجاهل والعالم ، وما بين الظلام والنور . وإنسان اليوم في بداية القرن الحادي والعشرين الميلادي غير إنسان العصور الوسطى ، وغير إنسان العصور القديمة من دون شك في كل ما يتصل بتفكيره وبيئته وأسلوب حياته ورفاهيته .. وهو لم يصل إلى هذا دفعة واحدة ، حتى قطع مئات السنين والألوف منها ، وبنى صرح حضارته لبنة لبنة حتى بلغ شكله الحاضر . ولما يكتمل هذا الصرح بعد ، وإنما أمامه مئات أو آلاف السنين حتى يدعي أنه بلغ قمة الحضارة ، تلك القمة التي ظن كثير من الأمم أنهم ارتقوها ، ثم تبين أن لا حدود للحضارة والتقدم في هذا العالم ، وهذا الكون الذي لا يعرف أسراره غير الله وحده . فالحضارة سلسلة طويلة لا نهاية لها من الحلقات المتشابكة ، تمثل فيها كل حلقة مرحلة من الحضارة الإنسانية ، لابد منها لاكتمال السلسلة مهما كان شأنها . وليس من امة في التاريخ لم يكن لها دور معين في تلك المراحل . أما مسألة الدور الهام ، أو الدور ذو الأهمية الأقل فهذه مسألة نسبية ، ولا يستطيع المرء أن يحددها ، وأن يعطيها قيمتها الحقيقية . لكن الملاحظ أن بعض الأمم قدمت للإنسانية حضارة زاهرة في حقبة طويلة من التاريخ ثم انكفأت على نفسها ، وتقوقعت ، واكتفت بما وصلت إليه ، أو توقفت عند المرحلة الحضارية التي وصلت إليها . كما أبدى بعضها من المواقف ما يعتقد بأنه رجعة إلى ما قبل العصر الحضاري الذي وصل إليه. ويقاس هذا عادة بما تم إنجازه من حضارة هيأت للإنسان مستوى متقدماً من

الرفاهية والتقدم التقني الذي امّن له وسائل سخّرت له الوسط الذي يعيش فيه لخدمة حاجاته المادية والروحية . فإذا وُجِد إنسان في مجتمع يستخدم الطائرة ليقطع المسافات الطويلة ، وجد إنسان آخر يستخدم الحيوان ليقطع مثل تلك المسافات ، أو وسائل النقل البطيئة ، فالأخير متخلف عن ركب الحضارة.

والتخلف هنا نسبي ، لأنه قد يوجد إنسان آخر في بلد آخر ليست عنده حتى الوسيلة للانتقال ، أو لا يعرف حتى حدود بلده . بل كل ما يعرفه هو بلدته التي يعيش فيها ، ويظن أن لا ناس يعيشون في عالمه غير أناسه وذويه. وقد يجهل أن ثمة أناساً يتحدثون غير لغته ، ويلبسون غير لباسه ، ويدينون بغير دينه .

ونحن حين نحكم على حضارة شعب ما من الشعوب القديمة علينا أن لا ننسى أننا نقوّم حضارة يعود تاريخها إلى وقت مر به الإنسان قبل مئات السنين ، إن لم يكن بضع آلاف من السنين ، حين كان يجاهد لإيجاد مقومات الحضارة ، ويناضل في ظروف صعبة ليقهر الطبيعة ويسخرها لتلبية حاجاته . كما علينا أن لا ننسى أن الخطوة الأولى ، والإنجاز الأول له الأهمية الأولى في كل مهمة يقوم الإنسان بها ، والحجر الأول الذي يضعه الإنسان لبناء مسكنه هو أساس العمل كله، إذ بدونه لا يقوم البناء ، ولا يتم العمل ، وقد قيل "المسيرة الطويلة تبدأ بخطوة" . فاكتشاف طريقة إيقاد النار الذي يعد أول خطوة حضارية ، واكتشاف عملية الزراعة، وهي الخطوة الحضارية الثانية في مسيرة الإنسان الحضارية الطويلة خلق آفاقاً جديدة لتطور الإنسان ، ولإيجاد السبل الكفيلة بحل مشاكله الكثيرة ، والوصول به إلى أعلى مراتب متقدمة من الحضارة والمدنية . واختراع الدولاب والعجلة قاده إلى توفير الطاقة العضلية لأعمال أخرى ، وإلى اختراع وسائل جديدة للنقل بدأت بالعربة التي يجرها الإنسان والحيوان، ثم إلى العربة التي تسير بفعل الطاقة البخارية كالقطار ، والعربة التي تسير بفعل احتراق النفط... وكلها يسير على الدواليب . وهذا مثال على سلسلة الاكتشافات والاختراعات التي توصل الإنسان إليها ، وسيتوصل إليها في المستقبل ، والتي بدأت باكتشافٍ أو اختراعٍ أول .

ومن هنا يجدر بنا أن نفهم ونقدر الاختراع الفذ الذي وصل إليه الإنسان في الشرق القديم ، ألا وهو "الكتابة" ، التي سنفرد لها بحثاً خاصاً ضمن بحوث الكتاب .

والحضارة خلاف البداوة . ومنه صارت " الحضارة " كلمة تُطلق على كل إنتاج مادي أو فكري للإنسان ، سواء كان الإنتاج راقياً أو بدائياً . فالحضارة تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج ، ويتبدى ذلك من خلال سلوك الإنسان ، وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة ، ونتيجة لذلك تختلف كل حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخرى ، وبخصائصها وسماتها الرئيسة، فيقال الحضارة المصرية، والحضارة الرافدية ، والحضارة السورية القديمة ، والحضارة الإغريقية، والحضارة العربية القديمة ... ونستشهد على مظاهر تلك الحضارات بمخلفات أثرية من أبنية وإنتاج فني ، وكتابات ، وما تقدمه هذه من فكر ومعتقدات دينية ، وتراث علمي ، وأدوات كان يستعين بها على إنجاز وتنفيذ أعماله الزراعية والصناعية ، وأموره المعاشية اليومية . وكثيراً ما يختلط مفهوم " الحضارة Culture " مع مفهوم المدنية Civilization ، ومفهوم الثقافة ، ولاسيما عند الباحثين العرب. مع أن لفظة المدنية أقرب للتعبير عن الحياة في المدينة ، فهذه تدل على سكنى المدن والانتظام في مجتمعات أكثر تعقيداً ورقياً ، إلى درجة أنها قد تصل إلى الانغماس في حياة الرفاهية والمجتمع الاستهلاكي ، إذ تكثر متطلبات الإنسان وحاجاته ، فتكثر الاختراعات وتتطور وسائل الترفيه والترف التي تريح الإنسان ، وتخفف عنه الأعباء الكثيرة ، حتى الفكرية منها التي كانت تتطلب منه الوقت الطويل ، وقدح الذهن واستخدام العقل . فالمدنية إذا عقدنا بينها وبين الحضارة مقارنة ، نرى أنها تأتي نتيجة الحضارة ، وهذه : أي الحضارة ، هي نقيض البداوة . وفي اللغة العربية ما يُشير إلى ذلك ، وتمييز بين البدوي والحضر ، وبين أهل المدن وأهل الحضر . فالبدوي تقوم حياته على حياة الحيوان من صيد ورعي ، ومن دأبه التنقل وعدم الاستقرار . أما الحضري فهو المنتظم في مجتمع مستقر ، ويتعاون في معيشته مع مجتمعه ، ويفيد من الإنجازات التي يتوصل إليها المجتمع من العلوم المختلفة ، والفنون المادية والعقلانية والأدبية ، في ظل نظام إداري وسياسي يكفل له حقوقه وأمنه الشخصي ولأهله ، وللمواطنين كافة . ونشير هنا إلى أن أصل كلمة Culture التي تعني " الحضارة " في العربية إنما جاءت من اللاتينية ، وانتشرت في اللغات الأوروبية ، أصلها من "

الزراعة " إذ أن الزراعة كانت بداية الحضارة والتحضر . فقد استقر الإنسان ، وبنى كوخه ، ثم بيته قرب الحقل الذي زرعه ، لحراسته وللعناية به حتى يخرج الزرع ، وينضج الحَب ، ثم يتم حصده ، وتخزينه ، أو مقايضته . حينئذٍ وجد الوقت الكافي للتفكير ، والفراغ لابتكار ما يعينه على الحياة " الحضرية " ، ويؤمن له الراحة ويُشبع رغبته في التمتع بالجمال ، فبدأ الرسم والتصوير ، وصنع الأدوات ، ونشأت نتيجة لذلك الحرف ، وبدأت المسيرة " الحضارية " تتسارع ...كل ذلك بدأ ـــ كما قلنا ـــ باكتشاف العملية الزراعية التي كانت ثورة حقيقية، وانقلاباً فعلياً في حياة الإنسان وتطوره .

أما مفهوم " الثقافة " في العربية ، فهو أكثر التصاقاً بالإنتاج الفكري ، الفني والأدبي ، وكل ما له صلة بالعلوم الإنسانية والنظرية . ومع ذلك فإن لفظة " الثقافة " صارت تستخدم مكان لفظة " الحضارة " ، من دون تمييز بين اللفظتين على اختلاف المعنى اللغوي بينهما في اللغة العربية .

**وأخيراً :**

إن موضوعات الكتاب ذات صلة وثيقة بحضارات الساميين في بلاد الشام وبلاد الرافدين بخاصة . وهي مجموعة مختارة من بعض المحاضرات والأبحاث المطوّرة التي قدمتها في هذا المجال ، وغيرها . وتشتمل على أبحاث تاريخية ـــ حضارية ولغوية أرجو أن يفيد منها الباحث المختص ، والطالب الذي يملأ قلبه حب الوطن ، والحنين إلى أمجاد الأجداد الذين قدموا للإنسانية الكثير من الإنجازات الحضارية التي نفخر ونعتدّ بها ، ولكن ينبغي أن تكون حافزاً لنا لتقليدهم ، واتخاذهم مثلاً في الجد والدأب على تقديم كل ما فيه الخير لأمتنا المجيدة ، وللإنسانية التي تنتظر منا عطاءات حضارية جديدة في عصر العلوم المتقدمة وتكنولوجيا المعلومات الذي لا يرحم المتخاذلين ولا يقدّر غير العاملين .

حلب ، شتاء ٢٠٠٣

د. أحمد ارحيم هبو

# وحدة دول المشرق العربي القديم الحضارية

# وحدة دول المشرق العربي القديم الحضارية

## المشرق العربي القديم جغرافياً وزمنياً :

هو المنطقة الواقعة في جنوب غربي آسية ، وتشمل بلاد ما بين النهرين وهما نهرا الفرات ودجلة وروافدهما ، وسورية الكبرى أو ما يدعوه الجغرافيون العرب الأوائل باسم " بلاد الشام " ، وشبه الجزيرة العربية . وتُلحق بها مناطق بعض الأنحاء المجاورة ومنها الواقعة في غربي إيران في الشرق ، وجزء من آسية الصغرى في الشمال ، ووادي النيل في الغرب ، ولاسيما مصر . ويميل كثير من المتخصصين في التاريخ القديم إلى إطلاق تسمية " الشرق الأدنى القديم " على هذه المناطق ، و" الشرق الأوسط " في العصر الحديث ، ولكننا سنركز الحديث في كتابنا هذا على سورية ، أي بلاد الشام ، وبلاد ما بين النهرين ( أو بلاد الرافدين ) ، أي العراق القديم .

أما من حيث الزمان فإننا نتوجه إلى ما يدعى عند الآثاريين بعصر البرونز ( عصر البرونز القديم ، والمتوسط ، والحديث ) ، وعصر الحديد ، وهما عصران يستغرقان الآلاف الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد ، والتي شهد فيها الشرق اختراع الكتابة في بدايتها ( نهاية الألف الرابع وبداية الثالث ق. م ) . ولن نعود إلى العصور السابقة لاعتمادنا في مصادرنا الأساسية على الوثائق ، وهذه وحدها التي يقوم عليها التاريخ .

ظهرت في المشرق العربي القديم حضارات متعددة منذ العصر الحجري الحديث ، تتشابه في كثير من مظاهرها ، في بلاد ما بين النهرين وسورية ، ولاسيما بعد أن توصل السكان إلى الزراعة التي ترافقت مع نشاط كبير في تدجين الحيوانات . ويُعد ابتكار الزراعة انعطافاً خطيراً في حياة الإنسان ، وطفرة حضارية متميزة في تاريخه الطويل عبر العصور الحجرية ، تتساوى واكتشافه النار من قبل والثورة الصناعية في القرن الثامن عشر الميلادي . ولهذا دعاها الباحثون بالثورة النيوليتية " ثورة العصر الحجري الحديث " إشارة إلى التحول الكبير الذي طرأ على حياة المجتمع البشري خلال الفترة الواقعة الألفين التاسع والسابع قبل الميلاد ، إذ

بدأت بالزراعة عملية الانتقال من الاقتصاد الاستهلاكي إلى الاقتصاد الإنتاجي . فبعد أن كان الإنسان يعيش على الصيد واللقط ، صيد الحيوانات البرية والطيور والأسماك ، وجمع الثمار والحبوب الغذائية ، انتقل بالزراعة إلى تأمين غذائه النباتي والحيواني بجهده ، وأخذ يتحكم بإنتاجه، وعرف بذلك نوعاً من ضمان الرزق والأمن الغذائي. لم تكن العملية حصيلة جهد فردي فجائي ، بل كانت حصيلة جهد جماعي مادي وفكري طويل استغرق بضعة آلاف من السنين ، واحتاجت إلى عدد من القرون لتستكمل مقوماتها ، وتتوسع خطواتها لتشمل أنواعاً أخرى من النباتات الغذائية والحيوانات القابلة للتدجين ، غير زراعة القمح والشعير وهما الصنفان اللذان بدأ بهما الإنسان قبل أن ينتقل إلى استنبات الأنواع الأخرى ، كالحمص والعدس وغيرهما من النباتات القرنية والبقول .

وقد عرف العالم القديم أربعة مراكز أساسية للزراعة المبكرة . ثلاثة منها تقع في آسية ، وهي جنوب غربي آسية ، وفي منطقة الهلال الخصيب على وجه الخصوص ، والمركز الثاني يقع في شرقي آسية ، والمركز الثالث في الجنوب الشرقي من آسية . أما المركز الرابع فيقع في شمال شرقي أفريقية ومصر بخاصة[1] . وتشير المعطيات العلمية المعاصرة إلى أن مناطق الهلال الخصيب ( بلاد الرافدين وسورية ) تعد من أقدم مراكز الزراعة الأولى ، حيث كانت تنمو بعض الأصناف من الحبوب البرية والنباتات القرنية بوفرة ، فاجتذبت الإنسان القديم إلى الإقامة بالقرب منها في مواسمها السنوية ، ثم ما لبث أن انتقل إلى زراعتها بنفسه ، وتأمين حاجته منها ومن لحوم الحيوانات المتوافرة في تلك المناطق والتي كانت تتغذى منها أيضاً ، بعد أن اهتدى إلى استنباتها ، وقد لاحظ أنها كانت تنبت بملامسة جذورها للأرض الرطبة ، أو التي تسقط عليها الأمطار . وما زالت هذه المناطق تعتمد في زراعة الحبوب على أمطار السماء في الوقت الحاضر . ثم نشأت الأكواخ في بعض المراكز الزراعية ، وتحولت هذه إلى بيوت طينية ، وحجرية ، وإلى قرى صغيرة. وظهرت أنواع من القمح ذي الحبتين ، والشعير

---

[1] ـــ الجديد حول الشرق القديم ، ص ٥٨ .

ذي الصفين ، وتبعت زراعة القمح والعدس والحمص زراعة الكتان . ويعود ابتكار الزراعة والتدجين إلى أن البيئة هي التي هيأت للإنسان الظروف المناسبة ، كما أن جهد الإنسان المستمر عبر الزمن الطويل تُوِّج بوصول الإنسان إلى مستوى تقني مكّنه من الإفادة من خيرات بيئته بشكل أفضل. فتضافر العامل الطبيعي والبيئي مع العامل الإنساني لخلق الشروط اللازمة لظهور الزراعة والتدجين . ولا شك في أن تحدي الطبيعة للإنسان المتمثل بحلول الجفاف الذي يؤدي إلى تراجع نمو النبات وشح الموارد الغذائية النباتية ، ومعها الموارد الغذائية الحيوانية ، كان السبب الأساسي في التفكير بحلول ناجعة للرد على تحدي الطبيعة ، وتأمين غذائه ، فاهتدى إلى الزراعة والتدجين اللذين حرراه من الاعتماد الكلي على الطبيعة ، ووفرا له مصدراً غذائياً وقت الحاجة .

وقد ازداد استقرار الإنسان ، والتماسك الأسري بين الأفراد الذين توزعوا العمل بإشراف رب الأسرة نتيجة لما تتطلبه العملية الزراعية من أعمال متنوعة كالحراثة والبذار والحصاد ، إضافة إلى حماية المزروعات ورعايتها المتواصلة . فنشأت المقدمات الضرورية للحياة الحضرية المستقرة وازداد عدد السكان في القرى الزراعية ـــ الرعوية . ونشأت العادات والتقاليد . ثم نشأت المؤسسات الإدارية ، وظهرت المدينة ودولة المدينة . وانفتحت آفاق غير محدودة للتطور الاجتماعي والاقتصادي في فجر التاريخ الذي لاحت تباشيره في الألف الرابع قبل الميلاد . كما ترتب على انصراف أكثرية الناس إلى الزراعة ظهور الحرف التي تخصص بها أفراد ضمنوا معاشهم بصنع الأدوات التي يحتاجها المزارعون من فؤوس ومناجل ، وأجران ورحى ، وغيرها من الأدوات الضرورية للحياة اليومية ، إضافة إلى حرفة الصيد والرعي ، واستئناس الحيوان وتدجينه ، وحرفة نسج الكتان والصوف ، وصناعة السلال والحصر . وبدأ الإنسان يهتم بسكنه بطلاء الأرض والجدران ، وتزويده بالموقد للتدفئة والطبخ . وظهرت الرسوم الجدارية والأواني المزخرفة ، الحجرية والفخارية ، وتطورت الفنون .

ووجد الإنسان الوقت للتأمل والتفكير ، فتبلورت الأفكار والمعتقدات الدينية الخاصة بالمجتمع الزراعي والرعوي . فقد كان على المزارع والراعي أن يفكر بالقوى التي تعمل على نجاح العملية الزراعية ، وإرسال المطر اللازم لظهور النبات ونموه ، والقوى التي تساعد على إخصاب الحيوانات وتكاثرها ، وأن يسعى كل منهما إلى استرضاء تلك القوى وطلب خيراتها . وظهر نتيجة لذلك رجل الدين الذي زعم بأن لديه الإمكانية للاتصال بتلك القوى ( الإلهية ) الخارقة ، وصار له دور بارز في المجتمع ، وتأثير كبير ، سمح له بالتدخل في شؤون الناس وأحوالهم ، حتى بات يتحكم في تصرفاتهم ، ويفرض عليهم الأوامر والتوجيهات ، وتحول إلى حاكم فعلي لا راد لأوامره . وبذلك كان رجل الدين ( الكاهن ) أول حاكم فعلي في تاريخ الإنسان لاستغلاله حاجة الناس إلى وساطته عند الآلهة .

ظهرت هذه القرى في مواقع عدة في سورية وبلاد ما بين النهرين . وعرفت منها في سورية مواقع قديمة أولية على نهر الفرات ، ومنها : تل المريبط ، قرب مدينة الرقة ، وأبو هريرة إلى الجنوب من تل المريبط ، والشيخ حسن إلى الشمال منها ، وموقع بقرص جنوبي مدينة دير الزور . وفي موقع تل أسود قرب دمشق ، وفي وادي الأردن ، وأريحا شمال بحر الميت ، ورأس الشمرة ( أوغاريت ) شمالي اللاذقية ، وجبيل اللبنانية . وفي بلاد الرافدين ظهرت قرى جرمو شرقي مدينة كركوك ، وحسونة جنوبي مدينة الموصل ، وموقع سامراء شمالي مدينة بغداد ، وشوغامامي شرقي بغداد ، وتل الصوان قرب سامراء أيضاً . ثم ظهرت بعدها مواقع في تل حلف ، عند رأس العين ، والعُبَيْد من بَعْدُ في جنوبي العراق ، وأبي شهرين ( إريدو القديمة ) ، ثم في الوركاء ( أوروك القديمة ) ، حيث كان ظهور المدن الحقيقية نتيجة للزيادة السكانية التي طرأت ، كما يبدو ، على مناطق كثيرة من المشرق العربي القديم ، وبخاصة في الجنوب الرافدي .

إننا لا نعرف من كان أولئك الذين اكتشفوا الزراعة ، وبنوا القرى والمدن ، من حيث الهوية ، لأنهم لم يعرفوا الكتابة بعد ، ولكنهم من دون شك أسلاف السكان الذين أقاموا الحضارة الرافدية والسورية القديمة ، ووضعوا حجر الأساس للحضارة الإنسانية التي بدأت

من بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر . أما هؤلاء الذين خلفوا الأجداد فإننا قد تعرفنا عليهم من خلال لغتهم وأسمائهم التي كتبوها على الألواح الطينية والحجرية والنحاسية ، في بلاد الرافدين وسورية ، وعلى ورق البردي كذلك في مصر ، فقد اخترعوا الكتابة المسمارية والكتابة الهيروغليفية التي دونوا بها لغتهم فتعرفنا عليها ، وعرفنا هويتهم وانتماءهم. وهم الذين دعوناهم أو دعوا أنفسهم ، أو دعاهم جيرانهم سومريين وأكديين ، وأموريين ، وكنعانيين ، وآراميين ، ومصريين ، وغير ذلك من الأسماء . ونفهم من هذا الواقع أن الكتابة هي التي وضعت الحد الفاصل بين العصور السابقة لها ، وهي العصور الحجرية الطويلة ، وعصور ما قبل التاريخ . والعصور اللاحقة التي بدأت باختراع الكتابة في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ، والتي بدأ بها التاريخ ، وبدأت بها الوثائق التاريخية التي هي مصدر التاريخ وعدة المؤرخ . وصارت الكتابة تؤدي دور المُعَرِّف للناس والأقوام والكاشف لهويتهم ، ومن ثم بدأنا نعرف من خلال الكتابة علاقات الشعوب الإثنية ببعضها ، ونربط أصولها ببعضها ، أو ننفي صلة القرابة بينها من خلال لغاتها وأسماء العلم فيها ، وهذه في الواقع هي التي تحدد الهوية ، لأنها تنبئ من حيث المعنى ، والتركيب ، عن الأصل الأثني ، إذ أن كثيراً منها يتركب من أسماء الآلهة المحلية ، ويشير إلى معان تدل على خصوصيات جغرافية ولغوية .

نذكر فيما يلي أهم مظاهر الوحدة التي تربط بين تلك الأقوام ، وفي مقدمتها : اللغة ، العادات والتقاليد أو التشريعات ، المعتقدات الدينية التي تقوم على آلهة مشتركة ومتشابهة في الوظائف والصفات ، والأساطير ، الآداب والفنون ، والوطن الواحد .

## السكان والأحداث السياسية :

يطلق المستشرقون على سكان المشرق العربي القديم تسمية استمدها أحدهم واسمه شلوتسر Schlözer في عام ١٧٨١ من كتاب العهد القديم الذي يذكر الشعوب المتحدّرة من أبناء نوح الثلاثة، يطلقون تسمية " الشعوب السامية " نسبة إلى سام بن نوح على أولئك السكان في مناطق المشرق العربي القديم . فالساميون هم سكان بلاد ما بين النهرين ،

وسورية، وشبه الجزيرة العربية الأساسيون ، وهم في بلاد ما بين النهرين : الأكديون والبابليون والآشوريون ، نسبة إلى عواصم دولهم التي أقاموها .

وفي سورية : الكنعانيون والآراميون ، نسبة إلى أجدادهم الأوائل كنعان وآرام . كما عاش في سورية وبلاد ما بين النهرين الأموريون ، أو العموريون ، في الحقبة الواقعة في نهاية الألف الثالث والنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد . والآراميون أنفسهم الذين أقاموا دويلات في سورية وبلاد ما بين النهرين وعاصروا الآشوريين في دولتهم الحديثة ( الأخيرة ) . وبعدها ، وورثتها قبيلة الكلدانيين ( الآرامية ) .

وفي شبه الجزيرة العربية : العرب الشماليون ( العدنانيون ) والعرب الجنوبيون ( القحطانيون أو اليمنيون ). ولا بد أن نذكر إلى جانب الساميين ، وهم السكان الأساسيون الذين يشكلون النسبة العظمى ، السومريين في جنوبي بلاد ما بين النهرين ، والجوتيين الذين خلفوا الأكديين في حكم البلاد ، والكاشيين الذين خلفوا البابليين . ونذكر كذلك الحوريين والميتانيين الذين سكنوا شمالي سورية وبلاد ما بين النهرين ، ثم أقاموا دولة لهم ، كانت عاصمتها مدينة واشوكاني عند بلدة رأس العين في الجزيرة السورية ، واختلطوا بالسكان الساميين الأصليين حتى وصلوا إلى أوغاريت نفسها دون أن يفكروا بضمها إلى مملكتهم التي نافست الكاشيين في بابل ، ونذكر كذلك الآشوريين في شمالي العراق ، ودولة يمحاض في حلب ، والحثيين في جنوبي آسية الصغرى .

كان سكان المشرق العربي القديم ، ولا سيما في بلاد ما بين النهرين وسورية ، خليطاً من الشعوب السامية التي تشكل الغالبية العظمى ، وهم السكان الأصليون إذن ، وعدداً من الأقليات التي داهمت تلك المناطق في أوقات مختلفة . فالجوتيون الذين قضوا على الدولة الأكدية في حدود عام ٢١٥٩ ق. م. لم يحكموا العراق سوى مدة قصيرة من الزمن لم تتعدَّ القرن الواحد ، لأنهم كانوا قبائل جبلية همجية لا أساس للحضارة عندهم ، ولا يعرفون أساليب الإدارة والحكم ، فتأثروا بالمحكومين وأخذوا لغتهم وأسماءهم ، وعبدوا آلهتهم ، ولم يقدموا شيئاً للحضارة ، ففاقد الشيء لا يعطيه . وكانت أعدادهم قليلة نسبة إلى أعداد

السكان الأصليين الساميين ، فتلاشوا في التاريخ ، وهرب بعضهم إلى الجبال الشمالية الشرقية من حيث أتوا ، وضاع الآخرون في زحمة الأحداث التاريخية التي تلت خروجهم من المدن الرافدية . وعاد السومريون للظهور مرة ثانية على مسرح التاريخ في بلاد ما بين النهرين ، وعاشت بلاد ما بين النهرين نهضة حضارية على يد سلالة ما يدعى " أور الثالثة "السومرية. حتى جاءت موجة جديدة من القبائل السامية البدوية، دعيت باسم العموريين ، أو الأموريين، نسبة إلى جهة الغرب التي قدموا منها إلى جنوبي العراق ، إذ تعني كلمة ( أمورو ) في اللغة الأكدية جهة " الغرب " . فأنشأ هؤلاء الأموريون ممالك متعددة ، بعد أن استقرت أحوالهم في المدن الرئيسة من المشرق العربي ، وأخذوا بأسباب الحضارة الأصيلة ، فقامت دولة آشور القديمة في شمالي العراق وجزء من الجزيرة السورية ، وظهرت دولة بابل القديمة في جنوب العراق ، ودولة ماري على نهر الفرات ، ويمحاض في شمالي سورية ، وقطنا ( تل المشرفة ) على العاصي ، وكلها دول أمورية سامية . وبعد صراعات طويلة فيما بينها انتصرت الأسرة الأموزية في بابل على الأسرة الأمورية في آشور وماري ، وأقام الملك الأموري حمورابي دولة بابل القديمة في كل بلاد ما بين النهرين وجنوب غربي إيران ، استمرت حتى عام ١٥٩٥ ق. م. .

ثم مالبثت الدولة البابلية القديمة أن ضعفت من بعد حمورابي المشهور (١٨٩٢ ــ١٨٥٠ق.م. )، إذ كان على خلفائه أن يقاتلوا في جهات مختلفة ضد المتمردين والانفصاليين ، حتى لم يبق لآخرهم من مناطق يحكمها سوى مدينة بابل وما يحيط بها ، واندس الكاشيون ، وهم أقوام جاءت من الجبال الشمالية الشرقية أيضاً ، وحاولت التسلل إلى المدن ، ونجحت في ذلك ، إذ عملت جماعات منهم أجراء ، وموظفين ، وساسة خيول عند المتنفذين في الدولة وفي القصر الملكي ، بعد أن حاولوا دخول الأراضي السهلية مرتين فلم يكتب لهم النجاح في ذلك . فتوجهت جماعات منهم أيضاً إلى الفرات الأوسط ، واستولت على الحكم في دويلة خانة ( عانة اليوم ) . وعندما زحف الجيش الحثي على العاصمة بابل في عام ١٥٩٥ ق.م. ساند الكاشيون الحثيين ، ووقفوا بقوة إلى جانبهم

إذ اتفقت مصالح الطرفين ، ورأى الكاشيون أن فرصتهم قد حانت لتولي الحكم لما رأوا من ضعف الدولة البابلية وتردي أحوالها السياسية ، فانضموا إلى الجيش الحثي ، ودخلوا بابل معهم . وعندما قفل الحثيون عائدين إلى بلدهم بعد تدمير المدينة وسلبهم كنوزها ، مخلفين فراغاً سياسياً وراءهم لأنهم قضوا على حكم الأسرة الأمورية في بابل ، انتهز الكاشيون الفرصة بالتعاون مع بني جلدتهم المستوطنين في المدينة ، واغتصبوا الحكم فيها ، وأسسوا أسرة حاكمة منهم دامت سلطتها أكثر من أربعة قرون متواصلة مع بدء القرن السادس عشر قبل الميلاد . فعاصر الكاشيون الأحداث المتقلبة الكثيرة في المشرق العربي القديم طوال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، ومنها ظهور الحوريين ــ الميتانيين في منطقة الجزيرة السورية ــ كما ذكرنا ــ ونفوذهم في سورية الشمالية بخاصة ، وتدخلهم في شؤون يمحاض حتى قضوا عليها، وقيام ألالاخ في منطقة لواء الاسكندرونة التي صارت تابعة لهم بعدما كانت تتبع دولة يمحاض وعاصمتها ( حلب ) ، وظهور المصريين في سورية ووصول ملكهم تحوتمس الأول ( ١٥٢٨ ــ ١٥١٠ ق.م.) إلى كركميش ( جرابلس اليوم ) ، ثم عودة حفيده تحوتمس الثالث ( ١٤٦٨ ــ ١٤٣٨ ق.م. ) مرة ثانية إلى كركميش ، الذي حارب الميتانيين وانتصر عليهم وطارد ملكهم إلى عاصمته ، وفرض النفوذ المصري على سورية بكاملها . ثم أتى حين من الدهر فعقد الطرفان صلحاً بينهما ، تفاهما فيه على اقتسام مناطق النفوذ في سورية ، وعززاه بزواج الملك المصري أمنحوتب الثالث من ابنة الملك الميتاني .

ثم ظهرت قوة جديدة في الشمال في آسية الصغرى هي الدولة الحثية ثانية ، تطلعت إلى مد نفوذها إلى الجنوب حيث الميتان والمصريون . أما الكاشيون فلم تكن لديهم أطماع في المنطقة ، فلم يتدخلوا في الصراع الجديد حول سورية ، وإنما كانوا يشعرون من دون شك بوطأة دولة الميتان في الشمال الغربي من بابل ، بل وفي الشمال ، فأنشأوا عدداً من التحصينات الدفاعية قرب الحدود الآشورية ، ولاسيما بعد أن بدأت الصحوة الآشورية في عصرهم الوسيط تبدو ملامحها الأولى ، وميتاني تخور قواها إثر الضربات الحثية الموجعة . لكن علاقات بابل الكاشية أخذت تزداد قوة يوماً بعد يوم مع المصريين ، فقد صاهر

المصريون الكاشيين وتزوج فرعونهم أمنحوتب الثالث أخت الملك الكاشي، ولكنه رفض تزويجه بإحدى الأميرات المصرية تعالياً وأنفة منه، بل طلب أميرات كاشيات أخريات ، وحصل عليهن متعللاً بأنه لم يسبق لأميرة مصرية أن تزوجت بأجنبي . وكان يقايض الأميرات الأجنبيات الحوريات والكاشيات وغيرهن بكميات من الذهب . فكان الملوك الكاشيون يطمعون في الحصول على الذهب المصري لإشباع رغبتهم في بناء القصور والمعابد للآلهة البابلية بخاصة لاستمالة البابليين ، وكسب ولائهم ، وهم الحكام الغرباء الذين لم يرض السكان الأصليون بحكمهم ...

لم يَرْقَ الكاشيون إلى الحد الأدنى من المستوى الحضاري للبابليين طوال حكمهم الطويل ، رغم محاولتهم الظهور بمظهر أهل البلاد ، والتحدث باللغة البابلية التي استمرت لغة رسمية لحكمهم ، دونوا بها نصوصهم ، وكتبوا الخط المسماري البابلي ، وقلدوا البابليين في عباداتهم وطقوسهم الدينية ، واحتفظوا للإله البابلي مردوك بمكانته ، واهتموا بمعبده الرئيس في مدينة بابل وأعادوا إليه فخامته ورونقه بعد أن دمره الحثيون ، محاولة منهم لإقناع المواطنين بشرعية حكمهم وخلافتهم للأسرة الأمورية ــ البابلية القديمة . واتخذوا الألقاب الملكية البابلية والأكدية .

استطاع الآشوريون مدّ نفوذهم إلى بابل في الجنوب بعد اختفاء دولة الميتان فترة من الزمن . كما عادت لعيلام المجاورة في جنوب غربي إيران شجاعتها بعد أن رأت ضعف جيرانها الكاشيين في بابل ، فهاجم الآشوريون البلاد من الشمال ، والعيلاميون من الشرق ووضعوا حداً للحكم الكاشي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد وبداية القرن الثاني عشر . ولكن المستفيد الأكبر من ضعف الكاشيين والظروف السياسية في المنطقة كان الآراميون .

وهؤلاء قبائل سامية ــ بحسب الاصطلاح ــ كانت سمتها الأولى البداوة كأسلافهم الأموريين، وساروا على طريقتهم في الانتشار في سورية وبلاد ما بين النهرين . ويعود اسمهم

إلى آرام جدهم بحسب كتاب العهد القديم ، وسماهم البابليون أرْمايهِ ، وأشار إليهم المصريون والآشوريون باسم أخلامو ، وسوتو .

وقد اتسم تاريخ سورية كله خلال الألف الأول قبل الميلاد بسيادة مجموعتين كبيرتين من الشعوب ، هما الكنعانيون ، أو الفينيقيون كما دعاهم الإغريق ، وهم الذين استقروا على طول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط السوري ، والآراميون الذين مالبثوا أن استقروا في الداخل من سورية والعراق ، وأقاموا دويلات في تلك المناطق كان قدرها أن تجابه مقاومة شديدة ، وحروباً طاحنة مع الأشقاء الآشوريين الذين نشطوا إلى التوسع ، وإلى إقامة إمبراطورية هي الأكبر من حيث الامتداد حتى عصرها ، امتدت في عهد ملوكها الأخيرين ، ولاسيما آشور بانيبال ( ٦٦٩ ــ ٦٣٠ أو ٦٢٧ ق.م. ) ، حتى شملت مناطق الهلال الخصيب بكاملها إضافة إلى الأجزاء الغربية والشمالية من إيران والأجزاء الجنوبية والشرقية من آسية الصغرى ، وشمالي شبه الجزيرة العربية ، وقسماً كبيراً من سواحل الخليج العربي الغربية ، ومصر بكاملها وصولاً إلى بلاد النوبة .

ولكن قبيلة من الآراميين استطاعت أن تسيطر على الجنوب الرافدي في زمن الهيمنة الآشورية الأخيرة ، وهي قبيلة الكلدانيين ، بل وتحالفت مع جيران آشور الميديين في شمالي إيران وعدوتهم ضد الآشوريين للقضاء على هؤلاء ، وتقاسم أماكن سيطرتهم ، فآلت سورية بكاملها إلى حكمهم في زمن ملكهم نبوخذ نصر الثاني ( ٦٠٥ ــ ٥٦٢ ق.م. ) ، وبزغ في عصرهم الذي دعاه المؤرخون باسم عصر الدولة البابلية الجديدة ، أو الكلدانية ، بزغ فجر حضارة عظيمة كانت السبب في إطلاق اسمها على كل ما أبدع سكان بلاد الرافدين من إنجازات حضارية ، فقيل " الحضارة البابلية " التي تشمل كل العصور السابقة للحضارة في عصر الدولة البابلية الحديثة ، وهي الحضارة التي بهرت الإغريق ، وحملت الاسكندر المقدوني على احترامها وتبجيلها .

## لغات سكان المشرق العربي القديم :

### ١ـ في بلاد ما بين النهرين :

آ ـــ السومرية :

يتميز جنوب بلاد ما بين النهرين في فجر التاريخ بكثافة المدن التي ظهرت نتيجة لتوسع المستوطنات الزراعية ، وتجمع القرى ، خلافاً للمناطق الشمالية التي كانت مدنها أقل عدداً، وسكانها أقل كثافة ، على الرغم من سبقها الحضاري ، حيث كانت العملية الزراعية قد تمّ اكتشافها في المناطق الشمالية من قبل ، في جرمو ( شرقي مدينة كركوك ) منذ حوالي ٦٧٥٠ ق.م. وفي تل المغزالية ( على سفوح جبل سنجار ) وتل شمشارة ( على نهر الزاب الأصغر ، شمالي جرمو ) ، وكريم شاهير ... وظهرت قرى زراعية في المناطق الشمالية تلك ، مهدت الطريق مباشرة أمام انبثاق الحضارة في المناطق الجنوبية التي أصبحت فيما تلا من عصور مركز الحضارة في المشرق العربي القديم، ومحور تقدم الإنسان في تاريخه الحي . واشتهرت من بين تلك القرى غير جرمو ، حسونة الواقعة جنوبي الموصل ، وسامراء ، وحلف عند رأس العين في الجزيرة السورية التي كانت حضارتها أكبر أثراً في حضارة الشرق الأدنى القديم ، إذ كانت أول حضارة متجانسة ، انتشرت آثارها من شمال وشرقي بلاد ما بين النهرين شرقاً إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً . ومن الأناضول شمالاً إلى البقاع في لبنان جنوباً ، واستمر وجودها حوالي ألف سنة ، أي منذ منتصف الألف السادس إلى منتصف الألف الخامس قبل الميلاد ، وحلت محل الحضارة الزراعية المبكرة في شمال بلاد ما بين النهرين ، وتتميز بفخارها ذي السطوح المصقولة الذي وصل إلى ذرى لم يتسنَّ الوصول إليها بعد ذلك في بلاد ما بين النهرين ولا في المناطق المجاورة من حيث الصناعة الدقيقة المتقنة .

أما الجنوب الرافدي فقد تأخر في الظهور الحضاري ، فلم تظهر المستوطنات الزراعية إلا في أثناء العصر الكالكوليتي ( الحجري ـــ النحاسي ) . ولعل الرعاة سكنوا تلك الأنحاء

من قبل ، إلا أن مناطق الجنوب ، وهي التي دعيت اصطلاحاً " بلاد بابل " تصدرت بسرعة مذهلة مناطق الشرق الأدنى القديم بحضارتها ، حتى صارت بابل أكثر الحضارات تأثيراً في التاريخ القديم ، في الشرق والغرب ، في كثير من المعتقدات والعلوم والأدب .

ولم تنشأ حضارة الجنوب بمعزل عن حضارات الشمال ، بل كانت امتداداً لها ، وتطويراً لفعالياتها ، فانتقل الثقل الحضاري من الشمال إلى الجنوب ، ورجحت كفة الجنوب ، حيث كان على إنسانه أن يعتمد على ذكائه وجهده الكبير ليعوض نقص الأمطار في منطقته لسقاية مزروعاته ، وكي ينظم مجرى النهرين العظيمين ، دجلة والفرات ، والإفادة من مياههما بدلاً من الخوف من طوفانهما الرهيب ، ولاسيما في فصل الربيع عند ذوبان ثلوج هضبة أرمينية حيث ينبع النهران . فتوصل إلى حفر الأقنية ، وبناء السدود البسيطة التنظيمية ، واعتمد بذلك مبدأ الزراعة المروية ، وتخلى عن الزراعة البعلية نهائياً . وتطلب ذلك إدارة خاصة ، وتنظيماً اجتماعياً أدى إلى ظهور القرى الكبيرة التي تجمعت حول المعابد الدينية . ثم ما لبثت هذه القرى أن غدت بلدات في الفترة اللاحقة ، ومدناً تديرها أنظمة سياسية لاحقة .

فظهرت في الجنوب حضارة العُبَيْد التي سميت آثارها نسبة إلى موقع قريب من أور ( المقيّر حالياً ) في جنوب العراق في مطلع الألف الخامس من قبل الميلاد في الوقت الذي كانت فيه حلف تدخل في مرحلتها الثالثة والأخيرة .

كان سكان بلاد ما بين النهرين الأوائل المعروفون تاريخياً ينتمون إلى جنسين مختلفين في فجر التاريخ ، وهما : السومريون ، والساميون ، الذين كانوا يستوطنون المنطقة الجنوبية من بلاد ما بين النهرين ، ويتوزعون بأعداد غير متوازنة في المدن الرئيسية . ففي المدن الجنوبية القريبة من الخليج العربي كانت الغالبية العظمى من السكان تنتمي إلى العنصر السومري . أما المدن الواقعة إلى الشمال منها فكان العنصر السامي يشكل الأغلبية ، ولا سيما في مدن كيش ، وسيبار ، وإشنونا ، كما نوهنا من قبل .

أما في مناطق بلاد ما بين النهرين الشمالية فكان الساميون هم العنصر الأساسي ، بل الرئيس من السكان قبل مجيء الحوريين ، وبقوا كذلك من بعد هجرة هؤلاء إلى شمالي بلاد ما بين النهرين وسورية .

أما لغة السومريين فتتميز عن لغة الساميين بخصائص تجعلها غريبة عن المحيط الذي كان يعيش فيه أهلها ، مما حمل الاختصاصيين على الاعتقاد بأنهم لا ينتمون إلى شعوب المنطقة الساميين أو الآريين ( الهندو ـــ أوربيين ) من الناحية الإثنية أيضاً، إذ كانوا أميل إلى الامتلاء، وأقصر قامة من الساميين، وتبدو أنوفهم في الرسوم عريضة ومستقيمة ، ويظهرون في عصورهم الأولى في أغلب المشاهد المصورة من دون لحى ، ثم تظهرهم تماثيلهم في أواخر عصر السلالات الباكرة وفجر التاريخ بلحى كثة . ويظهر حكامهم في فنونهم التشكيلية ، وهم يرتدون ثياباً نصفية تمتد إلى ما تحت الركبة مرسلة في صفوف على هيئة فلوس السمك تشبه شبكة الصيد[٢] حتى اعتقد الباحثون أن السومريين شعب غريب عن المنطقة التي عرفت باسمهم في العصور التاريخية التي وفدوا إليها من موطنهم الأصلي الذي لم تتوافر أدلة مؤكدة تحدد مكانه ، على الرغم من اجتهادات الباحثين المتعددة ، إن لم يكونوا من السكان الأصليين فعلاً .

فقد افترض بعضهم أن أجداد السومريين جاؤوا إلى مكان إقامتهم في جنوبي العراق من المرتفعات الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية ، أو أنهم كانوا بدواً يعيشون في المناطق الواقعة ما وراء القوقاز ، أو ما وراء بحر قزوين ، ويتبنى هذا الرأي صمويل كريمر المتخصص في علم الدراسات السومرية[٣] . وفريق ثالث يرى أن السومريين قدموا من جهات الهند ، من وادي السند أو جنوبي بلوجستان عن طريق جنوبي إيران ، أو عن البحر ، واستوطنوا البحرين

---

[2] ـــ عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ٤٤٦ ؛ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١ / ٦١ وما بعدها . هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى ، ٨٣ .

[3] ـــ من ألواح سومر ، الفصل ٢٢ .

( دلمون / تلمون ) التي هي البحرين اليوم ، قبل أن يتابعوا هجرتهم إلى جنوبي العراق . ويورد كل فريق من أولئك الباحثين قرائن وحجج لآرائه . لكن الحجة الرئيسة التي تؤكد غربتهم عن المحيط الذي عاشوا فيه في سومر ، أي جنوب العراق ، هي لغتهم ، كما ذكرنا ، فهي لغة إلصاقية Agglutinative ، وليســـت لغة متصرفة كاللغات السامية واللغات الهندية ـــ الأوربية واللغات الحامية ، بحسب تصنيف علماء اللغة الذي يعتمد على بناء اللغة وتركيبها . فالفعل في اللغة السومرية وفي اللغات الإلصاقية بعامة لا يتصرف بحيث تُعرف صيغ المتكلم والمخاطب والغائب ،وصيغ المذكر والمؤنث ، والمفرد والجمع ( أو المثنى كما في اللغات السامية ، ومنها العربية ) ، إذ أن الإلصاق يعني إدماج الضمير في الفعل المتصل به ، ومزج لفظين أو أكثر لتكوين كلمة جديدة تبعاً لقواعد محددة من دون تغيير في الألفاظ الأساسية التي تستخدم لتركيب الصيغ أو الألفاظ الجديدة . وتشبه في ذلك السومرية لغة عيلام في جنوب غربي إيران القديمة ، ولغة الحثيين البدائية في آسية الصغرى ، واللغة الحورية ـــ الأورارتية في شرقي آسية الصغرى . ولكن اللغة السومرية لا تمت إلى تلك اللغات ولا إلى غيرها من اللغات الإلصاقية بصلة قرابة في تلك الحقبة من التاريخ القديم ، كما لا تمت بصلة قرابة إلى اللغات الإلصاقية الأخرى المعاصرة ، من مثل اللغة الفنلندية ، أو اللغة المنغولية ، أو لغات الترك ، ولغة الباسك التي يتكلمها سكان المناطق الواقعة في شمالي إسبانية والمناطق الفرنسية المجاورة ، أو بعض لغات مناطق القوقاز ، كالجورجية ـــ مثلاً ـــ على الرغم من الجهود التي بذلها علماء اللغة لتقريب اللغة السومرية من هذه اللغات[٤] .

وقد استطاع المختصون قراءة النصوص السومرية الكثيرة التي تمّ العثور عليها مكتوبة بالخط المسماري الذي ينسب إلى السومريين ابتكاره في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ، ثم تطويره من بعد . ومنها نصوص دينية وأدبية ، واقتصادية ، وإدارية ، وتشريعية . ومازالوا

---

[4] ـــ فاضل عبد الواحد علي ، من ألواح سومر إلى التوراة ، ص ٣٩ وما بعد .

Falkenstein , in Fischerweltgeschichte , 2 , 47 .

يتابعون دراساتهم لارتباطها الوثيق بمشاكل قراءة الكتابة المسمارية المعقدة التي ما انفك علماؤها يختلفون حول صحة قراءاتهم لها .

وتعود أقدم تلك النصوص إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد . وعثر عليها علماء الآثار في مواقع كثيرة ، ومنها أوروك ( الوركاء ) ، وأور ، وشروباك ، وأبو صلابيخ حيث وقع الأمريكي بيجس في عام ١٩٦٥م على نصوص مهمة يعود تاريخها إلى حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م. ذات علاقة بنصوص إبلا ( تل مرديخ ) في سورية .

بقيت لغة السومريين لغة الثقافة والدين خلال العصر الأكدي اللاحق، وعصر الجوتيين، والعصر البابلي ، وإلى هذا العصر تعود نصوص سومرية كثيرة نسخها الكتّاب عن أصولها الأولى ، أو أعادوا كتابتها ، فوصلت إلينا نصوص سومرية اقتصادية وقضائية وإدارية وأدبية كثيرة ، ولاسيما نصوص الملاحم والأساطير السومرية . وما إن أهلّ الألف الثاني قبل الميلاد حتى كُتبَ على اللغة السومرية أن تختفي من على ألسنة الناس نهائياً ، لتحل محلها البابلية السامية التي اكتسبت صفة اللغة العالمية زمناً طويلاً ، إلى أن حلت محلها اللغة الآرامية السامية أيضاً ، قبل أن تتخلى للغة العربية السامية كذلك عن المكان بعد ظهور الإسلام .

كان قدر السومريين أن يذوبوا في المجتمع البابلي ، ويختفي ذكرهم إذ لم يلقوا من جنسهم ، أو من فئات تنتمي إلى أصولهم ، روافد بشرية جديدة ، بينما كان الساميون يتكاثرون في المنطقة ، وتتزايد أعدادهم ، وتمدهم الهجرات المتتالية من مناطق البوادي الشمالية الغربية والغربية بعناصر من القبائل السامية الجديدة التي لا تلبث أن تستقر ، وتنهض بعبء الحضارة ، بعد أن تذوب هي الأخرى في المجتمع الجديد ، وتعمل على إقامة الحكومات المتتالية في بابل والهلال الخصيب .

لم يكن السومريون أقدم سكان بلاد الرافدين الجنوبية ، وإنما كان الساميون يشاطرونهم العيش في تلك المنطقة ، كما ذكرنا ، إضافة إلى عناصر أصيلة كان لها فضل إقامة الحضارات الأولى السابقة ، ومنها حضارة أوروك ، وحضارة العبيد . وتشير إلى ذلك شواهد لغوية تضمنتها اللغة السومرية ، واحتفظت بها اللغات الأخرى، ومن تلك الألفاظ : دجلة

( إديقلات ) والفرات ( بورانون/بورنونا)، وعدد من أسماء المدن : إريدو ، شوروباك ، أور، لجش ، نيبور ، وغيرها من الألفاظ التي تتصل بالحياة الاقتصادية ، ولا سيما الزراعية . وقد تبين أنها ألفاظ ليست من صلب اللغة السومرية ، ولا هي من الألفاظ السامية . ولعالم السومريات المعروف لاندزبرجر Landsberger وجهة نظر تتصل بأولئك السكان المجهولين ولغاتهم القديمة ، فيرى أنهم كانوا يستوطنون جنوبي بلاد الرافدين ومناطق الفرات الوسطى ، ويطلق عليهم اسم " الفراتيون الأوائل " Proto euphrats، وينسب إليهم أسماء عدد من المدن، كما ينسب إليهم أسماء عدد من المهن الزراعية والحرف الصناعية الضرورية لمجتمعهم . وقد وافقه على رأيه العالم المشهور جلب Gelb [5] .

وأكثر ما يبرز من مظاهر حضارة السومريين ، وهم الذين يبدأ بحق تاريخ بلاد ما بين النهرين الفعلي بهم بإجماع الباحثين الاختصاصيين ، العمارة ذات الطابع الديني ، ولا يشك الباحثون بأنهم طوروها عن نماذج من حضارة أوروك السابقة، ومن حضارة العبيد من قبلها. ويلاحظ حرص السومريين على بناء معابدهم فوق منصات مرتفعة وعلى بنائها من الأحجار، وكثرة استخدامهم للمادة الحجرية بعامة ، ولاسيما في النحت، مما يشير إلى أصلهم الجبلي ، أو ابتغاء رفع تلك المنشآت عن مستوى الأرض الرطبة في السهل الرسوبي الذي كانت تنتشر فيه مدنهم ، حتى غدت تلك المعابد ظاهرة فريدة لفن العمارة في بلاد ما بين النهرين ، وصار يطلق عليها اسم الزقورة من بعد ، وقد احتفظت بشكلها المميز من زقورة الإله إنليل في نيبور إلى زمن تجديد بناء برج بابل المشهور في عهد والد الملك الكلداني ( البابلي ) نبوخذ نصر ( ٦٠٥ ــ ٥٦٢ ق.م. ) ، وهو البناء الذي ذاع صيته في العالم القديم ، ووصفه المؤرخ الإغريقي هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد .

---

[5] ــ فاضل عبد الواحد علي ، المرجع السابق ٢٩ وما بعد .

### ب ـــ الأكدية ( البابلية والآشورية ) :

يسود الاعتقاد بين المختصين بأن الساميين كانوا يستوطنون بلاد ما بين النهرين منذ بدايات الحضارة الأولى ، ولا سيما في فجر التاريخ أو ما يسمى بالعصر الشبيه بالكتابي ، أي العصر الذي ظهرت فيه تباشير الكتابة الأولى التي تمثلت بالصور التي تمّ العثور عليها في أوروك ( الوركاء الطبقة الرابعة ) ، والتي يعود تاريخها إلى حوالي ٣٢٠٠ ـــ ٣١٠٠ قبل الميلاد . وكان للساميين مشاركة فعّالة في بناء الحضارة ، والتوصل إلى جملة من إنجازاتها مع السومريين الذين كانوا يشكلون وإياهم العنصرين الأساسيين لسكان بلاد ما بين النهرين ، كما نوهنا ، قبل قيام الدولة السامية الأولى في المنطقة على يد الملك سرجون ( شَرّوكين ، كما يسمى في الكتابات المحلية ) حوالي عام ٢٣٤٠ قبل الميلاد ، والتي دعيت نسبة إلى عاصمتها باسم " الدولة الأكّدية " ، ودعي مواطنوها باسم " الأكّديين " ، إذ يحتمل أن يكون هؤلاء قد رفدوا أقرباءهم من الساميين الذين كانوا يستوطنون البلاد منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، وكانوا في طليعة مستوطني ما يدعى باسم " بلاد بابل " Babylonia . ولكن أقدم الشواهد الفعلية على وجود الساميين هناك يتمثل في أسماء العلم السامية التي وردت في نصوص أور السومرية التي يعود تاريخها إلى حوالي القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد . وفي الألفاظ السامية التي دخلت اللغة السومرية نفسها منذ عصر بداية الأسرات ، وهو ما يدعى باسم دول المدن السومرية أو العصر السومري القديم . ونسوق على ذلك بعض الألفاظ بالأمثلة ، ومنها : لفظة ( سام ) في السومرية ، وأصلها في الأكّدية ( شام ) ومعناها " اشترى " . وكلمة ( أَرَد ) في السومرية ، وأصلها في الأكّدية ( وَرَد ) ومعناها " ورد ، نزل " ، ولفظة ( سوم ) السومرية ، وأصلها ( شوم ) في الأكّدية ، بمعنى " ثوم " . ومثلها كلمات : تاجر ، نجّار ، راعي ، مسكن ، جبل ، وغيرها[6] . فبينما كانت المدن

---

[6] D. O. Edzard, in Fischerweltgeschichte, 2, 66 Gelb , Sumerians and Akkadians in their Ethno Linguistic Relationship, 262 ff.

فاضل عبد الواحد علي ، المرجع السابق ، ص ٣٧ .

السومرية تقوم إلى الشمال مباشرة من الخليج العربي ، كانت مدن الساميين تقوم إلى الشمال منها ، في المنطقة الواقعة بين بغداد اليوم ، حيث كانت مدينة إشنونا تقع إلى الشمال الشرقي منها قرب نهر ديالى ، وبين مدينة نيبور في وسط البلاد ، بلاد بابل ، وهي مدن كانت مدينة كيش ( تل الأحيمر اليوم ) أقدمها وأشهرها ، وهي المنطقة التي صارت تدعى من بعد باسم " أرض أكّد" نسبة إلى عاصمة الدولة الأكّدية، مقابل " ارض سومر " في الجنوب السومري. ولكثرة شهرة ومكانة ملك كيش صار معظم ملوك الجنوب الرافدي من سومريين وساميين يحملون لقب " ملك كيش " ، وإن لم يكونوا من ملوك مدينة كيش فعلاً ، ويعتدّون بهذا اللقب لما كان لملك كيش الفعلي يتمتع من نفوذ معنوي على الأقل على المدن الأخرى كافة، وقد يعني " ملك بلاد بابل " أو ما يضاهيه[7] .

ويدلل ذلك من دون شك على نفوذ الساميين ودورهم السياسي منذ بدايات العصر السومري القديم . ولكن دورهم الفعّال والمهيمن بدأ بوضوح بقيام أول دولة لهم في بلاد الرافدين ، وهي الدولة الأكّدية التي وحّدت كل دول المدن السومرية والسامية لأول مرة، ثم امتدت إلى الشمال الرافدي ، وشمال سورية ، والخليج العربي ووصلت إلى عُمان ( ماجان ).

أما الشمال الرافدي والذي يضم شمالي العراق والجزيرة السورية ، بحسب الاصطلاح ، فكان سكانه الذين يعاصرون السومريين والساميين الأوائل والأكّديين كان معظمهم ساميين إلى جانب أقلية ممن عرفوا في النصوص السومرية و الأكّدية الأولى باسم " السوباريين " . وهؤلاء قوم لا يُعرف لهم أصل ، و لم يتركوا من لغتهم أثراً يمكن الاستدلال منه على انتمائهم الاثني ، سوى أسماء بعض الأمكنة والآلهة المغمورة . وكان وجودهم لبعض الوقت ، ثم ما لبثوا أن اختفوا وذابوا في المجتمع السامي . وسمي الساميون الذين أقاموا في شمالي بلاد ما بين النهرين اصطلاحاً باسم " الآشوريين " نسبة إلى عاصمة البلاد آشور ، أو إلى إلههم الرئيس ، في الوقت الذي كانت هذه المناطق تدعى في النصوص البابلية باسم " سوبارتو "

---

7 ــ أنطون مورتكات ، تاريخ الشرق القديم ، ص ٧٢ ؛ ساكز ، عظمة بابل ، ص ٦٠ ، طه باقر ، ص ٢٨٦ .

حتى منتصف القرن السادس قبل الميلاد . أما الآشوريون فكانوا يتحاشون استخدام هذه التسمية سوبارتو اسماً لبلادهم لأنها صارت تعني في لغتهم أيضاً ما يدل على صفة " العبد " ، إذ كان الآشوريون يتسلطون على السوباريين ويستعبدونهم قبل أن يختفي ذكرهم . وكانوا يستوطنون في البداية المنطقة الواقعة بين نهري الزاب الأعلى والزاب الأسفل ، وعلى جانبي نهر دجلة ، ثم عملوا على ترحيل السوباريين إلى الجبال الشرقية المجاورة ، ولكن أعداداً منهم بقيت في أماكنها وتعايشت مع الأوضاع الجديدة . وكان الآشوريون عندما يشتد عودهم ، وتنهض همتهم يتوسعون باتجاه الجزيرة السورية ( العليا ) ، إذ كانت هذه منطقة امتداد طبيعية لهم وصولاً إلى نهر الفرات ، كما كان في زمن الدولة الآشورية القديمة التي عاصرت الدولة البابلية في عهد ملكها المشهور حمورابي . فكان الملك الآشوري شمشي أدد الأول قد استولى على الجزيرة العليا ، ولا سيما ماري التي طرد ملكها زيمري ليم ، وعين ابنه يسمخ أدد ملكاً عليها ، واستولى على كل المناطق الواقعة إلى الشمال من بابل والقريبة منها ، ولم يكن حمورابي يجرؤ على التوسع شمالاً طوال حياة شمشي أدد الآشوري .

وفي نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وصل الحوريون إلى شمالي الهلال الخصيب ، شمالي بلاد ما بين النهرين وسورية ، قادمين من جهات بحيرة فان ، وامتزجوا بالسكان المحليين الساميين ، وتشربوا الحضارة البابلية وتقمصوها ، وتعايشوا مع سكان المناطق التي أمّوها من آشوريين وآموريين ، ولم يحاولوا إنشاء دولة لهم قبل ظهور أقربائهم الميتانيين المحاربين الذين أقاموا دولة حوري ــ ميتاني ، واتخذوا مدينة واشوكاني على مقربة من منابع نهر الخابور عند رأس العين حاضرة لهم ، وهي الدولة التي كان الآشوريون يطلقون عليها اسم ( خاني جالبات ) ، وسماها المصريون باسم ( مثن ) = ميتاني و( نهارينا ) .

كانت للحوريين لغتهم الخاصة[8] التي لا زلنا نفهمها بشكل جزئي بسبب الغموض في نظام الكتابة المسمارية ، لأنهم كتبوا لغتهم الحورية بالكتابة المسمارية أسوة بكل شعوب

---

[8] _ G. Wilhelm , Grundzüge der Greschichte und Kultur der Hurriter , Darmstadt 1982 .

المشرق القديم آنذاك . ويظهر كثير من أسماء العلم الواردة في الكتابات الاقتصادية التي عثر عليها منتشرة في شمالي سورية وفي أوغاريت ، وكان أعظم آلهة الحوريين الإله تيشوب ، إله المطر والصواعق الذي كان أكبر معابده المعروفة في مدينة حلب .

أما لغة الساميين في بلاد ما بين النهرين فهي التي دعاها المستشرقون باسم " اللغة الأكّدية " ، نسبة إلى اللغة الرسمية لأول دولة سامية قامت هناك . فاللغة الأكّدية هي أقدم لغة سامية مكتوبة في بلاد ما بين النهرين ، وتُعْرَف بقواعدها المتميزة التي تظهر فيها كثير من خصائص اللغات السامية الأصيلة ، ولا سيما الحركات الإعرابية الأساسية ، وهي الضم والفتح والكسر ، وإشباعها لبيان حالات الرفع والنصب والجر في الاسم بخاصة ، وفي كثير من حالات الفعل ، ولا سيما في حالتي الرفع والنصب ، كما هو معروف في اللغة العربية ، وبعض اللغات السامية القديمة . ولكن للغة الأكّدية خصائصها التي تجعل منها شعبة لغوية خاصة بين اللغات السامية الشقيقة ، في أصواتها ، وتصريف الفعل ، وأوزانه ، وأبنيته ، وفي تركيب الجملة لاتصال أصحابها الوثيق بالسومريين ، مما أدى إلى تأثرها باللغة السومرية من حيث موقع الفعل في الجملة الشرطية بخاصة . ولما كانت اللغة الأكّدية تكتب بالخط المسماري الذي اقتبسه الأكّديون عن السومريين وطوروه ، فإن أصوات اللغة الأكّدية الحقيقية لم تظهر في الكتابة ، ومنها الأصوات السامية المتميزة الحاء والعين والغين والقاف والصاد والضاد والطاء والظاء .

انتشرت اللغة الأكّدية بقيام الدولة ، وامتدادها في كل بلاد ما بين النهرين وشمالي سورية وعلى الطرف الغربي من الخليج العربي . ولم تختفِ بعد سقوط الدولة الأكدية ، بل بقيت حية في الجنوب بفرعها البابلي ، وفي الشمال بفرعها الآشوري . فقد ظهرت اللغة البابلية ، نسبة إلى العاصمة البابلية بابل في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد ، واستمر نفوذها حقبة من الزمن تنوف على الألف سنة ، إذ كانت لغة الحضارة في المشرق العربي القديم ، ولغة المراسلات الدولية بين حكام الشرق القديم بكامله ، من إيران في الشرق إلى آسية الغربية في الشمال ، ومصر في الجنوب الغربي . وظهرت اللغة الآشورية ، نسبة

إلى العاصمة آشور والإله آشور ، في الوقت نفسه الذي كانت تسود فيه اللغة البابلية . ولم تكن الاختلافات كبيرة بين اللغتين البابلية والآشورية أو جوهرية . وكانت الحركات الإعرابية واضحة فيهما في بداية ظهورهما ، ثم أخذت بالاختفاء تدريجياً حتى غابت نهائياً في المرحلة الثالثة والأخيرة من حياة اللغتين . ويجنح المختصون إلى إطلاق اسم اللغة الأكّدية عليهما ، فهما فرعان أو لهجتان منها .

**٢ ـ في سورية :**

سكن سورية ( بلاد الشام ) كما ذكرنا منذ الألف الثاني قبل الميلاد من الأقوام السامية: الكنعانيون والآراميون ، ومن قبلهم ظهر الإبلائيون ، والكنعانيون الذين كانوا سكان الساحل السوري ، ويُنْسَبون إلى كنعان الذي هو من نسل حام ، كما تذكر التوراة ، مع أن اللغة الكنعانية سامية ، ولغة التوراة العبرية نفسها فرع من الكنعانية . وسنناقش هذه المسألة فيما بعد حين نتحدث عن مصطلح الساميين وصحته .

وقد أطلق الكنعانيون على أنفسهم تسمية " الكنعانيين " التي قد يكون لها أصل في المادة اللغوية ( كنع ) السامية التي تعني " انخفض ، تواضع " . ومنها اسم " أرض كنعان " التي ترد كثيراً في كتاب العهد القديم ، بمعنى " أرض الكنعانيين " ( أي فلسطين فيما بعد ) ، وهؤلاء هم أصحاب الأرض الأصليون الذين اغتصبت القبائل الإسرائيلية أرضهم وعملت على إبادتهم ، وتعني لغوياً " الأرض المنخفضة " إذا ما قورنت بالجبال والمرتفعات التي تحدها من الشمال والشرق ، في لبنان وشرقي الأردن . وتشير التوراة دائماً إلى أن الكنعانيين كانوا يستوطنون السهول والأراضي المنخفضة ، بينما كان الأموريون يقيمون في المرتفعات . وتدعو النصوص الحورية كنعان بلفظة كْناجّي Knaggi والنصوص الأكّدية تذكر كنعان بلفظة كِناخّي Kinakhkhi ، التي نستطيع أن نقرأها كِناعّي ، إذ أن الخاء في الكتابة الأكّدية المسمارية تحل محل العين أيضاً ، كما هو معروف لدى الاختصاصيين ، فاسم حمورابي الذي عربناه عن المؤلفات الغربية هو خَمّورابي ، والأصل عَمّورابي ، أي " الإله ( الأموري ) عَمُّو

عظيم " ، وإذا لفظ Khammurapi ، كما اتفق غالبية الاختصاصيين ، صار معناه " ( الإله ) عَمُّو شافٍ " .

وقد أطلق الإغريق في الألف الأول قبل الميلاد على التجار القادمين من الساحل السوري، ولا سيما من صيدا وصور وجبيل وأرواد ، اسم " الفينيقيين " ، وذلك لأن اللون الأحمر الأرجواني كان يغلب على أشرعة سفنهم ، وأقمشتهم التي كانوا يبيعونها لهم ، فاللفظة تعني في اللغة الإغريقية ( اليونانية ) اللون " الأحمر الأرجواني " . فانتشرت هذه التسمية وطغت على تسمية الكنعانيين، ولا سيما في التاريخ القديم ومؤلفاته ، ومازالت، وكاد الناس ينسون الاسم الأصلي الذي لم يعد رائجاً في غير المدونات المحلية والاختصاصية .

وتفرع عن اللغة الكنعانية الأصلية عدد من اللهجات أو اللغات ، وهي :

**آ ــ اللغة الأوغاريتية :**

وهي لغة دولة أوغاريت التي تمّ الكشف عن آثارها في رأس الشمرة ، شمالي مدينة اللاذقية ، والتي ازدهرت في القرنين الخامس والرابع عشر قبل الميلاد ، وتُمثّل حضارتها وآثارها الأدبية الفكر الكنعاني وديانة الكنعانيين ومعتقداتهم بحق ، وتقدم كتاباتها معلومات جمة عن الواقع السياسي والاقتصادي والحضاري لسورية وجيرانها في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد . وتنبئ عن ظهور أول كتابة ألفبائية في تاريخ البشرية ، إذ تَبيَّن أن لغتها المحلية ، أي اللغة الأوغاريتية ، كتبت بحروف تعبر عن أصوات يبلغ عددها ثمانية وعشرين حرفاً كعدد حروف اللغة العربية ، شقيقة الأوغاريتية . ولكن شكل حروفها كان مسمارياً ، لذلك ظن المنقبون عن آثار أوغاريت الفرنسيون وغيرهم ممن شاهد الكتابات المنقوشة على الطين لأول وهلة أنها كتابات مسمارية أكّدية أو سومرية ، ثم تبين أن تلك الرموز المسمارية إن هي إلا حروف ألفبائية محدودة العدد ، وليست رموزاً مقطعية كالتي عُرفت من قَبْلُ في الكتابات السومرية و الأكّدية . كانت اللغة الأوغاريتية لغة محلية ، لم يكتب لها الانتشار خارج الإقليم الممتد بين جبل الأقرع وشمالي طرطوس ، كما لم يكتب لكتابتها

الأبجدية أن تمتد إلى أكثر من ذلك : فانقرضت اللغة بعد دمار أوغاريت في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ومعها الكتابة الأوغاريتية .

**ب ـــ اللغة الفينيقية :**

ويقصد بها عند المختصين لغة المدن الكنعانية الممتدة بين أرواد شمالاً إلى الساحل الفلسطيني جنوباً، وبخاصة لغة صيدا وصور وجبيل، التي دعاها الإغريق فينيقية ، كما ذكرنا. ازدهرت بدءاً من النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد . وكانت كتابتها ألفبائية ، كما تدل آثارها ، وأقدمها نقش على قبر لملك جبيل أحيرام يُعَدُّ كذلك أطول النقوش الفينيقية المعروفة . وكانت الكتابة الفينيقية تَعُدّ اثنين وعشرين حرفاً هي " أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت " ، بحسب الترتيب المعهود ، ولكنها كانت من دون شك تعبّر عن ثمانية وعشرين صوتاً ، كما نعلم من اللغة العبرانية ( الكنعانية ) التي تعرف العدد نفسه من الحروف . إذ إن الكتابة الفينيقية هي أصل الكتابة الآرامية التي انتشرت في المشرق ، وفي أنحاء كثيرة من الشرق ، وأصل الكتابة الإغريقية التي انتشرت في أوربا عن طريق الرومان وكتابتهم اللاتينية ، والكتابة السلافية ( الكيريلية ) والأرمنية ، وغيرها من الكتابات الأبجدية في العالم القديم . فصارت الكتابة الفينيقية أم كتابات العالم الأبجدية قاطبة .

بقيت اللغة الفينيقية حيّة حتى ميلاد السيد المسيح وبعده بسنوات قليلة . ومن الفينيقية ظهرت اللغة البونية في قرطاجة ( تونس اليوم ) التي انتشرت في شمالي إفريقية وشبه جزيرة إيبرية ، وعلى طول سواحل البحر الأبيض المتوسط الغربية في الألف الأول قبل الميلاد . والبونية اسم أطلقه الرومان على لغة الفينيقيين في مملكة قرطاجة ومستعمراتها في غربي البحر المتوسط ، ومن هنا جاءت تسمية " الحروب البونية " التي وقعت بين قرطاجة وروما ، وهي حروب ثلاث طويلة الأمد واشتهر من قادة القرطاجيين فيها القائد هانيبال . وقد تمّ العثور على نقوش فينيقية كثيرة في عدد من جزر البحر الأبيض المتوسط ، ولا سيما في جزيرة قبرص القريبة من الساحل السوري .

### ج ـــ اللغة العبرية :

وهي لغة كتاب العهد القديم المقدس لدى اليهود بأقسامه الثلاثة : التوراة ، والأنبياء ، والمكتوبات . وورد ذكرها في الكتاب المذكور باسم " لغة كنعان " ، ثم دعاها أحبار اليهود في شروحهم اللاحقة وتفاسيرهم لأسفار الكتاب باسم العبرية . وتمثل اللغة العبرية القديمة لهجة كنعانية متميزة بأصواتها وألفاظها لتأثرها ـــ كما يبدو ـــ بلغة القبائل الإسرائيلية الأصلية ، إذ يعتقد كثير من المختصين أن لغة القبائل الإسرائيلية لم تكن كنعانية ، ويميلون إلى القول بأنها كانت قريبة من الآرامية أو غيرها من لغات المنطقة . ولكنهم تخلوا عن لغتهم تلك الأساسية ، وتحدثوا العبرية ( الكنعانية ) ، لغة أهل البلاد التي كانت تدعى باسم " أرض كنعان " ، فاستولوا على الأرض ، وتحدثوا لغة أصحاب الأرض الشرعيين ، واقتبسوا حضارتهم . وكتبوا لغتهم بالحروف الفينيقية ، ثم مالوا عنها لاحقاً إلى الحروف الآرامية ، وتأثروا باللغة الآرامية نفسها التي سادت في الشرق العربي القديم ، وحلت محل الأكّدية ( البابلية ) ، وغدت لغة عالمية ، يفهمها ويتحدث بها السكان في كل مكان من المشرق العربي القديم . وظهرت آثار الآرامية في نصوص الكتاب وأسفار العهد القديم نفسه[9] . ثم ما لبثت اللغة العبرية أن انكفأت على نفسها ، وأمست لغة التراتيل الدينية والطقوس في المعابد ، ودور العلم ، وحلت اللغة الآرامية محلها على ألسنة اليهود وفي كتاباتهم . ثم شهدت اللغة العبرية في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس نشاطاً مشهوداً ، حفز علماءها إلى التأليف في قواعد اللغة العبرية ، وتثبيت نحوها وصرفها بتأثير من النحو العربي . وشهد العصر الأندلسي عصر الأدب العبري الثاني . ثم ما لبثت أن اعتراها الضعف بعد طرد العرب المسلمين ومعهم اليهود من الأندلس في القرن الثالث عشر الميلادي ، وآلت إلى الزوال

---

9 ـــ ونجد ذلك في سفر دانيال ٢ ـــ ٧ ، ٢٨ . وسفر عزرا ٤ ، ٨ ـــ ٦ ، ١٨ وبعض الألفاظ المتفرقة . ودعيت هذه الآرامية باسم آرامية كتاب العهد القديم .

والانقراض ، حتى ظهرت الحركة الصهيونية في بداية القرن العشرين التي أعادت إليها الحياة من جديد .

**د ـــ اللغة المؤابية :**

وهي لغة سكان منطقة جبل مؤاب في شرقي الأردن ، ولا يعرف من آثارها اللغوية سوى نقش لأحد ملوك المنطقة يدعى ميشع . ويرجع تاريخ هذا النقش الذي كتب بالحروف الفينيقية إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، ويتحدث فيه الملك عن حربه مع الإسرائيليين وانتصاره المؤزر عليهم . وهي لغة ، كما يبدو من هذا الأثر اللغوي ، لا تختلف في بنائها وأصواتها عن اللهجات الكنعانية الأخرى .

هذه لغات الكنعانيين الرئيسة ، وهم سكان الساحل السوري وما يجاوره في الشرق ، ومناطق انتشارهم على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط الذي كان في عصر ازدهار تجارتهم في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد بحراً فينيقياً نتيجة لقوة أسطولهم التجاري والحربي ، وكثرة مستعمراتهم على السواحل وفي الجزر .

أما **اللغة الآرامية** فهي لغة سكان سورية الداخلية في البداية ، ودعيت بهذه التسمية نسبة إلى آرام جدهم الأكبر بحسب الرواية التوراتية . وقد ظهرت بوصول القبائل الآرامية إلى المدن الرئيسة في بلاد الشام و بلاد ما بين النهرين قبيل منتصف الألف الثاني قبل الميلاد . وكأنها تترسم خطى القبائل الأمورية التي سبقتها إلى تلك المناطق ، كما ذكرنا ، وأقامت أسراً حاكمة في ماري وحلب ( يمحاض ) وألالاخ ، وقطنا ، وآشور ، وبابل في بداية الألف الثاني قبل الميلاد . ولكن الآراميين اختاروا مناطق الفرات الأوسط وشمالي سورية ووسطها دار سكن واستقرار لهم قبل أن تقرروا التوجه إلى جنوبي بلاد الرافدين وشماله ، ويهدّدوا أمن بابل وآشور واستقرارهما ، ويُتوّجوا نفوذهم بتولي الحكم في بابل وإقامة الدولة الكلدانية ( البابلية الحديثة ) .

ونتيجة لانتشار الآراميين في تلك المناطق الشاسعة انتشرت اللغة الآرامية منذ النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد ، واستطاعت أن تنافس اللغة الأكّدية ( البابلية والآشورية ) التي كانت تسود المشرق العربي القديم ، ثم حلت محلها ، بسبب سهولة تراكيبها وكتابتها الألفبائية ، حتى صارت لغة الدولة الفارسية فيما بعد في المقاطعات الغربية ، حيث بلاد ما بين النهرين وسورية ، وغدت اللغة الرائجة في المجال التجاري والثقافي والإداري . وكانت لغة السيد المسيح التي بشر بها الناس بالدعوة الإلهية . وقد خلفت اللغة الارامية القديمة عدداً من النقوش والكتابات . ثم ظهرت منها لهجات كانت اللغة السريانية أهمها وأكثرها انتشاراً ، وهي لغة المسيحيين من الآراميين ، وكان مركز إشعاع حضارتهم مدينة الرها ( أورفه التركية اليوم ) ونصيبين وحران وطور عبدين .

وتتميز السريانية بقواعدها اللغوية الخاصة ( نحوياً وصرفياً )[١٠] ، وكتابتها التي عرفت عدداً من الخطوط . وكان لأهلها نشاط ثقافي وديني لم تعرفه شعوب المنطقة من قبل ، ولعبوا نتيجة لذلك دوراً رئيساً في تعرّف العرب والمسلمين مِنْ بَعْدُ على الثقافة الإغريقية بمختلف جوانبها العلمية والفلسفية من خلال المراكز الحضارية التي أنشأوها في الرها ونصيبين وحران وقنسرين وغيرها ، فنقلوا التراث الفكري والعلمي اليوناني إلى العربية ، وأسدوا بذلك للإنسانية خدمة جليلة ، إذ نقلت تلك العلوم إلى اللاتينية في العصور الوسطى وعن طريقها تعرف الغرب على الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان القديمة ، لذلك يعود الفضل في حفظ التراث الإغريقي إلى السريان في المقام الأول ، ثم إلى العرب .

كما كتب العرب الأنباط باللغة الآرامية ، وكذلك العرب التدمريون ، وعرب مدينة الحضر ( شمالي العراق اليوم ) . وقد ذكرنا أن سفر دانيال ، أحد أسفار كتاب العهد القديم العبري ، كُتِب بالآرامية ، وغيره من تفاسير الكتاب المقدس . ولا زالت ثلاث من قرى القلمون ( شمالي دمشق ) يتكلم سكانها لغةً آرامية إلى اليوم ، في معلولا وبخعة وجبعدين .

---

[10] ـــ أحمد ارحيم هبو ، المدخل إلى اللغة السريانية وآدابها ، جامعة تشرين ، مطبعة دار الكتاب ، دمشق ١٩٩٠ . .

وثمة لغة في العراق آرامية تدعى باسم " اللغة المندعية " ، وهي لغة الصابئة ، وتُعَدُّ إحدى اللغات المتفرعة عن الآرامية .

وثمة لغة سامية تمّ العثور على آثارها في عام ١٩٦٤ في تل مرديخ على مقربة من مدينة حلب وإدلب تعود إلى عاصمة لمملكة إبلا التي كان ازدهارها في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، وتمّ تدميرها على يد حفيد سرجون الأكّدي ( ٢٣٤٠ ـــ ٢٢٨٤ ق.م. ) المسمى نرامسين ( ٢٢٦٠ ـــ ٢٢٢٣ ق.م. ) ، وكان جده أول من غزاها وذكر تدميره لها في حوالي عام ٢٣٣٠ ق.م.

وقد كُشِف في إبلا عن المحفوظات الملكية التي تحتوي إضافة إلى الوثائق الخاصة بملوك إبلا ومراسلاتهم ، والنصوص الإدارية والاقتصادية ، على نصوص تعليمية وتربوية ، وقوائم معجمية تختص بأسماء الحيوان والنبات والأشياء وأسماء الآلهة والمدن التابعة للمملكة ، ومعاجم لغوية سومرية ـــ إبلوية ، ونصوص أدبية ودينية ، ومن بينها قصيدة ملحمية وأسطورية من القصائد السومرية .

وكانت كتابة أهل إبلا بالخط المسماري السومري والأكّدي ، أما لغتهم فيصعب تصنيفها بين اللغات السامية الشرقية ، وهي لغات بلاد ما بين النهرين الأكّدية ، والغربية ، وهي لغات سورية الكنعانية والآرامية . وقد تبين من دراسة اللغة الإبلوية ( أو الإبلائية ) ـــ وهي في الواقع في بداياتها ـــ أن بينها وبين الأكدية القديمة ، وبينها وبين لغات جنوبي شبه الجزيرة العربية ( اليمنية القديمة ) تشابهاً كبيراً من الناحية النحوية ، ولكنها تختلف عن الأكّدية والعربية الجنوبية من الناحية المعجمية ، أي معاني الألفاظ . وتبدي تشابهاً كبيراً مع اللغات السامية الغربية الكنعانية ( الأوغاريتية والفينيقية والعبرية ) والآرامية من الناحية المعجمية[11] . ولذلك يعمد الباحثون إلى اعتبارها لغة سامية متميزة سابقة للكنعانية والأمورية

---

[11] — A. Archi , the epigraphic evidence from Ebla and the Old Testament, in Biblica 60(1979) , p. 656 ff.

في سورية ، قوية الصلة بالأكّدية القديمة ولكنها ليست فرعاً لها . ولكن من المؤكد أنها أقدم لغة سامية معروفة ظهرت في سورية قبل اللغة الأمورية التي لا نعرفها سوى من أسماء العلم ، وقبل الكنعانية . ولسوف تُظْهِر الدراسات اللغوية المعمقة للغة إبلا في المستقبل مدى علاقتها بلغات المنطقة السامية بشكل أوضح .

### ٣ ـــ في شبه الجزيرة العربية والحبشة :

لم تعرف شبه الجزيرة العربية في تاريخها الطويل من السكان الأصليين شعباً غير العرب ، خلافاً للمناطق الشمالية منها ، في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ( سورية ) . لذلك كانت اللغة العربية وحدها هي لغة السكان في حدودها المعروفة بين الخليج العربي في الشرق ، والبحر العربي في الجنوب، والبحر الأحمر في الغرب . ونحن نتحدث عن اللغات هنا ، أو اللغات السامية على وجه التحديد ، إنما نقصد اللهجات ، بحسب الاصطلاح اللغوي الدارج، والعرب قديماً عندما تحدث لغويوهم عن لهجات العرب قالوا لغة قريش ، ولغة طيء، ولغة تميم ، وغيرها من اللغات ، وقصدهم ما نفهمه اليوم من تعبير " اللهجات " ، وهذا هو شأن " اللغات السامية " التي نستخدمها اصطلاحاً للهجات تفرعت عن لغة أم .

وما دمنا نتوخى الدقة في دراستنا للغات فإننا نميز بين لغة عرب الشمال ، ولغة عرب الجنوب اليمنيين . ونضيف إليها لغة أثيوبية ( الحبشة ) السامية .

فاللغة العربية الشمالية هي لغة القبائل العدنانية وتختلف فعلاً من حيث الألفاظ والتراكيب اللغوية اختلافاً ملحوظاً ، ولا سيما في ظواهر لغوية أساسية ، من مثل : التعريف، وبناء الفعل ، وجمع الاسم ... واختلفت الشمالية عن العربية الجنوبية أكثر في الجاهلية وبعد ظهور الإسلام ، وقد غدت الشمالية ، لغة القرآن الكريم ، لغة العرب كلهم ، وتراجعت العربية اليمنية حتى انقرضت ، ولم يبق من آثارها سوى لهجتين معروفتين يتكلمهما سكان منطقة ظفار الواقعة على الحدود العُمانية ، ولهجة جزيرة سوقطرة . وكان العرب الشماليون يطلقون على العربية الجنوبية تسمية " اللغة الحميرية " ، نسبة إلى الدولة الحميرية ، آخر الدول

التي أقامها العرب الجنوبيون ، القحطانيون ، في اليمن التي كانت تشمل جنوبي شبه الجزيرة العربية بكامله .

ظهرت اللغة العربية الشمالية كتابة في البدء بنقوش دُوِّنت بالخط اليمني ( المسند ) ، وعُرِف منها عدد سماه الباحثون بأسماء متميزة ، ومن أهمها : النقوش الثمودية ، نسبة إلى اسم " ثمود " الذي يكثر فيها ، وهو اسم القبيلة العربية البائدة. وتمّ العثور عليها في الشمال والشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية . والنقوش الصفوية تمّ العثور عليها في منطقة حوران وما حولها ودعيت كذلك نسبة إلى منطقة الصفا البركانية الواقعة إلى الشمال الغربي من جبل العرب . أما النوع الثالث من تلك النقوش العربية البدائية ، كما يسميها الباحثون، لأنها سبقت النقوش العربية الشمالية القديمة التي تعد بحق السابقة للغة العربية الفصحى، فهي النقوش اللحيانية نسبة إلى قبيلة لحيان التي عاصرت العرب الأنباط ، وبقيت من بعد زوال دولتهم . وقد كانت لتلك النقوش خصائصها التي تميزها من اللغة الفصحى اللاحقة .

أما اللغة العربية الجنوبية ، اليمنية، فكان لها أثر بالغ في ظهور اللغة الجعزية في أثيوبيا ( الحبشة ). فقد هاجرت قبائل من اليمن إلى البر الأفريقي القريب عبر مضيق باب المندب ، ومنها قبيلتا ( جعز ) و( حبشت ). واستقر أولئك في الجهات الشرقية من الحبشة وأقاموا دولة متحضرة ، واتخذوا مدينة أكسوم عاصمة لها ، والكتابة اليمنية القديمة ( المسند ) خطاً لتدوين لغتهم العربية اليمنية . وهو خط ما زال مستخدماً حتى اليوم بعد أن دخلت عليه بعض التعديلات ، وفي مقدمتها إضافة الحركات إلى الحروف الصامتة ، خلافاً لما كانت عليه كتابة المسند التي لا تعرف رموزاً للحركات بل تكتفي بكتابة الحروف الصامتة ، كبقية اللغات السامية الأخرى ذات الكتابة الأبجدية باستثناء الأكّدية التي استخدمت الخط المسماري وهذه كتابة مقطعية. كما هو معلوم ، وليست أبجدية . وقد دعيت اللغة السامية في أثيوبيا ( اللغة الجعزية ) نسبة إلى قبيلة جعز اليمنية ، ودُعيت البلاد " الحبشة " باللغة العربية نسبة إلى قبيلة حبشت اليمنية . ووصلت اللغة السبأية ( اليمنية ) إلى مكانة اللغة الأولى في البلاد ، ولغة الدولة والثقافة ، وأثرت في لغات الحبشة الحامية ، كما تأثرت هي

باللغات المحلية الحامية ، ولكن الجعزية احتفظت بكل خصائص اللغات السامية الأساسية ، ولا سيما خصائص الاسم والفعل وتعريفه ، وتركيب الجملة، والبناء اللغوي بعامة . ثم غدت لغة الدين المسيحي المقدسة عندما تنصّر كثير من الأحباش وإن تفرعت عنها لهجات ، مثل الأمحرية ، والهررية وغيرها من لهجات الحبشة اليوم .

يتضح لنا من خلال استعراض ما يدعى باللغات السامية أن هذه اللغات إن هي إلا لهجات تفرعت عن لغة أم . وتُعد العربية أقربها إلى اللغة الأم لأسباب عدة ، أهمها : احتفاظ العربية بكل ظواهر اللغات السامية الأصيلة ، ومنها ظاهرة الأصوات السامية المميزة ، وفي مقدمتها الأصوات الحلقية وصوت الضاد ، وصيغ الاسم والفعل المتنوعة ، والتنوين في الاسم وظاهرة الإعراب ... وهذا ما يحمل على الاعتقاد بأن العربية قد تكون اللغة السامية الأم ، ولاسيما أنها لغة القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية التي لم يدخلها غازٍ قط ويصل إلى مناطقها الداخلية ، ولم يختلط أهلها بالغرباء كغيرهم من سكان المناطق المجاورة ، أو القريبة من السواحل والأطراف ، فاحتفظوا بنقاء اللغة وسلامة اللسان من التأثر بلغات الغير . ويزداد يقين الباحث بقدم اللغة العربية ، وبقربها من اللغة السامية الأم ، إن لم تكن هي اللغة الأم ، أن الجزيرة العربية كانت الموطن الأصلي للساميين بحسب أكثر النظريات حول الموطن الأصلي قبولاً عند الباحثين . إذ كانت شبه الجزيرة العربية بسبب ظروفها المناخية والمعاشية مصدراً دائماً لهجرة السكان بين الحين والآخر . فخرجت منها هجرات متتالية ، كما يرى الباحثون ، يفصل بين الواحدة والأخرى حوالي الألف عام . ويعتقدون أنّ أولى تلك الهجرات كانت هجرة الأكّديين في الألف الرابع قبل الميلاد . ثم تلتها هجرة الأموريين ( والكنعانيين ) في الألف الثالث ، ثم هجرة الآراميين في الألف الثاني . وكان أولئك كلهم بدواً ، ثم استقروا مدة من الزمن في البادية السورية حتى واتتهم الفرصة المناسبة ، فانتقلوا إلى المدن السورية والرافدية . أما الأكّديون فتوجهوا صوب المنطقة الجنوبية من بلاد الرافدين واتخذوها دار إقامة دائمة لهم . وتوجه الأموريون شمالاً وشرقاً ، وأقاموا دولاً في بلاد الرافدين وسورية الداخلية ومنها دولة يمحاض ( حلب ) ، ودولة قطنا ( تل المشرفة ) ،

رشولة ماري ( تل الحريري ) ، والدولة الآشورية القديمة ، والدولة البابلية القديمة، كما نوهنا. بينما أقام الكنعانيون ، وهم فرع من الأموريين ، وبعض الباحثين يجعل الأموريين فرعاً من الكنعانيين ، أقاموا على الساحل السوري في ممالك المدن، في أوغاريت، وجبيل، وأرواد ، وصيدا ، وصور ، ولم يُوَفّقوا إلى إقامة دولة موحدة تضمهم جميعاً . وفي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد استقر الآراميون في سورية الداخلية وبلاد الرافدين وأقاموا دويلات لهم ، ثم دولة عظمى في الجنوب الرافدي شملت من بَعْدُ بلاد الرافدين كلها وسورية تحت اسم الدولة البابلية الحديثة أو الدولة الكلدانية نسبةً إلى القبيلة الآرامية كلدو ، كما مرّ بنا . ويعّدُ بعضهم خروج العرب المسلمين من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع إحدى هذه الهجرات السامية العظمى ، وقبلها بقليل هجرة المناذرة إلى العراق والغساسنة ، وقبلهم الضجاعمة إلى سورية في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد .

إن لغة تلك الأقوام وإن تباينت أسماؤها واحدة في الأصل وهي تشبه في اختلافها الطفيف عن بعضها اللغة العربية الفصحى ولهجاتها المختلفة اليوم في سورية والعراق ومصر والمغرب ... فهذه مهما وجد المرء فروقات بينها ، وظن أنها فروقات واختلافات كبيرة ، فإنه عندما يدقق في الأمر ، ويعيد الألفاظ إلى أصولها الفصحى وتراكيب الصيغ والجمل لن يلبث أن يُقرّ بوحدة الأصل اللغوي. وإن التأثر بالبيئة المحلية والخارجية أمرٌ منطقي ومعروف ، فليس من لغةٍ لم تتأثر بغيرها ، وأثرت في غيرها ، إذ إن اللغة الحية أشبه بالكائن الحي الذي يؤثر ويتأثر وإلا فمصيره الموت والانقراض . ولكن التأثير المتبادل بين اللغات ليس عميقاً ، ولا يصل أبداً إلى بنية اللغة وتركيبها ، ولا يتعدى في أكثر الأحوال الألفاظ الدخيلة والمولدة التي تعد إثراءً للغة وإغناء لألفاظها التي ينبغي لها أن تزداد بمرور الوقت وظهور المكتشفات الجديدة ، والابتكارات المتنوعة ، في المجالات المختلفة المستجدة بتقدم الإنسان، وتطور الحياة. فيبقى لذلك جوهر اللغة وبناؤها من غير تأثر ولا يتغير . وهذا حال اللغة العربية الفصحى ولهجاتها ، أو لغاتها الدارجة ، وحال اللغات السامية .

إن وحدة اللغة التي جمعت بين سكان بلاد الرافدين وسورية وشبه الجزيرة العربية تؤكد من دون ريب وحدة الانتماء والأصل الإثنيْ ، لكنها ليست العامل الوحيد . فثمة عوامل أخرى تدعم العامل اللغوي ، إن لم تتوافر ضعفت الحجة و لم تتأكد الوحدة . فهناك لغات شاعت وتنتشر اليوم ، كالإنكليزية التي اتخذها شعوب عدة لغة رسمية لها ولكنها ليست لغتها الأم ، في الهند مثلاً وإيرلندا وأمريكا الشمالية ، ولكن متكلميها ليسوا شعباً إنكليزياً . وثمة شعوب قديمة في الشرق العربي ومنهم العرب الأنباط والعرب التدمريون الذين خلّفوا كتابات كلها باللغة الآرامية . كما غدت اللغة العربية لغة كل الشعوب التي وصل إليها الإسلام في إيران وأفغانستان وآسية الوسطى وآسية الصغرى ، وشمالي أفريقية ، وشبه الجزيرة الإيبرية ... ولم يكن أهل تلك المناطق عرباً . كما تخلى السومريون القدماء عن لغتهم السومرية عندما صارت الغلبة للأكّديين الساميين ، فانقرضت اللغة السومرية وانقرضت الفينيقية والأوغاريتية والعربية الجنوبية ، وحلت محلها الآرامية ثم العربية .

ومن العوامل التي تدعم وحدة اللغة في انتماء السكان في سورية وبلاد الرافدين وشبه الجزيرة العربية إلى أصل واحد نذكر المعتقدات الدينية التي تتأكد من خلال أسماء الآلهة الرئيسة التي عبدها الساميون في مناطقهم التي عُرِفوا باستيطانهم لها منذ فجر التاريخ ، وعرفوا وظائفها التي تنسب إليها من قبل متعبديها. وتأتي في مقدمتها آلهة السماء والطقس والخصب، من مثل الإله إيل، وهو الإله الرئيس ويعدونه أبا الآلهة ، حتى صار اسمه يدل على ( الألوهية ) عامةً كما يتضح من استخدامنا لهذا التعبير حين نقول ( الألوهية ) . ولفظة ( إيل ) بهذا المعنى مشتركة بين هذه اللغات جميعاً ، حتى في الأديان السماوية ، كما نعرف من لفظة الجلالة ( الله ) الذي يعود إلى ( الإله ) بعد حذف الهمزة أو تسهيلها، كما يصطلح اللغويون العرب، وفي السريانية ( ألّاها ) ، وفي العبرية إلوه / إلوهيم ... .

والإله الشائع الآخر عند الساميين هو ( بعل ) وهو إله الأمطار والخصب ، والطقس برعده وببرقه ، ويعني الرب على الإطلاق ، كما نعرف من اللغة العربية . وما زال الفلاحون يستخدمون تعبير الأرض البعلية بمعنى الأرض التي تسقيها الأمطار ، وينبت الزرع فيها

من خلال سقاية المطر لها ، على خلاف الأرض المروية بوساطة مياه الأنهار والقنوات التي يوصل الإنسان منها الماء إلى الأرض الزراعية . لذلك كان القحط وما زال يحل على المناطق التي تقل أمطارها بل وتنعدم ويعاني الناس من ذلك كثيراً ، فكانوا يبتهلون إلى الآلهة وفي مقدمتهم ( بعل ) ، ويقدمون إليه القرابين . ويصلي الناس اليوم إلى الله سبحانه وتعالى صلاة الاستسقاء طلباً لرحمة الله ومنته ـــ سبحانه وتعالى ـــ وإرسال الغيث .

ومثل ( بعل ) الإله ( حدد ) ، أو ( هدد ) عند الأموريين والآراميين ، و( هَدًّا ) في إبلا ، إذ كان هذا الإله المسؤول عن المطر والرعد والبرق والعواصف ، وكان الأكاديون ( البابليون والآشوريون ) يسمونه ( أدّو ) .

والإله داجان ، هو إله الحبوب في سورية وبلاد الرافدين ، وذو علاقة بالطقس والأمطار كذلك وإله الشمس ( شمش / شبس ) كان إلهاً معروفاً لدى الساميين كلهم .

ومن الآلهة الإناث كانت ( عشتار ) أشهرهن عند الساميين ولها وظائف متناقضة في فعاليتها . فهي إلهة الحب والأنوثة والخصوبة مثل الإلهة ( فينوس ) الرومانية ، والإلهة ( أفروديت ) عند اليونان ، وإلهة الحرب من جهة أخرى . وهي أنثى في الغالب ، ولكن قد توصف بالذكورة أيضاً ، ففي الجنوب العربي نجد الاسم ( عثتر ) وهو اسم إله ، وأحد الآلهة الرئيسة

في اليمن وابن إله القمر والشمس . ولعشتار في الميثولوجيا الأكّدية دور كبير ، واسم بارز ، ولا سيما قصتها مع الإله ( تموز ) تشبه قصة ( بعل ) في الميثولوجيا الكنعانية. وتقوم المعتقدات الدينية عند الساميين على عبادة النجوم والكواكب بعامة.

والحديث عن الآلهة لا ينقطع عن الحديث عن الميثولوجيا السامية ، كما ألمحنا من خلال الإشارة إلى العلاقة بين الإلهة ( عشتار ) والإله ( تموز ) ، أو الإله ( بعل ) . وهي الأسطورة التي تدور حول الصراع بين الخير والشر ، وبين الخصب والقحط . وثمة أسطورة الطوفان البابلية وعلاقة قصة الطوفان التوراتية بها . وكذلك قصة الخلق ، خلق الكون والإنسان والحيوان عند البابليين وفي التوراة . إضافة إلى طقوس العبادة والتراتيل الدينية ، والابتهالات

التي تتماثل فيها العبارات . وكلها موضوعات مشتركة تشتمل على عناصر توحد بين أفكار الساميين ، وتنبئ عن وحدة في التفكير الذي ينبع من معين واحدقديم وأصيل لا دخل فيه للدخيل الأجنبي . ولا شك في أن وحدة التفكير هذه هي التي جعلت عقيدة التوحيد التي تمثلت في الأديان السماوية الثلاثة ، اليهودية والمسيحية والإسلامية تصدر عن الساميين ومن أرضهم .

ومن المظاهر الاجتماعية التي تدعم نظرية انتماء الساميين إلى أصل واحد عاداتهم وتقاليدهم وشرائعهم المتشابهة ، ولعل خير ما يمثلها القانون العام : " العين بالعين والسن بالسن " الذي يظهر بجلاء في شريعة حمورابي المشهورة ، الذي ماز شريعة الأكّديين الساميين من شرائع السومريين غير الساميين وطبعها بطابع البداوة السامية الأصلية . كما يبدو أثره كذلك في الشريعة الموسوية وغيرها من الشرائع السامية . والشرائع إن هي إلا انعكاس طبيعي للعلاقات الاجتماعية للشعوب وتنظيم وقوننة لها ، مهمتها حفظ المجتمع من التفكك وتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع وبين الشعب والسلطة الحاكمة ، وتحديد الحقوق والواجبات للأطراف كافة . لذلك نجد التشريعات والقوانين تنقسم إلى أبواب متعددة ، فيها الأحوال الشخصية ، من زواجٍ وطلاقٍ ووراثة ، وتَبَنٍّ للأولاد ، وأمور جزائية ومالية ، واقتصادية ، ومدنية ، وعمل ، وعقارية ... وكلها مسائل تنجم عن التعامل بين فئات المجتمع المختلفة . وكلما كثرت مواد القوانين ، كان المجتمع راقياً وحضارياً . والقانون وسيادته هو الفيصل بين الإنسان المتخلف والإنسان المتحضر . ومن اللافت أن الأسرة في المجتمع السامي كانت تقوم على أساس سلطة الأب . ولكن حقوق الأب بصفته رب الأسرة ، لم تكن بالطبع مطلقة لا حدود لها ، كما يبدو في الظاهر ، ولاسيما في مجتمعات المدن ، إذ نجد المرأة وهي تتمتع بمكانة اجتماعية مساوية للرجل ، وكانت تحظى بحق العمل والتملك وإدارة المحلات التجارية ، ولكنها لم تصل إلى المساواة المطلقة مع الرجل ، وظل المجتمع السامي القديم يفضّل الذكر على الأنثى ، ولاسيما في قضايا الوراثة . كما كان الساميون ، مع تمدنهم ونزوعهم إلى الحياة العامة للمدن يميلون إلى الارتباط بالأسرة والعشيرة والقبيلة ، بل ويتمسكون بهذه الرابطة كثيراً . وهذا يعني التمسك بالعادات القبلية البدوية التي بقيت تعشش في أعماق

نفوسهم ، والاعتقاد الجازم بأن القبيلة أو العشيرة ، أو الأسرة ، هي الضمان الحقيقي لحياتهم وأمنهم وقت الحاجة .

إن العوامل السابقة ، وهي اللغة والمعتقدات الدينية ، والعادات والتقاليد والشرائع إضافةً إلى الموطن الواحد والإطار الجغرافي الواحد ، والاشتراك الواضح في كثير من أوجه الفنون التشكيلية والموسيقى والذي يَتبدّى في الآثار الفنية والرسوم المتبقية ، إنَّ هذه العوامل كلها تؤكد ــ من دون شك ــ الأصل الواحد لما يدعى اصطلاحاً باسم " الشعوب السامية " ، وتؤكد الوحدة الحضارية بينها ، تلك الحضارة التي سماها الغرب " الحضارة الشرقية " وهي الحضارة التي تأثر بها الإغريق من دون شك ، إذ كانت الحضارة الأولى التي عرفها الإنسان حسب المعلومات المتوافرة من الشواهد التي عُثِر عليها حتى العصر الراهن ، ولم يُعْثَر على حضارة أقدم منها ، ونعني جنوب غربي آسية ومصر .

# الأبجدية ـ نشأتها وانتشارها في العالم

# الأبجدية ـ نشأتها وانتشارها في العالم

عاش الإنسان حقباً طويلة من الزمن استغرقت عشرات الآلاف من السنين فيما يسمى بعصور ما قبل التاريخ ، وهي العصور التي سبقت ظهور الكتابة في نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد ، أي بين الأعوام ٣٢٠٠ ـــ ٢٩٠٠ قبل الميلاد ، من دون وسيلة يتمكن بوساطتها تثبيت المعلومات والمعارف والأخبار التي كانت بحوزته ، أو تلك التي كان يريد أن يحفظها للأجيال التالية . فكانت مخلفاته المادية وآثاره العمرانية وأدواته المصدر الأساسي الوحيد الذي يُنبئ عن حياته وإنجازاته الحضارية القديمة. ولكنه لا يستطيع من خلالها أن يسرد لنا تاريخه ، أو يذكر لنا أسماء أفراده، أو يسمّي لنا شعوبه . ولا نعرف حتى أسماء الأماكن التي كان يعيش فيها . وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نتعرف على هوية الجماعات والشعوب التي استوطنت شرقنا العربي نفسه ، وناهيك عن المناطق الأخرى التي سكن الإنسان القديم فيها ، غير ما توصل إليه علماء الأنثروبولوجيا بمساعدة علماء الآثار الذين عثروا هنا وهناك على سطح الأرض على هياكل الإنسان القديم . فأطلقوا عليه تسميات متعددة بحسب العصر والمكان اللذين ارتأوا تسميته نسبة إليهما، من مثل : الإنسان الصانع Homo Habilis، والإنسان المنتصب Homo Erectos ، وإنسان نياندرتال Neandertal، والإنسان العاقل Homo Sapiens . وقالوا إن هذا الإنسان العاقل الأخير الذي ظهر قبل حوالي ٤٠ ـــ ٣٥ ألف سنة هو الإنسان الذي ينحدر منه الإنسان الحالي الذي يمتلك الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية المشابهة إياها التي كان الإنسان العاقل يمتلكها .

ولكن الإنسان اهتدى إلى الوسيلة اللازمة، وهي الكتابة، في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، فخطّ بها ما ابتغى تثبيته من معارف ومعلومات على الحجر والفخار والخشب والجلد والعظام ، ثم على المعدن الذي اكتشفه في فجر التاريخ ، واستعاض به عن الحجر ، وأنهى به قروناً طويلة من العصور الحجرية ، ثم على ورق البردي ، ولاسيما في مصر حيث كان يتوافر بكثرة .

ولكن الكتابة لم تبتكر وتخترع دفعة واحدة ، بل مرت بأشكال ومراحل متعددة إلى أن وصلت إلى ما نسميه باسم "الكتابة الأبجدية" أو "الكتابة الألفبائية" .

وهذه الطريقة من الكتابة التي تعرفها أكثرية الشعوب المعاصرة لم يوجدها الإنسان في لحظة من لحظات إبداعه ، بل كان عليه أن يتدرج في ابتكارها .

### ١. في المرحلة الأولى "الكتابة التصويرية" :

وتدعى الكتابة نسبة إلى مبدئها وشكلها "الكتابة التصويرية" لأن الإنسان كان يصور بادئ ذي بدء ما يراه حوله وفي الطبيعة ما يريد "كتابته" فكان يرسم الشمس كما يراها دائرة ترسل أشعتها على شكل الخطوط . ويصور الرجل برأسه وجذعه ويديه ورجليه . ويصور العين كما هي ، واليد ، والحيوان والنبات والماء ، والجبل ...وكلها موضوعات حسية يراها بالعين ويعبر عنها بالتصوير (الرسم) الكامل . ثم بدأ يختصر تلك الصور والرسوم ويكتفي بالعناصر البارزة الدالة عليها . فلم يعد يرسم قرص الشمس والأشعة التي تصدر عنه ، بل اكتفى برسم دائرة داخلها نقطة . وما عاد يرسم الشكل الكامل للرجل ، بل اكتفى برسم رأسه بشكل مبسط . وما عاد يصور العين برموشها وأهدابها والحاجب ، وإنما اقتصر على رسم العين المجردة .

واستمر في عملية الاختصار إلى أن وصل إلى صور بسيطة معبرة عن الأصل، ودالة عليه، يفهمها القارئ . ولم يكن عدد الكتّاب كبيراً ، بل كان أولئك قلة نادرة متفرغين للكتابة والقراءة ، متفقين فيما بينهم على أصولها وعلى أشكال صورها .وعندما أرادوا التعبير عن الألفاظ المعنوية ، مثل : القوة ، والشيخوخة ، والبرد ، والحكم ، فإنهم رسموا أشكالاً معبرة عنها ، إذ رسموا الذراع المفتولة للدلالة على القوة . ورجلاً منحني الظهر ، مستنداً إلى العكاز ليعبروا عن الشيخوخة ، ورسموا إناء ينصب منه الماء للدلالة على البرد . ورسموا الصولجان للدلالة على الحكم وهو العصا التي يحملها الحاكم ، أي أنهم استعانوا بصور من الواقع تعبّر عن المعاني المجردة وتشير بوضوح إليها .

وبذلك كانت الصور تعبر عن أنواع الكلام المختلفة من اسم وفعل وأداة ، وتمكنوا من التعبير عما يريدون "كتابةً" بالصور نفسها : فصورة العين ، مثلاً ، تعني العين كاسم ، وتعني "رأى" كفعل، وصورة رجلين مفتوحتين تعني الفعل "مشى" ، وتعني الاسم "المشي" . وصورة المحراث تعني هذه الأداة ، مثلاً ، كما تعني الفعل حرث ، وتعني كذلك عملية الحراثة واستعانوا بالصورة الحسية للتعبير عن الأشياء المعنوية ذات اللفظ المشترك، كأن يرسموا العين ويقصدون بها "عين الماء" ، أو "الجاسوس" لأن كلمة العين لها أكثر من معنى ، ولا تعني في العربية ــ على سبيل المثال ــ عضو البصر وحده . وقد يرسمون صورة السبع ، وهو الحيوان المعروف ، ويريدون به الرقم سبع ، وهو ما يسمى باللغة العربية " ما اتفق لفظه واختلف معناه" .

أي كان على الكاتب أن يتحايل في سبيل التعبير عن الأشياء المعنوية بصور من الواقع المحسوس حتى يحد كذلك من عدد الصور اللامتناهي الذي يحتاجه .

ظهر هذا النوع من الكتابة الأولى عند شعوب كثيرة في العالم . وأول ما ظهر في منطقتين من العالم القديم هما : بلاد الرافدين ومصر ، وذلك في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ، كما ذكرنا . فقد ظهرت أولى أشكال الكتابة التصويرية في الطبقة الرابعة من آثار مدينة الوركاء (أوروك القديمة) في جنوبي العراق ، وفي تل براك وجنوبه وعرودة في الجزيرة السورية . وتقع المنطقتان كلتاهما في بلاد الرافدين . كما ظهرت في الوقت نفسه في صعيد مصر في آثار ملك يدعى العقرب وفي آثار الملك مينا (أونعرمر) ، موحد مصر الأول ومؤسس أول أسرة حاكمة في مصر الموحدة. ودعا الإغريق الكتابة المصرية التصويرية باسم الهيروغليفية لإنبهارهم بما رأوا على جدران المعابد المصرية القديمة من تصاوير رائعة، إذ أن لفظة الهيروغليفية تعني " الرسوم المقدسة " ، فقد ظنوا أنها أشكال سحرية و لم يعرفوا أنها كتابة . واستمر المصريون القدماء في استخدام الكتابة الهيروغليفية قروناً طويلة برغم تطور أشكال صورها وتبســيطه حتى ما بعد الميلاد ، أي أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ولكن من دون

أن يغيروا مبدأها التصويري . أما سكان بلاد الرافدين فقد ابتدعوا مبدأ جديداً لكتابتهم ، كما سنرى ، وتخلوا بسرعة عن الكتابة التصويرية .

كما ظهر هذا النوع التصويري من الكتابة في الشرق الأقصى في وقت لاحق في الصين ، حيث ما زال هذا المبدأ التصويري في الكتابة الطريقة الوحيدة حتى اليوم عند أكثر شعوب الشرق الأقصى : في اليابان ، وفي الهند الصينية ، وفي كورية . وكلها كتابات مشتقة من الكتابة الصينية القديمة . ولا تزال الأشكال المصورة تعبر إلى حد كبير عن كلمات كاملة ذات أصل حسي.

## ٢. في المرحلة الثانية "الكتابة المقطعية" :

التي يعتمد مبدؤها على الأصوات لا على الصور . أي أن المبدأ الأساسي الذي قامت عليه الكتابة هو الرموز التي تعبر عن مقاطع لفظية توصلوا إليها من خلال تقطيع الكلمات على مختلف أنواعها إلى مقاطع تشبه المقاطع العروضية في الشعر العربي . ويعتمد من دون شك على حس لغوي أصيل لا على موهبة التصوير فحسب . وقد تتألف الكلمة الواحدة ، كما هو معلوم ، أحياناً من مقطع واحد، مثل كلمة أبْ. أو تتألف من مقطعين ، مثل كلمة قالَ. وقد تتشكل من ثلاثة مقاطع ، مثل كلمة كَتَبَ . وقد تتألف طبعاً من أكثر من ثلاثة مقاطع. وهكذا أوجد مبتكر هذا النوع من الكتابة في بلاد الرافدين التي يُنْسَب اختراعها إلى السومريين، سكان جنوبي بلاد الرافدين آنذاك ، أوجد لكل مقطع رمزاً خاصاً يعبر عن لفظه المحدد . فاصطلحوا ــ على سبيل المثال ــ للمقطع الأحادي كَ رمزاً ، وللمقطع تَ رمزاً ، وللمقطع بَ رمزاً . واصطلحوا ، مثلاً ، للمقطع أَبْ رمزاً ، وللمقطع أُمْ رمزاً ، وللمقطع شَرْ رمزاً بحسب الأصوات التي كانت تتألف منها المقاطع في لغتهم . فقد تتكون المقاطع من :

صوت صامت + صوت صائت ، مثل: بُ ، دَ ، شِ . أو من : صوت صائت + صوت صامت ، مثل: أَنْ ، أُجْ ، إِذْ ، أو من : صوت صامت + صوت صائت + صوت صامت ،

مثل : بَرْ ، مُتْ ، لِمْ .. وهكذا راحوا يصطلحون على رموز للمقاطع حتى توصلوا إلى عدد من الرموز يكفي للتعبير عن مختلف المقاطع والألفاظ المستخدمة . فإذا أرادوا التعبير عن الفعل كَتَبَ استخدموا الرموز كَ ـــ تَ ـــ بَ.

وإذا أرادوا أن يعبروا عن الفعل كَبَتَ ، في هذه الحال ، استخدموا الرمز كَ ثم الرمز بَ ثم الرمز تَ من اليسار إلى اليمين بحسب ما تعارفوا عليه .

وهكذا استطاعوا التعبير بسهولة عن كل الكلمات ، سواء أكانت اسماً ، أم فعلاً ، أم حرفاً باستخدام الرموز نفسها وفي مكانها من المقاطع التي تتألف منها الكلمة التي كانوا يريدون كتابتها .

ولكنهم أبقوا إلى جانب الرموز المقطعية بعض الأشكال المصورة التي تسبق الكلمات أحياناً أو تأتي بعدها لتدل على نوعها . فثمة أشكال تسبق الكلمات التي تدل على أسماء الملوك ، أو أسماء العلم ، أو أسماء المواد المصنوعة من الخشب ، أو المعادن ، أو أسماء النبات ، أو أسماء الأربابْ ، أو أسماء المدن . وهناك أشكال تأتي بعد الكلمات لتحدد أو تخصص معاني الكلمات كذلك ، وهي أقل . وكلها من بقايا الكتابة التصويرية التي احتفظت بها الكتابة في هذه المرحلة وأفادت منها لتوضيح المراد من المعنى والمقصود ، وتدعى هذه وتلك عند الباحثين المتخصصين باسم الرموز الدالة أو المفسرة أو المخصصة (انظر الشكل١) .

a) dA-nu dEn-lil dÉ-a

b)

1. IHa-am-mu-ra-bi
2. IŠu-up-pi-lu-li-u-ma
3. fPu-du-ḫé-pa

c)

1. māt Aš-šur 'Assyrien' 2. māt Mi-iṣ-ri 'Aegypten'
3. alu Ni-nu-a 'Ninive' 4. alu Kar-ga-miš 'Karkemisch'

a) أسماء ثلاثة آلهة b) أسماء ثلاثة ملوك
c) أسماء أربعة أمكنة (أقطار ومدن) مع العلامات الدالة

šarru أو šarru ru أو ša- ar - ru
كتابة كلمة "ملك" بالبابلية بطرق مختلفة

šarrāni MEŠ ni — šamû أو šamû- ú
ملك + علامة الجمع — سماء

الشكل (١) الكتابة المسمارية المقطعية

ظهر هذا النوع من الكتابة المقطعية في بلاد الرافدين (وهي المنطقة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة، وبين تركية اليوم في الشمال والخليج العربي في الجنوب) ، وكان للسومريين فضل ابتكارها ، ولكن الأكّديين وهم أشقاء العرب القدماء ، ومثلهم البابليون والآشوريون ، الذين أقاموا صرح الحضارة الشرقية الأولى في بلاد الرافدين ، هم الذين طوروا هذه الكتابة من بَعْدُ ، وأعطوها شكلها النهائي الذي عُرِفَتْ به . وهم كذلك الذين نشروا هذه الكتابة في كل أنحاء الشرق الأدنى القديم ، وهي الكتابة التي دعيت باسم "الكتابة المسمارية" نسبة إلى شكل رموزها التي تشبه المسمار ، لأن أصحابها استخدموا قلماً ذا رأس مثلث الشكل دقيق المقدمة كالمسمار ، كانوا يطبعونه على لوح مُعَدّ من الطين الطري لهذا الغرض من الكتابة بحيث تظهر الأشكال المطلوبة . ثم يتركونه ليجف ويكتسب صلابة ، أو يشوى اللوح في فرن خاص، ليتخذ الشكل النهائي، ويستفيدون من وجهي اللوح الطيني في الكتابة،

وقد يستخدمون أطرافه أيضاً إذا احتاجوا لذلك توفيراً للجهد والوقت . ثم استخدموا الحجر والمعدن كذلك وغيرهما من المواد للكتابة على أسطحها بدرجة أقل ، بل ونادراً ما لجؤوا إلى ذلك ، وكان عليهم في هذه الحال أن يرسموا الرموز المقطعية رسماً ويقلدوا أشكالها المسمارية تماماً .

ولما كانت الكتابة المسمارية في بدايتها تخص السومريين ولغتهم ، وهي لغة تختلف في أصواتها عن لغة الاكديين (الساميين بحسب الاصطلاح المعروف) فقد أصبح لزاماً على الأكديين أن يتحايلوا للتعبير عن الأصوات السامية المميزة كالحاء والعين والصاد والطاء والظاء والثاء والذال والغين والقاف ، وهي أصوات لا يعرفها السومريون.

وقد حل الأكديون ومن بعدهم أشقاؤهم البابليون والآشوريون هذه المعضلة بطريقة مناسبة مكنتهم من تدوين لغتهم بمختلف أصواتها وألفاظها وأساليب تعبيرها في مختلف الأغراض السياسية والاقتصادية والدينية والأدبية ، بحيث وصلنا كم هائل من تراثهم وإنجازاتهم الحضارية وأخبارهم بهذه الكتابة، ما زال المختصون مشغولين في سبر أغواره، ومناقشة محتواه، وإضافة المعارف الجديدة إلى معلوماتنا السابقة . وما زال علماء الآثار يعثرون على المزيد من الرقم المسمارية في أنحاء مختلفة من الشرق : من إيران شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً ، ومن أرمينية وتركية شمالاً إلى أطراف شبه الجزيرة العربية الشرقية والشمالية وفي مصر جنوباً .

فقد كانت اللغة الأكدية (وفرعها البابلية) لغة المنطقة الواسعة المشار إليها كلها ، وكانت كتابتها المسمارية كتابة الشرق الأدنى القديم بكامله الأولى لمدة تجاوزت ألفاً وخمسمائة سنة ، ومنذ قيام الدولة الأكدية على يد مؤسسها سرجون ( حوالي عام ٢٣٤٠ ق.م ) إلى انهيار الدولة البابلية الحديثة ( الكلدانية ) ، وبعدها بفترة ( حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد) . ونذكر أن لغة المراسلات الدبلوماسية الدولية آنذاك كانت اللغة البابلية ذات الكتابة المسمارية ، كما تبين الرسائل التي عثر عليها في نهاية القرن الماضي في تل العمارنة

في صعيد مصر حيث كانت تقوم مدينة أخيتآتون ، عاصمة الملك المصري اخناتون (صاحب الديانة التوحيدية المعروف ، حوالي ١٣٦٤ ــ ١٣٤٧ ق.م ) .

وهي رسائل تخص حكام سورية وبلاد الرافدين وآسية الصغرى موجهة إلى اخناتون والى أبيه من قبل أمنحوتب الثالث في النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

أصبحت الكتابة المقطعية المسمارية إذن كتابة دولية على يد الأكديين وخلفائهم البابليين، وكتب لها الانتشار ، وذلك لأنها كانت تصلح لكتابة لغات ذلك العالم القديم بمختلف لغاته السومرية ، والسامية بمختلف لهجاتها ، الإيرانية والحثية والحورية ، وحتى المصرية القديمة .

وقد سهلت على الكُتّاب مشقة التصوير الذي يعد مئات الصور، بل الآلاف، وهو مبدأ الكتابة الهيروغليفية ، كما رأينا ، إذ إن المقاطع الصوتية محدودة مهما تعددت في اللغات . وقد وصل عددها في مراحل الكتابة المسمارية الأخيرة إلى حوالي الخمسمائة أو الأربعمائة فحسب . وهذا يعني تيسيراً للكَتَبَة مقابل الصور التي كانوا يستخدمونها من قبل لم يكن من سبيل لاختصارها .

**٣. ثم جاءت المرحلة الثالثة :**

من مراحل تطور الكتابة في مسيرتها الطويلة ، وهي مرحلة الكتابة **الأبجدية** أو **الألفبائية.** وقد اعتمدت مبدأ التعبير عن الأصوات المفردة برمز محدد لكل صوت ينطقه الإنسان . ولما كانت الأصوات محدودة في كل لغة فقد غدت الرموز الكتابية محدودة العدد كذلك . ففي اللغة العربية تعد الأصوات ثمانية وعشرين ، وفي اللغات الأوروبية حوالي ستة وعشرين (بما فيها الأصوات الصائتة) . وينسب إلى سكان الساحل السوري الكنعانيين (أو الفينيقيين كما سماهم الإغريق) اختراع هذا النوع المتطور من الكتابة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد . فقد اخترع سكان مدينة أوغاريت التي تقع إلى الشمال من مدينة اللاذقية اليوم ببضع كيلومترات أول كتابة أبجدية عرفها الإنسان . وتتألف تلك الكتابة من ثلاثين حرفاً تعبر عن

ثمانية وعشرين صوتاً ، بينها ثلاثة أشكال لصوت الهمزة بحركاتها الثلاث الفتح والضم والكسر. ولكن هذا النوع من الكتابة لم يكتب له الانتشار وبقي استخدامها محلياً . وربما كان سبب ذلك انها ذات شكل مسماري لا يختلف عن شكل الكتابة المسمارية المقطعية في شيء سوى مبدأ الكتابة الألفبائي . لذلك ظن مكتشفوها في عام ١٩٢٩ أنها كتابة بابلية (مقطعية المبدأ) ، ثم تبين لهم أن رموزها لا تتعدى الثلاثين فعرفوا أنها ألفبائية وليست مقطعية. ولم يقيض للكتابة الاوغاريتية الانتشار كذلك لأنها كانت كتابة قوم لم تقم لهم دولة قوية في التاريخ ذات نفوذ وسلطان كالدولة الاكدية أو الدولة البابلية . ولا تختلف أصوات الأوغاريتية عن أصوات العربية في غير صوت الضاد الذي لا تعرفه ، ولكنها تعرف حرفين للسين كغيرها من اللغات السامية الأخرى ، ومنها العربية اليمنية ، كما سنرى ، (انظر الشكل ٢ الذي يبين أشكال الحروف المسمارية للكتابة الأوغاريتية ) .

| ALPHABET D'OUGARIT | LETTRES LATINES | LETTRES ARABES | ALPHABET D'OUGARIT | LETTRES LATINES | LETTRES ARABES | ALPHABET D'OUGARIT | LETTRES LATINES | LETTRES ARABES |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 𐎀 | A | ا | 𐎊 | Y | ي | 𐎔 | P | ف |
| 𐎁 | B | ب | 𐎋 | K | ك | 𐎕 | Ṣ | ص |
| 𐎂 | G | ج | 𐎌 | Š | ش | 𐎖 | Q | ق |
| 𐎃 | Ḫ | خ | 𐎍 | L | ل | 𐎗 | R | ر |
| 𐎄 | D | د | 𐎎 | M | م | 𐎘 | Ṯ | ث |
| 𐎅 | H | هـ | 𐎏 | Ḏ | ذ | 𐎙 | Ǵ | غ |
| 𐎆 | W | و | 𐎐 | N | ن | 𐎚 | T | ت |
| 𐎇 | Z | ز | 𐎑 | Ẓ | ظ | 𐎛 | i | إ |
| 𐎈 | Ḥ | ح | 𐎒 | S | س | 𐎜 | OU | ؤ |
| 𐎉 | Ṭ | ط | 𐎓 | ᶜ | ع | 𐎝 | (S) | (س) |

**الشكل (٢) الكتابة الأوغاريتية الألفبائية**

.ثم ظهرت إلى الجنوب من اوغاريت في مدينة جبيل (اللبنانية اليوم) كتابة أبجدية أيضاً دعاها المختصون باسم الكتابة الفينيقية ، وهي كتابة تشتمل على اثنين وعشرين حرفاً تجتمع في الترتيب الأبجدي المعروف : أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت . وقد عبر بها الفينيقيون عن الأصوات الصامتة Consonants ، و لم يعبروا عن الأصوات الصائتة Vowels وهي التي تعرف في اللغة العربية باسم الحركات القصيرة (الفتحة والضمة والكسرة) ومدها الذي نعبر عنه بكتابة الألف والواو والياء لتصبح الحركة طويلة في كلمات من مثل (باب) ، و(قوموا) ، و(فيه) . فنحن نكتب الألف لمد الفتحة ، ونكتب الواو لمد الضمة ، ونكتب الياء لمد الكسرة ، أي لإطالة الحركة ولا نلفظ الألف ، ولا الواو ، ولا الياء كالهمزة أو الواو أو الياء في كلمات من مثل :

(أمر) ، أو (وهب) ، أو (يأكل) حيث تكون حروفاً كاملة صامتة وليست صائتة . ومنه فإن ما يسمى اصطلاحاً "لغات سامية" ، وهي اللغة العربية واللغة العبرية واللغة الآرامية (ومنها السريانية) ، والأوغاريتية والفينيقية ، ولهجاتها المتعددة كلها ، تعبر بكتاباتها عن الأصوات الصامتة في الأصل ، وتهمل الأصوات الصائتة . ولكنها ابتكرت من بعد كاللغة العربية واللغة العبرية واللغة السريانية إشارات خاصة للأصوات الصائتة : وهي الحركات التي تضاف إلى الحروف من فوق أو من تحت لتحدد النطق الصحيح للكلمات .

وكانت الحروف الفينيقية تكتب منفصلة من اليمين إلى اليسار ، ويفصل بين الكلمة والأخرى خط واضح حتى لا تختلط الكلمات ببعضها ، ثم ما لبث هذا الخط الفاصل أن اختفى لاحقاً . وقد وصلت الكتابة الفينيقية إلى اليونان عن طريق أهلها التجار ، سادة البحر الأبيض المتوسط في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد وحتى ظهور الرومان ، فاقتبسوها عنهم وكتبوا بها لغتهم اليونانية (الإغريقية) ، وأخذوا منها الحروف المناسبة للتعبير عن أصواتهم . فظهرت الكتابة اليونانية محتفظة بترتيب الحروف الفينيقية وبأسمائها ، وبأشكالها الأساسية إلى حد كبير ، وهي ألفا ، بيتا ، جاما ، دلتا ( = ، أ ، ب ، ج ، د) . وسميت الكتابة باللغات الأوروبية استناداً إلى هذا الترتيب Alphabet ، ودُعِيَ الكتابُ باليونانية

اعترافاً بأصل الكتابة الفينيقي Bible ، والمكتبة Bibliothek نسبة إلى مدينة جبيل حيث ظهرت الكتابة الفينيقية ، والتي أخذ اليونان عنها كتابتهم ، والتي تسمى بلغتهم Byblos بيبلوس.

كما اقتبس الآراميون ، وهم أشقاء الفينيقيين في سورية وبلاد الرافدين ، اقتبسوا الكتابة الفينيقية ونشروها بحكم اشتغالهم بالتجارة ، إذ كانوا تجار البر في العالم القديم ، في أنحاء الشرق حتى وصلت إلى منغوليا والصين ، وإلى قلب آسية ، وإلى شبه القارة الهندية وإيران . فإلى الكتابة الفينيقية تعود كل الكتابات الأبجدية في العالم قاطبة اليوم التي اشتقت أشكالها من الكتابة اليونانية أو الكتابة الآرامية اللتين تعودان بدورهما إلى الأصل الفينيقي . فاحتلت الكتابة الفينيقية بذلك مكانة الكتابة الأبجدية الأم في العالم . ولعل الشرق العربي لم يقدم للبشرية هدية أكثر تأثيراً في حضارتها وأعظم أهمية من الكتابة الأبجدية التي كان للكنعانيين الفضل الأول في اختراعها .

أخذ الآراميون عن أشقائهم الفينيقيين كتابتهم دون أن يضيفوا إليها شيئاً . ثم ظهر بدءاً من القرن الخامس قبل الميلاد عدد من الخطوط الآرامية المتباينة ، ومنها الخط الآرامي المربع الذي اتخذت حروفه أشكالاً مربعة ، وقد تبنّته اللغة العبرية ، وهو الخط المعروف اليوم في طباعة اللغة العبرية ، كما طبعت به نصوص كتاب اليهود المقدس ، بما فيها أسفار التوراة الخمسة . وظهرت كتابات الأنباط العرب الذين كتبوا باللغة الآرامية بخط آرامي خاص بهم سمي الخط الآرامي النبطي ، كما كتب التدمريون العرب نصوصهم الآرامية التي خلفوها بخط خاص بهم يدعى الخط الآرامي التدمري .

واختص السريان ، وهم نصارى الآراميين بخط استنبطوه من الكتابة الآرامية ، وظهرت أشكال منه، ومنها نوع يدعى الخط الاسطرنجيلي يتميز بحروفه الهندسية المتناسقة ، هو أقدم الخطوط السريانية ، ويعتبر الأصل الذي يعود إليه الخط العربي الكوفي القديم المعروف كذلك بأشكاله الهندسية . أما خط النسخ العربي الحجازي القديم فيبدو بأشكال حروفه المدورة أقرب

إلى الخط الآرامي النبطي الذي كتب به واحد من أقدم النقوش العربية ، وهو نقش النمارة الذي تم العثور عليه على شاهدة قبر ملك الحيرة امرئ القيس بن عمرو ، ويعود تاريخه إلى عام ٣٢٨م (انظر الشكل ٣) .

نقش النمارة

حل رموز نقش النمارة

(١) تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج

(٢) وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجا

(٣) بزجى فى حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه

(٤) الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

(٥) عكدى . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

الشكل (٣)

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه ، ويراه كثير من المختصين بالكتابات ، وهو أن أصل الكتابة العربية يعود إلى مصدرين اثنين هما : الكتابة الآرامية السريانية بفرعها الاسطرنجيلي ، وإلى الكتابة الآرامية النبطية . وذلك لأن الخطين السرياني والنبطي الآراميين من حيث الأصل تميزا دون سائر الخطوط الآرامية والكتابات الأبجدية السامية بطريقة فريدة لوصل الحروف ببعضها، بينما بقيت أنواع الكتابة الأخرى ، سواء منها الفينيقية الأم أو الآرامية من بعدها تفصل بين الحروف ، وتكتب حروفها الواحد إلى جانب الآخر ، كما نعرف من الحروف المطبعية اللاتينية في اللغات الأوروبية جميعها : الإنكليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية وغيرها . وظهرت بعد ذلك أشكال أخرى في الكتابة العربية اشتقت كلها من خط النسخ بخاصة ، ومنها ما يعرف بخط الرقعة ، والديواني ، والثلث ، والفارسي ، والمغربي ، وغيرها .

ويلاحظ من خلال التدقيق في عدد حروف العربية أنها قلصت عدد الحروف السامية الفينيقية من (٢٢) حرفاً إلى (١٤) فقط ، وذلك نتيجة لاندماج الأصوات الثلاثة ج ح خ في شكل واحد . ولا يغرب عن البال أننا نتحدث هنا عن الكتابة العربية القديمة قبل ابتكار النقاط والحركات ، ثم أن الراء والزاي كانا يكتبان بشكل واحد من دون نقطة الزاي ، والباء والتاء والثاء كذلك .

كما صارت الباء والتاء والنون والياء تبدو في بداية الكلمة وفي وسطها واحدة ، ومثلها حرفا الفاء والقاف ، والعين والغين ، والدال والذال ، والسين والشين ، والصاد والضاد، والطاء والظاء ، والكاف واللام. أما اتصال اللام بالألف (لا) الثابت فكان معروفاً من نقش النمارة المذكور ومن الكتابات النبطية المتأخرة.

وقد عرفت العربية الترتيب الأبجدي السامي القديم (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت) ثم خالفته بعد ذلك نتيجة لإضافة نقطة الإعجام التي اضطرت العربية لإيجادها وسيلة هامة لإزالة كل لبس وإشكال قد يقع لدى القراءة . فصار ترتيب الحروف فيها المعروف بترتيب حروف المعجم : أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ... أما في المغرب العربي فقد تكون ترتيب آخر للحروف في القرن التاسع ، هو : أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ي .

ويتضح من عدد الحروف العربية أن العربية تعرف كتابةً أصواتاً تزيد على الفينيقية ، أصل الكتابات السامية الأبجدية جميعاً ، بستة حروف ، هي ث خ ذ ض ظ غ . وقد لجأ الكَتَبَة في أول الأمر إلى إضافة نقاط على الطريقة السريانية القديمة الشرقية ، فوق الحرف أو تحته أو داخله للتعبير عن الحركات ، ولاسيما في نسخ القرآن ، وخصّوا تلك النقاط بلون خاص وينسب ذلك إلى أبي الأسود الدؤلي . وفي أواسط القرن الثامن الميلادي ظهر نظام الحركات الثلاث ، وإشباعها بالألف والواو والياء[1] .

---

(١) ـــ انظر كتابنا: الأبجدية ، نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب . دار الحوار ، اللاذقية ١٩٨٤ ، ص ٨٦ ـــ ٨٩ .

وثمة قلم عربي قديم آخر ، أبجدي المبدأ ، كتب به عرب الجنوب العربي اليمنيون نقوشهم التي يعود أقدمها إلى نهاية الألف الثاني وعند بعضهم إلى بداية الألف الأول قبل الميلاد، إلى زمن ظهور الكتابة الأبجدية الفينيقية ، وهو الخط الذي دعاه العرب القدماء باسم قلم المسند . ويعد هذا القلم نوعاً من الكتابة الأبجدية المتميزة بأشكال حروفها الصارمة التي تبدو منتصبة كالأعمدة بشكل متوازن ومزخرف ، وعدد حروفها ٢٩ حرفاً ، إذ أنها تزيد على حروف الكتابة العربية في الشمال بحرف واحد هو السين ، فهي تعرف شكلين للسين ، مما يعني أن أحدهما كان يلفظ بشكل مغاير للفظ السين المعروف .

ويتضح لدى المقارنة بين الحروف اليمنية والفينيقية البعد الشاسع بينهما برغم وجود بعض التشابه بين عدد ضئيل من حروفها ، وما ذلك إلا لأن كلا الخطين غرفا من معين واحد ربما ، وتوصلا إلى شكلهما الأخير بعد ذلك بالاعتماد على أنفسهما ، ومن دون أي تأثير أو تأثر . ولعل المصدر الذي يعودان إليه هو الكتابة السينائية التي سنتحدث عنها لاحقاً .

ويلفت النظر اختلاف ترتيب الحروف الألفبائي بين الفينيقية واليمنية كذلك ( انظر الشكلين ٤ ، ٥) .

| | | | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 𐩱 | ا | ʾ | 𐩢 | ح | ḥ | 𐩣 | م | m | 𐩳 | ص |
| 𐩨 | ب | b | 𐩭 | خ | ḫ | 𐩬 | (ن) | n | 𐩤 | ق |
| 𐩴 | ج | g | 𐩷 | ط | ṭ | 𐩦 | س | s | 𐩧 | ر |
| 𐩵 | د | d | 𐩼 | ظ | ẓ | 𐩲 | ع | ʿ | 𐩪 | ش |
| 𐩹 | ذ | ḏ | 𐩺 | ى | j | 𐩶 | غ | ġ | 𐩯 | س |
| 𐩠 | ه | h | 𐩫 | ك | k | 𐩰 | ف | f | 𐩩 | ت |
| 𐩥 | و | w | 𐩡 | ل | l | 𐩮 | ص | ṣ | 𐩻 | ث |
| 𐩸 | ز | z | | | | | | | ǀ | *Worit* |

الشكل (٤) كتابة المسند اليمنية

Phon. - فينيقية
Sab. - يمني

| | Phön. | Sab. | | Phön. | Sab. | | Phön. | Sab. | | Phön. | Sab. |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ʾ | 𐤀 | 𐩱 | t | 𐤕 | 𐩩 | b | 𐤁 | 𐩨 | k | 𐤊 | 𐩫 |
| g | 𐤂 | 𐩴 | | | | d̲ | | 𐩹 | m | 𐤌 | 𐩣 |
| d | 𐤃 | 𐩵 | | | | h | 𐤄 | 𐩠 | s | 𐤎 | 𐩪 |
| z | 𐤆 | 𐩸 | | | | ḥ | 𐤇 | 𐩢 | ġ | | 𐩶 |
| l | 𐤋 | 𐩡 | | | | ḫ | | 𐩭 | p | 𐤐 | 𐩰 |
| n | 𐤍 | 𐩬 | | | | ṭ | 𐤈 | 𐩷 | ṣ | 𐤑 | 𐩮 |
| ʿ | 𐤏 | 𐩲 | | | | ẓ | | 𐩼 | ḍ | | 𐩳 |
| q | 𐤒 | 𐩤 | | | | w | 𐤅 | 𐩥 | r | 𐤓 | 𐩧 |
| š | 𐤔 | 𐩦 | | | | y | 𐤉 | 𐩺 | ś | | 𐩯 |
| | | | | | | | | | ṯ | | 𐩻 |

تشابه — اختلاف

الشكل (٥)

وكتب عرب الشمال بقلم المسند نقوشهم الأولى المعروفة باسم النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية بدءاً من القرن السادس قبل الميلاد[٢].

ثم عزفوا عن القلم المسند وتحولوا إلى القلم النبطي بعد ذلك وأوجدوا خطهم الخاص وغدا خط عرب الجزيرة جميعهم ، حتى انقرض خط المسند وأصبح أثراً بعد عين . ولكن قلم المسند وجد امتداداً له في الجهة المقابلة لليمن في الحبشة واريترية حيث مازال أهل تلك البقاع يكتبون خطاً مشتقاً من قلم المسند اليمني.

ويبقى أن نسأل أخيراً عن الطريق التي وصل بها الفينيقيون في جبيل (بيبلوس) إلى ابتكار كتابتهم التي صارت أم الكتابات الأبجدية في العالم كله . والواقع أن الدراسات المتعمقة تشير إلى وجود علاقة بينها وبين الكتابة المصرية القديمة الهيروغليفية.

وقد تأكدت هذه الصلة البعيدة من خلال اكتشاف عدد من النقوش الكتابية في شبه جزيرة سيناء الواقعة بين فلسطين ، أو أرض كنعان كما كانت تسمى في كتاب اليهود المقدس ، وبين مصر . وقد دعا أهل الاختصاص الكتابة التي تم العثور عليها هناك باسم

(2) ــ انظر كتابنا: تاريخ العرب قبل الإسلام ، جامعة حلب ١٩٩٠ ، ص٢٦ ــ ٣٧ النقوش العربية البدائية .

"الكتابة السينائية" . ويعد الباحثون هذه الكتابة حلقة الوصل بين الكتابة الهيروغليفية ذات المبدأ التصويري ، وبين الكتابة الفينيقية ذات المبدأ الأبجدي (الألفبائي).

أما أصحاب الكتابة السينائية فهم كنعانيون أيضاً كانوا يعملون في مناجم الفيروز والنحاس لحساب فراعنة مصر في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد . وقد أخذ أولئك العمال أشكال حروفهم من الصور الهيروغليفية وأعطوها أسماء كنعانية صرفة .

فرسموا رأس الثور الذي يدعى بلغتهم السامية (ألف) ، وأخذوا صورة البيت الذي يدعى عندهم (بيت) ، وأخذوا رسم رأس الجمل الذي يدعى (جمل) ، وصورة الباب الذي يدعى بالكنعانية (دالت) .. وهكذا فعلوا ببقية الصور حتى اكتفوا بعدد منها يساوي ما عندهم من أصوات بلغتهم الكنعانية . ولكنهم اكتفوا بدلالة الصورة على الصوت الأول من اسمها ، أي أنهم جردوا الأشكال المصورة من دلالتها الأصلية واحتفظوا منها بلفظ الصوت الأول وهذا ما يسمى في علم اللغة باسم الأكروفونية Acrophonie ، فتوصلوا بذلك إلى الحروف:

أ (من ألف الذي يعني الثور في الكنعانية) ، حرف ب (من بيت) ، وحرف ج ( من جمل) ، وحرف د (من دالت) ... فهم إن أرادوا كتابة كلمة أب ، مثلاً ، عمدوا إلى رسم رأس الثور الذي يعني أكروفونياً (أ) ، ورسموا صورة البيت الذي يعني أكروفونياً (ب)، ولم يلفظوا بعد ذلك ألف بيت ، بل اكتفوا من دلالة الصورتين (الثور والبيت) بالصوت الأول من كل صورة .

وإن أرادوا كتابة كلمة عين ، رسموا صورة العين وصورة اليد وصورة السمكة (التي تدعى بلغتهم نون ، وفي القرآن الكريم "ذو النون" هو النبي يونس عليه السلام الذي ابتلعه الحوت ، أي السمكة الضخمة)، وبذلك تكونت لديهم بعد تجريد الصور من أسمائها والاكتفاء بالصوت الأول من كل منها عين . وحجة أصحاب هذه النظرية المقنعة هي احتفاظ الحروف بأسمائها الأولى المأخوذة من معاني الصور التي تمثلها ، وهي في الكنعانية (وفي معظم اللغات السامية) : ألف ، بيت ، جمل ، دالت ، هي ، واو ، زين ، حيث ، طيت ، يد ، كف ، لامد ، ميم ، نون ، سن ، عين ، ف (P =) ، صاد ، قاف ، ريش ، تاو .

وقد أصبحت في العربية : ألف ، باء ، جيم ، دال ... زاي / أو زين ، حاء ... ، كاف، لام ، ميم ، نون ، سين ، عين ... قاف ... مع شيء من التحريف .

كما صارت عند اليونان: ألفا ، بيتا ، جاما ، دلتا ... وهذا دليل آخر على الأصل الفينيقي للكتابة اليونانية التي هي أصل كل الكتابات الأوروبية ، كما نوهنا سابقاً . ويبدو لنا أن الفينيقيين ، وهم سكان الساحل السوري الكنعانيون ، اطلعوا على ما توصل إليه إخوتهم في شبه جزيرة سيناء ، فاقتبسوه منهم ، ثم طوروا تلك الصور الدالة على الحروف إلى أشكال مبسطة بلغ عددها ٢٢ حرفاً تمثل في الأصل ٢٢ صورة، هي الحروف الفينيقية التي انتقلت إلى الكتابات الأبجدية في أنحاء العالم كله ، فجاءت الكتابة من الشرق بأشكالها المختلفة : التصويرية ، والمقطعية ، والأبجدية . ويوضح الجدول التالي أشكال الخطوط الأبجدية وأصلها الفينيقي (الشكل ٦) .

جدول الخطوط الأبجدية

| اللاتيني | اليوناني | العربي | السرياني | النبطي | الآرامي | الفينيقي | المسند | الاسم | السينائي | الهيروغليفي |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| A | A | ا | [illegible] | [illegible] | א | [illegible] | [illegible] | ألف | [illegible] | [illegible] |
| B | B | ب | [illegible] | [illegible] | ב | [illegible] | [illegible] | بيت | [illegible] | [illegible] |
| C G | Γ | ج | [illegible] | [illegible] | ג | [illegible] | [illegible] | جمل | [illegible] | [illegible] |
| D | Δ | د | [illegible] | [illegible] | ד | [illegible] | [illegible] | دالت | [illegible] | [illegible] |
| E | E | هـ | [illegible] | [illegible] | ה | [illegible] | [illegible] | هي | [illegible] | [illegible] |
| F V | Y | و | [illegible] | [illegible] | ו | [illegible] | [illegible] | واو | [illegible] | [illegible] |
| Z | [illegible] | ز | [illegible] | [illegible] | ז | [illegible] | [illegible] | زين | [illegible] | [illegible] |
| H | B | ح | [illegible] | [illegible] | ח | [illegible] | [illegible] | حيت | | [illegible] |
| · | ⊗ | ط | [illegible] | [illegible] | ט | [illegible] | [illegible] | طيت | [illegible] | [illegible] |
| I | [illegible] | ي | [illegible] | [illegible] | י | [illegible] | [illegible] | يود | [illegible] | [illegible] |
| K | K | ك | [illegible] | [illegible] | כ | [illegible] | [illegible] | كف | [illegible] | [illegible] |
| L | L | ل | [illegible] | [illegible] | ל | [illegible] | [illegible] | لمد | [illegible] | [illegible] |
| M | M | م | [illegible] | [illegible] | מ | [illegible] | [illegible] | ميم | [illegible] | [illegible] |
| N | N | ن | [illegible] | [illegible] | נ | [illegible] | [illegible] | نون | [illegible] | [illegible] |
| · | [illegible] | س | [illegible] | [illegible] | ס | [illegible] | [illegible] | سمك | | [illegible] |
| O | O | ع | [illegible] | [illegible] | ע | [illegible] | [illegible] | عين | [illegible] | [illegible] |
| P | Γ | ف | [illegible] | [illegible] | פ | [illegible] | [illegible] | في | [illegible] | [illegible] |
| | | ص | [illegible] | [illegible] | צ | [illegible] | [illegible] | صادي | | [illegible] |
| Q | Ϙ | ق | [illegible] | [illegible] | ק | [illegible] | [illegible] | قوف | [illegible] | [illegible] |
| R | P | ر | [illegible] | [illegible] | ר | [illegible] | [illegible] | ريش | [illegible] | [illegible] |
| S | Σ | ش | [illegible] | [illegible] | ש | [illegible] | [illegible] | شين | [illegible] | [illegible] |
| T | T | ت | [illegible] | [illegible] | ת | [illegible] | [illegible] | تاو | [illegible] | [illegible] |

**الشكل (٦)**

# العرب والساميون

# العرب والساميون

يمثل البحث عرضاً وجيزاً لتاريخ ما يسمى بالشعوب السامية التي ينتمي إليها العرب أيضاً ، ويحاول أن يخلص إلى توضيح العلاقة بين العرب والساميين ، هذه العلاقة التي تبدو وثيقة من خلال اللغات التي تُظْهِرُ من أوجه التشابه والتطابق الكامل أحياناً ما يحمل المرء على الاعتقاد بأنها تنتمي إلى لغة واحدة أم ، تفرعت عنها في أوقات لاحقة هذه اللغات التي نسميها "اللغات السامية" ، واتخذت أسماء من أسماء الجماعات أو الشعوب التي كانت تستخدمها في الحديث والكتابة . وقد أسهمت هذه اللغات والاعتقاد بأصلها الواحد في تزكية الاعتقاد بأن أصحاب اللغات هذه إنما كانوا أمة واحدة تستوطن شبه الجزيرة العربية ، ثم عندما ضاقت بقبائلها الأرض خرجوا منها باتجاه بلاد الرافدين وبلاد الشام ، أي إلى مناطق الهلال الخصيب التي كانت على أطراف شبه الجزيرة العربية الشمالية ، واقرب البقاع الخضراء المغرية لهم بخيراتها الكثيرة ومياهها الوافرة ، وإلى مصر والدلتا منها بخاصة عبر شبه جزيرة سيناء .

## المعنى اللغوي للفظة (عرب) :

العُرْبُ والعَرَبُ جيل من الناس معروف ، خلاف العجم . والعرب العاربة هم الخُلَّصُ منهم ومُتَعَرِّبَة ومُسْتَعْرِبَة : دخلاء، ليسوا بخُلَّص . والأعرابي : البدوي، والأعاريب: جمع الأعراب[1] ، هذا ما نجده في كتب اللغة ومعاجمها . أما أصل لفظة "عرب" فقد اختلف حوله اللغويون والباحثون ، فذكر بعضهم أن العربية ، وهي لغة العرب ، سميت بهذه اللفظة نسبة

---

[1] ــ انظر معجم "لسان العرب" لابن منظور ، مادة عرب .

إلى يعرب ابن قحطان وهو أبو اليمن كلهم ، أول من أنطق الله لسانه باللغة العربية، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم معهم فتكلم بلسانهم فهو وأولاده ، أي العدنانيون، العرب المستعربة . وقيل إن أولاد إسماعيل نشؤوا بعَرَبَة وهي من تهامة ، فنسبوا إلى بلدهم . ويسمي بعضهم الجزيرة بكاملها عربة أو عربات ، بينما يخص بعضهم مكة وحدها بهذه التسمية .

ويجمع الباحثون على أن كلمة ( عرب ) لم ترد علماً لقومية العرب في الشعر الجاهلي ، وهو أقدم الآثار اللغوية التي عرفتها العربية الفصحى ، ولا في الأخبار قبل الإسلام ويبدو أن القرآن الكريم هو أقدم مصدر عربي وردت فيه الكلمة بمعناها المعروف الجامع ، ثم يكثر استعمال اللفظة من بَعْدُ . ولكن النقوش اليمنية القديمة تذكر اللفظة ، كما ترد في نقش النمارة لصاحبه امرىء القيس ملك الحيرة الذي دفن جنوبي دمشق عام ( ٣٢٨ م ) ، حيث ترد عبارة " ملك العرب " ويُقْصَدُ بها الأعراب[٢] ، كما نجدها في لقب تُبَّع الأكبر ، ملك اليمن الحميري الذي تسميه النقوش اليمنية ملك سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنات ، وعربهم في الجبال وفي تهامة[٣] .

وتبين المقارنة اللفظية مع اللغات الشقيقة أن مادة ( عرب ) تختلط بمادة ( غرب ) فتدل على الجهة الغربية، والعرب كانوا يقيمون إلى الغرب والجنوب الغربي من البابليين والآشوريين. لذلك كان أولئك يسمون تلك المناطق ( مات أريبي ) أي أرض الغرب أو العرب . كما تعني المادة نفسها ( عرب ) حياة التنقل وعدم الاستقرار ، أي البداوة في اللغة العبرية . ولفظة ( عربة ) أو وادي العربة في العربية ، تعني في العبرية ( التي هي والعربية من أصل واحد ) " البادية ، والأرض القاحلة " .

---

[2] ــ امرؤ القيس هو ملك الحيرة ، من ملوك بني لخم المناذرة ، وليس الشاعر الكِنْدي المعروف . وقد جاء في السطر الأول من النقش المذكور الذي خُطَّ بالقلم الآرامي النبطي : "تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج" . أي: هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك كل العرب الذي حاز التاج .

[3] ــ أحمد ارحيم هبو ، تاريخ العرب قبل الإسلام السياسي والحضاري . حلب ١٩٩٠ ، ص ١١٠ .

وإذا عدنا إلى المصادر غير العربية التي ذكرت العرب باسمهم هذا ، فإننا نجد البابليين والآشوريين يسمونهم أريبي ، أَرَبو ، أرُبو[٤] كما ورد في كتابة للملك الآشوري شلمنصر الثالث ( ٨٥٣ ق.م ) الذي واجه قرب جسر الشغور ( موقع قرقر ) جيشاً يجمع القوى الحاكمة لسورية آنذاك ، ليقف في وجه الغزو الآشوري ويضع حداً للسيطرة الآشورية .

وكان الشيخ العربي جندب على رأس القبائل العربية المحاربة التي استطاعت أن توقف الزحف الآشوري بالرغم من أخبار شلمنصر الثالث نفسه التي تنص على انتصاره ، إذ يقول "قرقر عاصمته الملكية أنا خربتها ، أنا دمرتها بالنار ١٢٠٠ مركبة فارس ٢٠٠٠٠ جندي لحدد عازر صاحب أرام ... و ١٠٠٠ جمل لجندب العربي"(٥) . هذا هو المعنى اللغوي لعبارة ( العرب ) .

أما تسمية " الساميين " فنجد أنها لم تستخدم قبل عام ١٧٨١ ، حين توصل إليها العالم النمساوي شلوتسر Schlözer وهو يحاول أن يجد اسماً جامعاً لسكان الشرق الأدنى القديم الذين وجد صلات للقربى كبيرة بينهم فيما يتصل بلغاتهم . وبحكم ثقافته الدينية وقع على نص في التوراة يرد في الإصحاح العاشر ، من سفر التكوين ، وهو السفر الذي يتحدث عن خلق الكون وعناصره، ويتحدث عن آباء البشرية ، ومن بينهم نوح الذي كان له ثلاثة أولاد هم : سام وحام ويافث . وفي هذا الإصحاح بالذات تذكر الأقوام المتحدرة من أولاد سام الثلاثة . ووجد التوراة تذكر أن العبرانيين ، والآشوريين ، والآراميين ، الذين ينص على اسمهم صراحة، أولاد سام . ويعتقد بأن العرب ذُكِرُوا في النص أيضاً ، إذ يرد يقطان والد حضر موت وسبأ ، وهو قحطان عند الأخباريين العرب .

---

(4) ــ بفتح الراء أو كسرها . ومن المعلوم أن الكتابة المسمارية لم تكن تستطيع التعبير عن حرفي الحلق الحاء والعين لأن السومريين الذين ابتكروا هذه الكتابة لم يكونوا ساميين، فلم يعرفوا هذه الأصوات ولا أصوات الإطباق ص، ض، ط ، ظ ، ق .

(5) ــ فيليب حتي ، تاريخ العرب (مطول) ، ٢٤/١ .

· يقول شلوتسر : "من المتوسط إلى الفرات ، ومن بلاد النهرين إلى شبه الجزيرة العربية جنوباً سادت، كما هو معروف ، لغة واحدة ، وعليه فالسوريون والبابليون والعبريون والعرب كانوا أمة واحدة . وكان الفينيقيون الحاميون أيضاً يتكلمون بهذه اللغة التي أود أن ادعوها سامية"[٦] . حجة شلوتسر في اصطلاحه السامي تستند إلى نص توراتي إذن ، وإلى أساس لغوي صريح . ولكنه وقع في مغالطة كان عليه أن يتحاشاها ، وهو الباحث التاريخي اللغوي الذي يتوخى العلمية ويتحرى الدقة في أقواله . فالتوراة ليست كتاباً علمياً ، بقدر ما هي كتاب ديني ، وُضِعَ للعظة والاعتبار وسن القوانين والتشريعات والأحكام الأخلاقية الدينية لليهود ، وهي تذكر في النص المذكور أن ( عيلام ) من أولاد سام ، كما تذكر أن ( كنعان ) من أولاد حام . مع أن العيلاميين ينتسبون إلى الإيرانيين جنساً ، وإلى اللغات الهندية الأوربية لغة . والكنعانيون هم سكان سورية ، وأرض كنعان في التوراة هي فلسطين التي نعرفها فيما بعد، وهم أي الكنعانيون أقرب الناس إلى الآشوريين والآراميين الذين تذكرهم التوراة بين أبناء سام الأساسيين جنساً ، ولغةً ، بل إن اللغة العبرية، وهي لغة التوراة نفسها، لغة كنعانية، يُعْتَقَدُ بأن القبائل الإسرائيلية اتخذها بعد غزوها فلسطين — أرض كنعان[٧] في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ( حوالي ١٢٠٠ ق.م ) .

النص التوراتي يشتمل على غموض واضح ، والعالم شلوتسر لم ينبه إلى ذلك ، ولا نعرف إن كان نفسه قد تنبَّه إليه وهو يبني نظريته استناداً إلى اللغات . ونعتقد بأن التوراة لم تقصد إثارة البلبة حين ذكرت نسل أولاد نوح ، وهم آباء البشر الجدد من بعد والدهم نوح

---

(٦) ــ نقلاً عن نسيب وهيب الخازن ، من الساميين إلى العرب ، ص٩ . وانظر : موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٢٣٩ .

(٧) ــ "أرض كنعان" وهو اسم "فلسطين" القديم ، كما جاء في نصوص التوراة العبرانية نفسها ، نسبة إلى سكانها الأصليين الكنعانيين . أما تسمية "فلسطين" فقد استخدمت في وقت متأخر نسبة إلى شعب "الفلسط" ، وهو فصيل من جماعات "شعوب البحر" الذين اجتاحوا آسية الصغرى فقضوا على دولة الحثيين ، ودمروا دويلات الساحل السوري في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وقد استقر الفلسطينيون على ساحل أرض كنعان واشتبكوا مع القبائل الإسرائيلية الغازية ، كما تذكر التوراة العبرانية. أنظر ص ١٦٣ .

وفناء البشرية بالطوفان العظيم ، بل كانت حين كُتِبَتْ تذكر واقع الشرق القديم السياسي الذي كانت تتنازعه قوى أساسية تتمثل في الامبراطورية البابلية التي كانت عيلام تخضع لحكمها ، والامبراطورية المصرية التي كانت ذات نفوذ كبير على سورية وشواطئها بخاصة حيث كان الفينيقيون ( الكنعانيون ) يرتبطون بمصر ويقيمون علاقات وثيقة معها . فربطت التوراة بين عيلام (الإيرانية) وبابل السامية . كما ربطت بين فينيقية السامية ومصر الحامية ، وهذا أمر طبيعي، ولكن فهمنا الحالي للأمور هو الذي يقودنا إلى الاستنتاج الذي لا مفر منه ، وقد نجد العذر لهذا العالم ( شلوتسر ) فيما ذهب إليه إذا ذكرنا أن علماء اللغة في عصره ( ١٧٨١ ) لم يكونوا قد توصلوا بعد إلى تصنيف ( لغات البشر ) ، تصنيفهم المعروف إلى : لغات هندية ــ أوربية ، لغات سامية ــ حامية ، ولغات طورانية .

الساميون هم إذن أولاد سام وأحفاده ، وهي تسمية علمية صرفة ، ومصطلح علمي اتفق عليه العلماء والمستشرقون وتابعوا شلوتسر عليه ، بالرغم من عدم كفايته العلمية ودقته، وهي تسمية لا يصلح أن تكون عرقية أو جنسية ، ولكنها تصلح للغات المدعوة باللغات السامية ولاسيما بعد أن عُرِفَتْ بأسمائها المحددة .. وإلى ذلك يشير المستشرق كارل برو كلمان ( مؤرخ الأدب العربي المشهور ) بوضوح ، حين ينتقد هذا الاصطلاح ثم يقبله على علاته في كتابة " فقه اللغة السامية المقارن" كما يقبله ويُقْبِل على استخدامه في كل مكان بعد أن توضح الغرض منه .

## ظهور العرب في التاريخ :

العرب عند المؤرخين القدماء طبقتان : عرب قحطانية وعرب عدنانية . وعند المستشرقين عرب الشمال وعرب الجنوب . ومن المعروف أن عرب الجنوب أو العرب القحطانية كانوا سباقين إلى الحضارة والمدنية في اليمن وجنوبي الجزيرة العربية ، إذ كانت لهم حكومات وإدارات ومجالس تشريع وحكم ، وقوانين مدنية واقتصادية ، وزراعة متطورة ،

وكتابة خاصة ، أبجدية المبدأ تتألف من ٢٩ تسعة وعشرين حرفاً ، تزيد على عربيتنا حرفاً واحداً هو السين ( التي بين السين والشين ) ، سماها المؤرخون القدماء القلم المسند .

وكانت لهم علاقات تجارية وطيدة مع سكان الشمال في بلاد الشام وبلاد الرافدين ومصر واليونان، حيث وصلت كتاباهم، وتحدثت أسفار العهد القديم عنهم، ويبرز من ملوكهم ( ملكة سبأ بلقيس ) التي زارت سليمان في قصره . وذكرهم كذلك المصادر الآشورية بين الشعوب التي كانت تدفع الجزية لهم ، ونعتقد أن الصلة بينهم وبين الآشوريين وسكان شمال الجزيرة العربية كانت عن طريق مستعمراهم في شمال غربي الجزيرة العربية ، حيث كان لهم الفضل في نشر كتاباهم الأبجدية بين أشقائهم عرب الشمال ، فكانوا يكتبون لغتهم العربية الشمالية بحروف المسند . فخلفوا لنا الكتابات الثمودية ، والكتابات اللحيانية ، والكتابات الصفوية .

أما دولهم فكانت تعرف باسم دولة معين وعاصمتها قرناو ، وهي أقدم الدول اليمنية ، ثم خلفتها الدولة السبئية التي عاصرها دويلات من مثل : قتبان وحضر موت وأوسان .ولكن الدولة السبئية كانت أشهر دولهم وأطولها عمراً وامتداداً وأقواها نفوذاً ، وهي التي ذكرها القرآن الكريم وأبقى ذكرها في السورة المنسوبة إليها ، سورة سبأ التي تقول إحدى آياها (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية . جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم .. ) .

وصف بليغ لواقع كانت تعيشه اليمن آنذاك ، والمقصود بذلك جنوب الجزيرة العربية كله، ثم جاء الرومان بتسمية Arabia Felix أي العربية السعيدة ، أو اليمن السعيد ، فأكدوا بذلك مستوى عرب الجنوب الحضاري وازدهار اقتصادهم ، بينما كان عرب الشمال قبائل متفرقة ، تُغير على بعضها ، لا تجمعهم دولة، ولا يخضعون لحاكم واحد ، ما خلا بعض حكومات المدن العشائرية في مكة ويثرب ( المدينة ) ، وغيرها من المدن الصغيرة . ولكنهم كانوا أصحاب شأن في تدمر والبتراء والحضر وشمالي سورية ، ولولاهم لما قامت دولتا المناذرة

والغساسنة ، الأولى في العراق والثانية في الشام . ويعود أصحاب الدولتين إلى عرب الجنوب أصلاً .

وكأنهم كانوا ينتظرون رسالتهم الحضارية ، ودورهم الحضاري اللاحق ببزوغ الإسلام ، ليستلموا الراية من إخوتهم اليمنيين وأشقائهم في الشمال : الأنباط والتدمريين والآراميين ، والكنعانيين والبابليين والآشوريين قبلهم .

كان عرب الشمال يُغيرون على ممالك البابليين والآشوريين ، والآراميين ، من بعدهم في بلاد الرافدين وبلاد الشام ، ولكنهم تغلغلوا في تلك المناطق واستطاعوا أن يستقروا في بعضها. ولقد ذكرنا أن الملك الآشوري شلمنصر الثالث اصطدم بقوى متحالفة وقفت في وجه جيشه الغازي في موقع قرقر عام ٨٥٣ ق.م ، كان من بينها جيش جندب العربي . وهذا الخبر هو أقدم ذكر ، بل أول ذكر للعرب عند جيرانهم باسمهم الصريح المعروف . ثم تتالت بعد ذلك الوثائق التي تذكرهم . ولم يكن أولئك العرب بمعظمهم سوى قبائل بدوية ، أو قوى ذات مصلحة سياسية واقتصادية فيما يستجد في منطقة الشرق القديم .

## الأقوام السامية :

إنها تلك الشعوب والأقوام التي شغلت المنطقة الواقعة فيما يعرف اليوم بالشرق العربي في جنوب غربي آسية : بلاد الرافدين وبلاد الشام والجزيرة العربية بادئ ذي بدء ، ثم امتد نفوذهم في شمالي إفريقية و شمالها الشرقي ووصل إلى شبه جزيرة إيبرية وجزر البحر الأبيض المتوسط ، وبعض المناطق في جنوبي أوربة .

وأقدم هذه الشعوب التي تجمعها حضارة واحدة ، وتاريخ واحد ، ولغة واحدة ، وأديان قديمة ، وفكر واحد ، كما يبدو هم الأكديون ، الذين سُمّوا أكاديين نسبة إلى عاصمتهم أكد التي أسسها سرجون الأول ، أو شروكين ( كما يدعى باللغة الأكدية ) عام (٢٣٤٠ ق.م) بعد قضائه على سيطرة السومريين . فوضع بذلك حجر الأساس لكل دول الساميين التالين . ووصل نفوذه إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط وجبال الأرز ( الأمانوس ) التي كان

يحصل منها على الخشب اللازم للبناء وللسفن ولعتاد جيشه الحربي. ونسبة إليهم دعيت اللغة الأكدية ، أقدم اللغات السامية المكتوبة ، برموز مسمارية مقطعية اقتبسوها من أسلافهم السومريين .

خلف البابليون والآشوريون أسرة أكاد السرجونية بعد مدة من الزمن ، فأقام البابليون إمبراطورية بدأت في جنوبي بلاد الرافدين ثم امتدت إلى الشمال والشرق والغرب ، حتى أحكمت قبضتها على كامل مناطق بلاد الرافدين . بابل ( = باب الإله ؟ ) العاصمة أصبحت حاضرة العلم والثقافة الإنسانية القديمة ، ورمز الإبداع الإنساني بحق ، ولاسيما في عهد ملكها المشهور حمورابي ( ١٧٩٢- ١٧٥٠ ق.م ) ( = عمورابي الذي ينتمي إلى العموريين ) . وكان حمورابي قائداً حربياً ، كما كان مشرعاً حقوقياً واقتصادياً بارعاً ، لكن ذكره ارتبط بالشريعة المنسوبة إليه ، و التي كان له فضل إعدادها وتبويبها ، وفرضها على المجتمع ، فكان من أقدم حكام البشرية المنظمين لأحوال الشعوب المعروفين[٨] .

لم يلبث الآشوريون ، وهم جيران البابليين وأشقاؤهم في الشمال ، الذين دُعوا نسبة إلى عاصمتهم وإلههم آشور ، أن كوّنوا دولتهم في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ، واستطاع ملوكهم الذين عرفوا بقوة شكيمتهم وحنكتهم الحربية ، وتنظيمهم للجيش ، إذ كانوا محاربين أشداء ، بل قساة في كثير من معاركهم ، وأقل مدنية من أشقائهم البابليين ، استطاعوا أن يسيطروا على مناطق الشرق القديم بكاملها من غربي إيران إلى شواطئ المتوسط إلى آسية الصغرى ، حتى وصلوا إلى مصر زمن الملك أسرحدون عام ( ٦٧١ ) ق.م وبقوا فيها حوالي عشرين سنة . ومما يلفت النظر أن الملك الآشوري كان يتخذ أحياناً اسمين في وقت واحد: اسماً آشورياً وآخر بابلياً للتعبير عن احترامه للأشقاء البابليين وحرصه على الرابطة الأخوية الخاصة التي تجمعه والبابليين . والعهد القديم ( وهو كتاب اليهود المقدس ) يذكر غزو سرجون الثاني لفلسطين وقضاءه على مملكة إسرائيل . كما يذكر التاريخ الملك آشور بانيبال، البطل الأسطوري المعروف ، والمكتبة العامرة التي بناها ، فكانت أول مكتبة في تاريخ البشرية

---

[8] ـــ أنظر ص ١٢١ .

تشهد على حضارة الإنسان وفكره القديم ، في الوقت الذي كان رجل دولة وسياسياً لا يُشَقّ له غبار .

كانت اللغة الأكدية التي كُتِبَتْ بالرموز المسمارية المقطعية بلهجتيها البابلية والآشورية أقدم لغة سامية مكتوبة ، فتصل آثارها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وتدل على بناء لغوي محكم، يؤكد ظاهرة لغوية فريدة هي ظاهرة الإعراب بأشكالها الثلاثة : الرفع والنصب، والجر . ظاهرة لغوية تخلت عنها اللغات الشقيقة ، واحتفظت بها العربية منذ أقدم آثارها الكتابية المعروفة ، إضافة إلى ظاهرة التنوين ، ووجود المثنى في الفعل والاسم .

أما في سورية القديمة فقد ظهر الكنعانيون[٩] الذين كانوا يقيمون في المناطق القريبة من الساحل ، وسماهم اليونان فينيقيين . وهم ينتمون إلى أقوام أقدم منهم يُعْرَفون باسم العموريين الذين كانوا يستوطنون سورية الداخلية في أيام الأكديين والبابليين والآشوريين ، وكانت لهم ممالك أشهرها مملكة ماري ( تل الحريري ) زمن الملك البابلي حمورابي الذي ينتمي إليهم ، كما ذكرنا .

أسس الكنعانيون ممالك مدن الساحل السوري، كانت أشهرها مملكة أوغاريت ( في موقع رأس شمرة السوري اليوم ) ، وأرواد ، وصيدا وصور . واستطاعت مملكة صور أن تقيم مستعمرة لها عظيمة في شمال إفريقية ، عاصمتها قرطاجة ( أو قرت حدش بالفينيقية ويعني ذلك "المدينة الحديثة" ) ، امتد نفوذها فشمل ما يعرف اليوم بتونس والجزائر والمغرب، ووصل إلى شبه جزيرة إيبرية . وقد حفظ التاريخ لنا اسم الملك هانيبال ( = حن بعل ) وحصاره لروما . واليوم يتكلم سكان مالطة لغة عربية تكتب باللاتينية ، وهي ظاهرة غريبة ، إلا أنها تمثل بقايا اللغة البونية كما دعيت اللغة الفينيقية في شمالي إفريقية ، واللغة العربية نفسها التي وصلتها بعد الفتح العربي لها .

وخلد التاريخ الكنعانيين والساميين بعامة الذين قدموا للإنسانية أعظم ابتكار في تاريخها هو الكتابة الأبجدية التي اخترعوها في موطنين من مواطنهم : أوغاريت ( الواقعة إلى الشمال

---

[٩] ــ انظر ص ١٤٩ .

من مدينة اللاذقية السورية ) بكتابتها ذات الشكل المسماري ، وجبيل بكتابتها الأبجدية التي انتشرت في كل أنحاء العالم القديم ، ومازالت متداولة في عصرنا ، عن طريق اليونان والرومان في الغرب ، وعن طريق الاشقاء الآراميين في الشرق[١٠] .

في الوقت الذي كان الكنعانيون – الفينيقيون مشغولين بتجارتهم البحرية وبتنشيط علاقاتهم بشعوب البحر الأبيض المتوسط ، كان أشقاؤهم الآراميون يقيمون دويلاتهم المتفرقة في بلاد الرافدين بصمت وبحذر شديد لا يُلْفِتُ نظر الدول الكبرى في المنطقة : في دمشق ، وحماة وصوبا ( في البقاع ) ، بيت أغوشي في حلب، وأرفاد، وفي سمأل ( في سورية ) ، وفي الشمال الغربي من بلاد الرافدين حيث قامت ممالك بيت عديني ، وبيت زماني ، وبيت بحياني وعاصمتها غوزانا ( تل حلف ) ، حتى بلغ عدد ممالكهم ( ١٥ ) مملكة . ولم يستطع الآراميون إقامة دولة كبيرة في المنطقة تجمعهم ، وتجعلهم قوة سياسية مرهوبة الجانب تقف بين الدول العملاقة هناك في بلاد الرافدين ، حيث البابليون والآشوريون ، وفي آسية الصغرى حيث الحثيون ، وفي مصر حيث دولة الفراعنة . ولكنهم كانوا الأقوى اقتصادياً ، فهم تجار البر ، ولم يكونوا من الطامعين في السيطرة السياسية ، بل استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم حضارياً على شعوب المنطقة من الأشقاء الساميين ، وغير الساميين معاً ، وذلك عن طريق اللغة . فبعد أن كانت اللغة الأكدية بفرعيها البابلي والآشوري لغة المنطقة الأولى، حتى منتصف الألف الأولّ قبل الميلاد ، إذ باللغة الآرامية تحتل مكانها بجدارة[١١] ، بل وتنتشر حتى بين الأشقاء العرب : الأنباط عرب ، لكنهم كانوا يكتبون باللغة الآرامية ، والتدمريون عرب في غالبيتهم ، ولكن لغة الكتابة عندهم كانت آرامية . حتى العبرية وهي لغة العهد القديم المقدسة عند اليهود لم تَخْلُ من تأثير اللغة الآرامية ، بل نجد سفرين من أسفار العهد القديم

---

(10) ـــ جبيل التي تقع إلى الشمال من بيروت دعاها اليونان بيبلوس Byblos ، ومن هذا الاسم اشْتُقَّ اسم الكتاب Bible ، وهو الكتاب المقدس ، ثم تطور المعنى إلى "كتاب" بعامة ، انظر ص ٤٥ .

(11) ـــ ونذكر هنا أن فريقاً من الآراميين استطاع أن يصل إلى حكم بابل في الربع الأخير من القرن السابع قبل الميلاد ، فدعيت الدولة البابلية الحديثة "كلدانية" نسبة إلى قبيلة كلدو الآرامية التي أسست الأسرة الحاكمة ، وهي الأسرة التي ظهر فيها الملك المعروف نبوخذ نصر الذي تم في عهده السبي البابلي لليهود (عام ٥٨٧ ق.م) ، وخراب الهيكل .

وقد كتب قسم كبير منهما باللغة الآرامية ، وهما سفر دانيال ، وسفر عزرا[١٢] . وكذلك نجد الفرس الذين حلوا محل البابليين بعد قضائهم على دولتهم الأخيرة ، يتخذون اللغة الآرامية لغة رسمية للحكم في الشطر الغربي من إمبراطوريتهم .

وقد عثر الباحثون في جزيرة فيلة في نهر النيل قرب أسوان على كتابات تعود لجالية يهودية كانت تعيش هناك في القرن الخامس قبل الميلاد . وكُتِبَ للآرامية أن تصبح الكتابة الرسمية في الشطر الشرقي للإمبراطورية الفارسية أيضاً إذ وُجِدتْ كتابات آرامية في شمالي الهند وأفغانستان .

ويقدر عمر اللغة الآرامية في فترة ازدهارها بحوالي ألف سنة ، منذ سيطرت على المنطقة وأصبحت لغة الشرق القديم بدءاً من القرن السادس قبل الميلاد حتى جاء العرب المسلمون بلغة القرآن التي حلت محل الآرامية بسهولة ، كما حلت الآرامية من قبل بسهولة أيضاً محل الاكدية . ومرد ذلك من دون شك إلى قرابة هذه اللغات الشديدة من بعضها ، بل وقرابة أهلها أيضاً .

كان للآراميين فضل نقل الحضارة ورعاية بذورها ونشرها ، وكان للآراميين فضل تلقيح اللغات الأخرى بألفاظها الخاصة وألفاظ اللغات الأخرى ، كاليونانية واللاتينية والعبرية. وكانت العربية خير مستفيد من شقيقتها الآرامية. وقد قدر لي أن أحصي الكلمات الآرامية التي دخلت العربية في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، الثامن والتاسع الميلاديين، فوجدت أن للآرامية أكبر نصيب في الكلمات الأعجمية التي دخلت العربية[١٣] . وما زال عدد كبير من أسماء المدن والقرى والأمكنة في بلاد الشام وبلاد الرافدين يحتفظ باسمه الآرامي ، وأكثرها

---

(12) ـــ سفر دانيال ، الإصحاح ٢ ـــ ٧ ، وسفر عزرا ٤ ـــ ٦ .

(13) ـــ في كتابي (باللغة الألمانية) الذي صدر عام ١٩٨٤ في فرانكفورت بعنوان : الألفاظ الدخيلة في السيرة النبوية لابن هشام .

Die Fremdworter in der arabischen Prophetenbiographie des Ibn Hischam. .

وضوحاً الأسماء التي تبدأ بلفظة ( معرة ) والتي تبدأ بالباء اختصاراً لكلمة ( بيت ) : بداما ، بانقوسا ، باريشا ؛ وكفر : كفر كرمين ، كفر داعل ، كفر ناها ، كفر جنة .

واللغة السريانية هي الآرامية في شكلها الأخير وفي بنائها اللغوي الذي وصل إلينا منذ الفتوحات العربية . وقد عُثِر على كتابات عربية قديمة خُطَّتْ باللغتين السريانية والعربية نذكر منها نقش أم الجمال الذي وجد جنوب غربي بصرى الشام ويعود تاريخه إلى عام ( ٢٥٠ ) م. ونقش زبد الذي عُثِرَ عليه في جنوب شرقي حلب ،ويعود تاريخه إلى عام ( ٥١٢ ) م . ونقش أم الجمال الثاني ويعود تاريخه إلى القرن السادس الميلادي .

وهذا دليل واضح على الصلة الوثيقة بين السريانية والعربية وأهميتها عند سكان سورية آنئذ . ونعتقد أن الخط المعروف بالكوفي ذو أصل سرياني للشبه الواضح بينهما ، ولا سيما الخط السرياني المعروف باسم الاسطرنجيلي . وكتب للسريانية التي مازالت حية في بعض المناطق من سورية والعراق وتركية اليوم إلى جانب العربية الفصحى أن تستمر في عطائها الحضاري حين نقل علماؤهم علوم اليونان إلى العربية .

ثم انتقلت الآية فيما بعد ، وبدءاً من تأسيس الإمبراطورية العربية. إذ بدأت الألفاظ العربية تدخل لغات المنطقة ، السامية منها ، وغير السامية حتى غدت اللغة العربية عنصراً هاماً في تكوين لغات المنطقة، وخارج المنطقة ، فقد دخلت تلك اللغات ألفاظ عربية كثيرة تنص عليها المعاجم الخاصة بها .

هذه الشعوب التي ذكرناها بأسماء مختلفة : أكاديون ، بابليون وآشوريون ، كنعانيون، فينيقيون ، أدوميون ، مؤابيون ، آراميون ، سريان ، عرب شماليون ، عرب جنوبيون ، كانت تعمر مناطق سميت ببلاد الرافدين ، وبلاد الشام ، والجزيرة العربية ، ولكنها متحدة بحضارة واحدة السمات ، جعلت الدارسين الغرباء ينتبهون إليها ، ولعل لغاتها كانت أول من نبه إلى تلك الوحدة الحضارية ، فاللغات السامية التي كانت تلك الأقوام تتكلمها ، وتدون بها

إنجازاتها الحضارية ، وشرائعها ، وآدابها الغنية ، لغات ذات أصل واحد ، لغة أم تفرعت فيما بعد في المناطق الجغرافية التي عاش فيها أهلها .

وكانت تتناوب أقواها في البروز وبحسب الدور الحضاري أو السياسي الذي عليها القيام به. ثم انقرضت لغات كثيرة منها، كالأكدية بفرعيها البابلي والآشوري ، والكنعانية بلهجاتها الأوغاريتية والفينيقية، والإبلوية[١٤]، والآرامية بلهجاتها المختلفة وبقيت منها السريانية ، والآرامية الغربية في معلولا وبخعة وجبعدين[١٥]، وهي أقرب اللغات إلى لغة السيد المسيح . وبقيت العربية الشمالية (العدنانية) إلى جانب السريانية والعبرية التي أعيدت إليها الحياة بعد طول رقاد نتيجة لإنشاء الكيان الصهيوني في فلسطين . وهناك لهجات حبشية سامية مازال محكية إلى اليوم، وتعود في أصلها إلى العربية ( اليمنية )، وفي جزيرة سوقطرة اليمنية القديمة مازال السكان يتحدثون لغة يعود أصلها إلى إحدى اللغات اليمنية القديمة . هذه اللغات السامية تشبه في لهجاتها وتفرعاتها حال العربية اليوم التي تتوزع بين المشرق والمغرب ، فثمة لهجة خليجية وعراقية ، ولهجة شامية ، وأخرى مصرية ، ومغربية ، ولكنها ذات منبع واحد هو العربية التي تفرعت عنها . أسماء مختلفة والأصل واحد .

## خصائص اللغات السامية وموطن الساميين الأصلي :

إن المتأمل لهذه اللغات التي دعيت بالسامية ليجد أوجه تشابه كثيرة ، وسمات تميزها من غيرها من اللغات ، بحيث يصح للعالم اللغوي أن يطلق عليها تسمية مقابل أسرة اللغات اللاتينية ، وأسرت اللغات الجرمانية ، وأسرة اللغات السلافية ، وغيرها من اللغات التي جمعت

---

(14) ـــ الإبلوية نسبة إلى مملكة إبلا التي اكتشفت عاصمتها حديثاً ، وتعد آخر ما تم الكشف عنه من حضارات الساميين في العصر الحديث ، وذلك على يد بعثة إيطالية برئاسة البروفسور باولو ماتييه في منتصف السبعينات في موقع تل مرديخ إلى الجنوب من مدينة حلب في سورية . وينسب إلى نارامسين ، حفيد سرجون الأول ، تدمير المدينة والدولة حوالي عام ٢٢٣٠ ق.م ، أنظر ص ١٨٣ .

(15) ـــ هذه القرى الثلاث تقع في جبال القلمون إلى الشمال من دمشق . ومازال سكانها يتحدثون لهجات آرامية ، يسميها بعضهم خطأً سريانية ، لأن السريانية نفسها لهجة آرامية شرقية لها سماتها الخاصة ، ولهجات القرى الثلاث آرامية غربية تأثرت بأصواتها وألفاظها بالعربية .

في أسر لغوية متميزة ، وتنضوي تحت اسم جامع أكبر كاللغات الهندية ـــ الأوروبية ، واللغات السامية ـــ الحامية .

وأوجه التشابه بين اللغات السامية ليست سطحية وتتصل بالألفاظ وحدها التي قد تعرفها أية لغة أخرى مصادفة أو في ظروف معينة ، كما هو حال الألفاظ العربية الكثيرة في اللغة الفارسية أو في اللغة التركية ، مثلاً ، والتي دخلت اللغتين بعد الإسلام . فهاتان اللغتان ليستا من اللغات السامية ولا تمتان إليها بصلة وإن احتوتا على ألفاظ عربية سامية كثيرة . بل إن التشابه بين اللغات السامية أعمق وأعظم أثراً ، إذ يتبين لنا أن أهم المظاهر اللغوية تتمثل فيها، وتبرز منها :

١. الأصوات فيها متميزة ، إذ تعرف اللغات السامية وحدها صوتين حلقيين هما الحاء والعين ، لا يردان في غيرها من اللغات المعروفة ، القديمة منها والحديثة . وثمة أصوات يسميها اللغويون العرب "أصوات الإطباق" ، أو "أصوات التفخيم" ، وهي الطاء والظاء والصاد والضاد ، والقاف لا تعرفها غير اللغات السامية .

٢. للفعل فيها صيغتان متميزتان هما صيغة نسميها في العربية "الفعل الماضي" ، وصيغة نسميها "الفعل المضارع" ، ويصطلح المستشرقون على تسمية الأولى Perfect والثانية Imperfect . تتألف الأولى من الجذر بزيادة تلحقه هي ضمائر الرفع المتصلة في نهاية الصيغة (ماعدا صيغة الغائب)، وتبدأ الثانية بأحد الحروف (أ ن ي ت )، ويلحق الجذر بعض الحروف الزائدة (في صيغ الأفعال الخمسة ، وصيغتي جمع المؤنث) .

٣. للألفاظ فيها أصل ثلاثي، إذ ترجع الصيغ الاسمية والفعلية فيها كلها إلى أصل ثلاثي. ونتيجة لذلك صنفت معاجم اللغة العربية على مختلف مناهجها والتي تعتمد مبدأ الجذر اللغوي المؤلف من ثلاثة أصوات (حروف) صامتة Consonants ، ولا تراعي الأصوات الصائتة Vowels في ترتيب موادها ، لأن المعنى الأساسي للمادة يرتبط بالأصوات الصامتة وحدها . أما الأصوات الصائتة والتي تمثل الحركات القصيرة أو

الطويلة (المشبعة) في اللغات السامية ، ومنها العربية طبعاً ، وهي الفتحة وإشباعها الألف الممدودة ، والضمة وإشباعها الواو ، والكسرة وإشباعها الياء ، فلها دور ثانوي يتمثل في تحديد الدلالة الأساسية وتخصيص المعنى . فمادة (كتب) ، مثلاً ، تشتمل على صيغ مثل : الفعل كتب ، والاسم كتاب ، واسم الفاعل كاتب ، والمصدر كتابة ، واسم المكان مكتب .. الخ .

ونستطيع أن نحصل من المادة نفسها على عدد كبير من الصيغ الفعلية ، المجردة منها والمزيدة ، والأسماء المختلفة ، من دون تغيير في المعنى الأساسي الجامع بينها . أما الحركات التي تدخل على الصيغة الواحدة ، فوظيفتها إعطاء المادة معنى محدداً ، لا يختلف أصلاً عن المعنى الأساسي لها . فإذا قلنا كتب بفتح الحروف الثلاثة قصدنا صيغة الماضي من الفعل . وإذا قلنا كُتِبَ بضم الحرف الأول وكسر الحرف الثاني قصدنا صيغة الماضي المبني للمجهول . وإذا قلنا كتب الاسم المفرد ، وإذا قلنا كُتُب بتحريك الحرفين الأول والثاني بالضم قصدنا جمع الاسم .

٤. للاسم في اللغات السامية ثلاث حالات إعرابية هي : الرفع ، والنصب ، والجر . وظاهرة الإعراب عرفتها كل اللغات السامية ، وتأكد ذلك من خلال الشواهد المدونة منذ عصر اللغة الأكدية القديمة ، وهي اللغة السامية الأولى التي كُتِبَتْ آثارها (بالمسمارية) وتعود نصوصها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وعبر لهجتيها القديمتين ، البابلية والآشورية ، ومن خلال آثار اللغة الأوغاريتية (الكنعانية) ، وبعض الشواهد من اللغة العبرية واللغة الآرامية .

وقد احتفظت اللغة العربية بهذه الظاهرة منذ القديم ، كما يتبين من الشعر الجاهلي والقرآن الكريم . ومرد ذلك إلى أنْ القرآن الكريم أوحي إلى الرسول ﷺ بلسان عربي مبين، فحفظ القرآن العربية بذلك خصائصها وأسرارها كلها . ولذلك يعد المتخصصون في حقل الدراسات بعامة ، والعربية بخاصة ، اللغة العربية المرجع الأول والأخير في أبحاثهم اللغوية المختلفة لاحتفاظها بخصائص اللغات السامية وسماتها الأساسية ، ولاسيما ما يتصل منها

بالأصوات (الحروف) الأصلية، والبناء اللغوي وأسس تكوينه الأصيل. ولا يستطيع الدارسون من دون الرجوع إلى اللغة العربية فهم اللغات السامية ولا دراسة أي من لهجاتها[١٦].

٥. الألفاظ المشتركة بين اللغات السامية ، بل تطابق الألفاظ الشديد بينها ، ولاسيما ما يتصل منها بالألفاظ الأساسية في حياة الإنسان ، وذات العلاقة بأعضاء الجسم : الرأس ، والعين ، والأذن ، والفم، والسن ، واللسان ، واليد ، والساق والرِجْل .. ، وأسماء صلة القرابة : أب، أم، أخت، ابن، بنت، ولد، بعل ... ، وأسماء الحيوان : كلب ، ذئب ، حمار ، أتان ، جمل ، ظبي ... ، وأسماء النبات : قمح ، عنب ، زيتون ، تفاح ، زرع ... ، وكذلك تتطابق الضمائر المتصلة والمنفصلة ، واسم المكان ، واسم الآلة ، واسم الإشارة ، واسم العدد .

إن اشتراك اللغات السامية بهذه الألفاظ الأساسية ، وبالسمات الأخرى التي ذكرناها يجعل منها أسرة لغوية واحدة ، بل ويشير بجلاء إلى أنها تعود إلى أصل واحد وإلى لغة واحدة ، ويسمح لنا أن نسميها "اللغة السامية الأم" .

ولكن هل يعني قرابة اللغات السامية وما تفرع عنها من لهجات منذ قديم الزمن ، أي منذ ظهرت آثارها الكتابية الأولى التي تتمثل في اللغتين الاكدية والإبلوية في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، ثم البابلية والآشورية في الألف الثاني قبل الميلاد ، والكنعانية والفينيقية في منتصف الألف الثاني ، والعربية الجنوبية (اليمنية) بلهجاتها المعينية والسبئية والقتبانية والحضرموتية والاوسانية ، والآرامية القديمة في الألف الأول قبل الميلاد ، ثم العربية الشمالية بنقوشها البدائية التي خطت بقلم المسند اليمني قبل الميلاد بقليل ، وبلغتها الفصحى ، لغة الأدب الجاهلي ، ولغة القرآن الكريم بعد ظهور الدين الحنيف ، وإلى ما بعد ذلك ، إذ كثرت اللهجات ، وتشعبت اللغات ، هل يعني أمر القرابة اللغوية هذا ، ووحدة اللغات السامية ، أو الأقوام التي تكلمت هذه اللغات وكتبتها ذات أصل واحد ، وموطن أصلي واحد ؟

---

(16) _ R. Meyer , Hebraische Grammatik 1,22.

إن الجواب عن هذا التساؤل يجعلنا نعود إلى آراء الباحثين الذين شغلوا أنفسهم بالبحث عن الموقع الجغرافي الذي كان يستوطنه من عُرِفوا اصطلاحاً باسم "الساميين" منذ أطلق الباحث الألماني شلوتسر تسميته على أصحاب اللغات المذكورة عام ١٧٨١ ، كما ذكرنا .

ثمة آراء تحتمل المناقشة ، وآراء أخرى لا تعتمد على حجة منطقية حتى تُطْرَح على بساط البحث . ويستند بعض الباحثين إلى أدلة لغوية تتمثل بألفاظ محددة تشير إلى بيئة جغرافية خاصة ، وتتعلق بالعمران والحيوان والنبات . ويحتج فريق آخر بما جاء في التوراة المتداولة من قصص وأساطير .

أما أصحاب الحجة اللغوية والبيئة الجغرافية فيأتي على رأسهم المستشرقون فون كريمر ، وجويدي ، وهومل الذين يرون أن المهد الأصلي للشعوب السامية كان جنوب العراق حيث يقترب نهرا دجلة والفرات من بعضهما ، وحيث نشأت حضارة بلاد الرافدين الأساسية . وقد رد المستشرق نولدكه عليهم بأن ما ذكره أولئك من الكلمات لا يُعْتَدُّ به في إثبات حقيقة كهذه ، إذ ليس ما يثبت لنا أن جميع الساميين أخذوها عن أهل العراق . وهم كانوا قد ساقوا أمثلة من الألفاظ المشتركة في اللغات السامية ادعوا أنها انتُزِعتْ من البيئة الجغرافية في جنوب العراق ، ولا يمكن أن تكون تلك الكلمات مأخوذة من منطقة عمرها الساميون في المناطق الأخرى . ويذكر نولدكه من جانبه كلمات مثل : جبل ، شيخ ، صبي ، أسود ، ويقول إن هذه الكلمات تختلف تسميتها في اللغات السامية ، مع أنها جديرة بأن يكون لها لفظ مشترك فيها لأنها كانت موجودة عند الجميع حين كانوا أمة واحدة ، وحين تفرقوا أمما شتى[١٧] .

أما الذين يعتمدون على التوراة للتدليل على أن موطن الساميين الأصلي هو جنوب العراق فيذكرون أن التوراة نصت على أن أقدم ناحية عمرها أولا نوح هي أرض بابل . منهم من يقول إن جهات أرمينية التي ذكرت في التوراة هي موطن الساميين الأصلي ، إذ يرد اسم أرفكساد فيها ، وتخبر أن الشعوب السامية انحدرت من مدينة أرفكساد التي يحددون موقعها في

---

(17) _ Th. Noldeke, Semitische Sprachen 14.

جهات أرمينية حيث رست سفينة نوح، إذ يرد اسم هذه المدينة اسماً لأحد أبناء سام بن نوح، على عادة التوراة التي تخلط بين أسماء المدن والدول وأسماء الأشخاص . فآرام في التوراة اسم رجل شيخ قبيلة ، واسم قطر بكامله هو سورية ، وآشور ، وسبأ .. وغيرها من التسميات .

ويرى بعض العلماء أن المهد الأصلي للشعوب السامية كان بلاد كنعان ، إذ أن مدنيتهم في سورية القديمة موغلة في القدم ، وإن ساميي العراق ، والأكديون في مقدمتهم ، وهم أول من أنشأ دولة سامية في العراق ، جاؤوا من جهات الغرب ، أي من سورية ، بنوا حضارتهم على حضارة السومريين الذين سبقوهم إلى الحضارة ، وهم غير ساميين . ولاسند لهؤلاء غير التسلسل الحضاري في بلاد الرافدين، إذ يقولون إن سورية هي الموطن الأصلي للساميين كافة. إلا أن عدداً كبيراً من الباحثين ، من قدامى ومحدثين ، ويبرز منهم المستشرقون بروكلمان ، وريان ورايت ، يميل إلى الأخذ بالرأي القائل بأن الشعوب السامية التي سكنت العراق وسورية جاءت كلها من شبه الجزيرة العربية(١٨) ، ويستدلون على صحة رأيهم بأن الهجرة إلى تلك البلاد كانت تتجه دائماً من بلاد نجد والحجاز واليمن بخاصة إلى سورية والعراق وما إليهما. فمن المؤكد أن هجرات عربية يمنية خرجت في أوقات معلومة باتجاه الشمال على شكل موجات حملت معها قبيلة بني لخم التي كانت ضمن مجموعة غير متجانسة من القبائل اليمنية ، أطلق عليها اسم تنوخ ، استطاعت أن تقيم دولة في جنوبي العراق ، وجعلت الحيرة عاصمة لها في القرن الرابع الميلادي ، وسُمّيتْ دولة بني لخم أو دولة المناذرة . في الوقت التالي وصل الغساسنة إلى سورية وهم ينتمون إلى قبيلة الأزد اليمنية المعروفة ، ووجدوا قبلهم عرباً من الضجاعمة اليمنية فسكنوا بين ظهرانيهم إلى أن قويت شوكتهم فوثبوا عليهم ، وحلوا

---

(18) ـــ يذكر جواد علي في مؤلفه " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" ١/٢٢٩ ـــ ٢٥٤ آراء المستشرقين ونظرياتهم حول الموطن الأصلي للساميين ، ومن بينها الرأي المذكور هنا ، وبالتفصيل . لذلك نحيل من يرغب المزيد من الإطلاع إليه . وكذلك إلى كتاب عبد العزيز صالح " تاريخ الشرق الأدنى القديم" ، الكتاب الأول : مصر والعراق . القاهرة ، ط٤ ، ١٩٩٠ ، ص١٦ ـــ ١٧ .

محلهم من الخضوع لنفوذ الروم البيزنطيين ، كما خضع أشقاؤهم بنو لخم لنفوذ الفرس الساسانيين .

إن هجرة بني لخم إلى العراق ، والغساسنة ومن قبلهم الضجاعمة إلى سورية ، وهو الأمر الذي أكدته كل المصادر التاريخية القديمة نتيجة لتهدم سد مأرب ، كما يروي الأخباريون العرب ، قد يثبت صحة رأي من يرى أن الساميين كانوا في شبه الجزيرة العربية قبل أن يهاجروا إلى الشمال ، حيث مناطق الهلال الخصيب الذي يمثل دار استقرار وأمان معيشي لعرب الجزيرة الذين كانوا يعانون من جفاف الجزيرة وشح زراعتها ، ومن نقص المواد الغذائية . فكانت الجزيرة تضيق بمواردها القليلة عن تلبية حاجة سكانها من البدو وأهل المدن الذين يتزايدون ، وتكثر أعدادهم بين حين وآخر . وقد سبقت هجرة عرب اليمن إلى الشمال هجرة اتجهت إلى أثيوبية عبر مضيق باب المندب باتجاه الغرب قبل الميلاد ، حيث أقاموا دولة أكسوم ، وجعلوا لغتهم السامية تسود ، وحضارهم تتطور ، وأعطوا البلاد اسم الحبشة نسبة إلى قبيلة حبشت اليمنية ، واسم اللغة الرسمية للدولة الجعزية نسبة إلى قبيلة جعز اليمنية أيضاً .

بل ويرى بعضهم أن الفتوحات العربية الإسلامية ما هي إلا موجة أخيرة من موجات الهجرات السامية التي جاءت نتيجة للمشاكل الاقتصادية التي كانت تعاني منها شبه الجزيرة العربية والتي كادت أن تفيض بسكانها ، وتضيق ذرعاً بهم بعد توقف الهجرات الكبيرة . فكانت الدعوة إلى الإسلام سبباً ليخرج عرب شبه الجزيرة مبشرين بالدين الحنيف الذي أتى للناس كافة ، إلا أن السبب الاقتصادي ، والبحث عن الرزق في أوطان جديدة توفر الغذاء ، وتضمن الحياة بشروط أفضل ، بل يستحيل تأمينها في شبه الجزيرة العربية ، كان دافعاً لا شعورياً ، وحافزاً إلى الانطلاق إلى بلاد الله الواسعة ساعدهم على النجاح السريع في الفتوحات ، ونشر الإسلام في أصقاع جديدة عملاً بتعاليمه ، وتلبية لأوامر الله التي قضت بالجهاد في سبيل الله . ولكن لا سبيل إلى الاعتقاد بأن العامل الاقتصادي هو الذي قاد العرب المسلمين إلى القيام بفتوحاتهم التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً من حيث الانتشار في وقت زمني قصير ، ومن حيث طريقة التعامل مع الشعوب المغلوبة . وكان الخليفة حتى لا تفتر حماستهم ،

وينشغلوا بالحياة اليومية عن نشر الدعوة الإسلامية في المناطق الأخرى التي خرجوا من أوطانهم في سبيلها ، بل فضّل إبقاء الأراضي الزراعية بأيدي أصحابها في العراق وسورية ، وإن كانوا من غير المسلمين ، وأخذ الخراج والجزية منهم ، كسباً لولائهم بهذه المعاملة الطيبة ، وتأليفاً لقلوبهم ، على تسليمها للمسلمين الفاتحين .

هذه الآراء التي ذكرناها ، والتي تحاول جاهدة إثبات صحتها بالحجة اللغوية ، أو استناداً إلى ما ورد في التوراة، أو بما له صلة بالبيئة الجغرافية والظروف المعيشية، قابلة للدرس والمناقشة. وهي نظريات لا تستند إلى حجة تاريخية دامغة لا يأتيها الباطل من جانب ولا يعتريها الشك. وليس لديها دليل يرقى إلى درجة الإثبات ، ما لم تذكر الشعوب نفسها بوثائق تعود إلى الزمن الذي يُعتَقد بأنها وصلت فيه إلى موطنها الجديد ، إن صح ذلك ، ذلك الموطن الذي كان مهدها الأصلي . لكن الواقع لم يقدم لنا ما نستطيع من خلاله أن نتقدم خطوة واحدة باتجاه الدليل الحق .

وثمة معلومات هامة نود أن نقف عندها تؤكد بالدليل القاطع أن الساميين كانوا يستوطنون الهلال الخصيب في فجر التاريخ ، في المناطق الممتدة بين الخليج العربي وشط العرب (حيث لم يكن نهرا دجلة والفرات قد اتحدا بَعْدُ، قبل أن يصبا في الخليج ، بل كانا يصبان منفصلين) ، وباتجاه الشمال في المناطق الواقعة بين النهرين وحولهما ، وباتجاه الغرب والجنوب، أي في بلاد الشام في المناطق المحاذية لسواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية، وفي بادية الشام، إذ يؤكد الباحثون ، وفي مقدمتهم العالم المعروف ليو أو بنهايم ، L. Oppenheim وهو حجة في حقل الدراسات الآشورية ، أو ما يسمى "علم الآشوريات" Assyriology ، واستناداً إلى دراساته المتعمقة، في حضارة بلاد الرافدين ولغاتها القديمة التي تم العثور عليها في أماكن مختلفة، أن كلاً من اللغة السومرية واللغة الأكدية تقدمان ألفاظاً ذات دلالة قديمة تعكس درجة واحدة أو أكثر لحضارة قديمة في جنوب العراق[١٩] . وقد دخلت اللغتين معاً ، أي السومرية

---

(19) ــ ليو أوبنهايم ، بلاد ما بين النهرين . ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق . بغداد ، ط٢ ، ص٤٦٠ .

والأكدية السامية ، عناصر لغوية ، كما يتبين من أسماء العلم لا تمت إلى اللغتين بصلة في وقت واحد ، بحيث يصعب التعرف على أصول تلك العناصر[٢٠] . ونستنتج من هذا أن قدم السكان الساميين في العراق من قدم السومريين، إن لم يكن يمتد إلى أزمنة أقدم بكثير من الزمن الذي وصل فيه السومريون جنوبي العراق ، أي أن السومريين عندما حطوا الرحال في سهل شنعار في جنوب بلاد الرافدين وجدوا الساميين في البلاد يعيشون حياهم البدوية الخاصة. ولكن السومريين كانوا سباقين إلى الحضارة والتمدن، وكان على الساميين أن يجاروا السومريين ، ويلحقوا بهم ، ويفيدوا من إنجازاهم بعد زمن ، دون أن تقع حوادث عنف بين الطرفين ، أو تظهر بوادر من العداوة والتنافس السياسي بينهما ، قبل أن يحل الساميون محل السومريين في مركز السلطة ، حتى خمل ذكر السومريين ، وذابوا في المجتمع العراقي القديم الموحد ، الذي صارت غالبيته السامية صاحبة الشأن والقرار السياسي ، والمتحكمة في مصير البلاد ، بل والبلاد المجاورة بشكل نهائي لا رجعة فيه . بل نستطيع القول ، استناداً إلى الكشوف الأثرية واللغوية في شمالي العراق وفي سورية ، إن الساميين أقدم استيطاناً لهذه المناطق من غيرهم ، ومن السومريين أنفسهم ، وهم الذين جاؤوا العراق مهاجرين من مناطق غير معلومة ، ولم يستطع الباحثون حتى اليوم تحديد موطنهم الأصلي قبل أن يدخلوا العراق بعد إقامتهم في ديلمون/تليمون (كما كانت تسمى البحرين في النصوص المسمارية)، وكان ذلك في الربع الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد وخلال فترة من فترات حضارة الوركاء ، وحيث كان السكان الأصليون أرقى حضارة منهم ، كما يفترض الباحث المعروف في الدراسات السومرية صمويل كرامر[٢١].

---

(20) ـــ المصدر السابق ، ص٦١ . وكذلك توفيق سليمان ، دراسات في حضارات غرب آسية القديمة ، دمشق ١٩٨٥ ، ص ٧٧ ـــ ٧٨ .

(21) ـــ عبد العزيز صالح ، تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص ٤٤٩ .

فثمة اتفاق على أن السومريين استقروا في جنوب العراق ، أما الشمال فكان موطناً أصلياً للساميين ونقصد هنا الآشوريين الذين تأثروا بحضارة الجنوب ، ولكن موطنهم لم يسمح باستيطان غيرهم .

أما الشعوب الهندية ــ الأوروبية التي ظهر نفوذها في أوقات متقطعة في المنطقة ، وحديثنا مازال عن بلاد الرافدين وسورية معاً ، فكانت طارئة ، ولم يكتب لها البقاء صافية ، بل ذابت هي الأخرى في المجتمع السامي كما ذاب السومريون ، أو اندحرت فلولهم وعادت إلى أوطانها . ونذكر هنا الجوتيين الذين حكموا العراق مدة قصيرة من الزمن بعد انهيار دولة سرجون الاكدية ، ثم الكاشيين الذين كانوا يتربصون بالدولة البابلية القديمة الدوائر حتى سنحت لهم الفرصة بعد تدمير بابل على يد الحثيين عام ١٥٩٥ ق.م ، والحوريين (والميتانيين) الذين عاصروا الكاشيين ، وكانت مناطق نفوذهم وحكمهم تمتد بين العراق وسورية قريباً من مناطق الساحل السوري شرقاً . وهؤلاء الهندو ــ أوربيون كان عليهم أن يتخدوا حضارة البلاد ولغتها (الأكدية) حضارة لهم ولغة رسمية ، ولم يكن لهم تأثير حضاري يذكر ، ولم يبق من لغاتهم سوى أسماء العلم وحدها في لغات المنطقة السامية ، أو ألفاظ جمعت في المعاجم اللغوية .

وقد مر أن شلما نصر الثالث قاد جيشاً آشورياً ليقضي على تحالف أمراء وحكام سورية في معركة قرقر عام ٨٥٣ ق.م ، وكان بين القادة السوريين أمير عربي هو جندب يقود جنوده الذين يمتطون الجمال. وهذا له دلالة واضحة على وجود العرب القديم ، الذين ذكروا بالاسم، في سورية حتى رأوا أن من واجبهم الوقوف مع جيرانهم من حكام سورية في وجه الأطماع الآشورية .

كما نخلص من هذا إلى أن الساميين كانوا يشتبكون مع بعضهم في صراعات حربية من اجل السيطرة على الحكم في مناطق الشرق القديم ، ولا يحاربون الدخلاء وحدهم ، ولا يرون غضاضة في تحالف بعضهم ضد بعض ما دامت مصلحة هؤلاء لا تتطابق مع مصلحة أولئك . وهذا يفسر لنا حقيقة لا ريب فيها ظهرت جلية وواضحة حيث جاء العرب المسلمون

إلى تلك البلاد بغية نشر الدين الإسلامي فما لبث أن وقف سكان البلاد جميعهم مع الجيش العربي الإسلامي في وجه حكام البلاد الدخلاء ، من فرس وبيزنطيين . فقد كان العنصر السامي المكون لسكان البلاد طاغياً على كل ما عداه ، بل كانت الصبغة السامية هي السائدة بلا منازع على مناطق بلاد الرافدين وسورية قبل الفتح العربي الإسلامي بقرون طويلة ، وكانت القبائل العربية تتجول في تلك المناطق بحرية تامة يتملكها الشعور بأنها ليست غريبة فيها . وكان للعرب دويلات كدولة الأنباط ، ودولة تدمر ، والحضر . وكانت الأسرة الحاكمة في الرها Odessa ، عاصمة السريان (الآراميين الساميين) الروحية عربية قبل ظهور دولتي المناذرة والغساسنة .

لم تكن اللغة وحدها العنصر الأساسي الذي كان يجمع بين الساميين ، بل يضاف إليه عنصر القرابة الجنسية ـــ العرقية التي تستند إلى الملامح الجسدية الظاهرة من شكل الرأس والأنف والحنك وطول القامة... كما نضيف إلى ذلك عنصر الديانة الهام بما يشتمل عليه من طقوس دينية وأسماء الآلهة ، مما ليس مجال تفصيله هنا ، على الرغم مما للعنصرين المذكورين من أهمية . وإن انتشار اللغات السامية في المناطق الممتدة من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام منذ ظهور الكتابة الموثق ، وقبل توسعها على يد الفينيقيين في شمال أفريقيا حيث أقاموا مستعمرتهم العظيمة قرطاجة في القرن التاسع قبل الميلاد ، ثم في زمن انتشار الإسلام على يد العرب بدءاً من القرن السابع الميلادي ، هذا الانتشار ، ونخص منه ما كان قبل الميلاد بالذات ، يجعلنا نعتقد أن الساميين كانوا يستوطنون هذه البقاع الشرقية جميعها : شبه الجزيرة العربية ، وبلاد الرافدين ، وبلاد الشام . وكانوا يتحركون داخلها كلما وجدوا حاجة إلى ذلك ، اضطرتهم ظروف المعيشة ، أو تحت ضغوط سياسية أو عسكرية ، داخلية كانت تلك الضغوط أم خارجية ، في شكل جماعات صغيرة ، أو في شكل هجرات قبلية كبيرة . فهي بقاع مألوفة لديهم من حيث طبيعتها الجغرافية التي تتميز بوجود الصحراء والبوادي في مركزها ، والسهول والجبال على أطرافها . إلا أن المناطق الشمالية تتصف بوجود الأنهار الكبيرة والأراضي الزراعية الخصبة التي كانت تجذب إليها الأعداد الغفيرة من

سكان شبه الجزيرة العربية ، كلما فاض سكانها عن قدرتها الاستيعابية . ولعله من المفيد أن نذكر هنا أن حدود شبه الجزيرة العربية عند بعض الجغرافيين العرب تصل إلى نهر الفرات في الشمال الشرقي ، إذ يعدون نهر الفرات لعظمه عندهم كالبحر المحيط بالبر ، فالفرات يشكل الحدود الشمالية الشرقية لشبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر والأبيض المتوسط الحدود الغربية ، لأن صحراء الشمال وبواديها لا تشكل في الواقع حدوداً طبيعية كالبحر في الشرق والجنوب والغرب .

وهذا يعني أن جزءاً كبيراً من بلاد الرافدين ، وهو جنوبي العراق ، وقسماً كبيراً من بلاد الشام ، بل كلها تدخل في مفهوم شبه جزيرة العرب الجغرافي .

وهناك من يرى أن المصريين يمتّون بصلة جنسية ولغوية إلى الساميين ، فهم من سلالة البحر المتوسط التي ينتمي إليها العرب وسكان جنوب غربي آسية بعامة . والتي تتميز باستطالة الرأس واعتدال القامة[٢٢] . ويؤكد ذلك الصلة الوثيقة بجنوب غربي آسية من حيث العلاقات السياسية والاقتصادية التي لم تنقطع يوماً . كما إن تاريخ مصر القديم يؤكد انتماءها إلى آسية الغربية أكثر من انتمائها إلى إفريقية .

وكذلك القرابة اللغوية بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية ، إذ يتضح للباحثين اللغويين أن المصرية القديمة تعرف صوتي الحلق العين والحاء (ع + ح) وصوت القاف أيضاً وهي أصوات لا ترد في غير اللغات السامية ، كما بينا من قبل ، ويشيع فيها المصدر الثلاثي للأفعال ، وتعرف تاء التأنيث ، وياء النسبة ، ونون الجمع ، وتهتم بالحروف الصامتة ،

---

(22) ـــ تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، المجلد الأول ، تأليف نخبة من العلماء . القاهرة (بلا تاريخ) ، ص٢٩ .
ويرى بعض الباحثين أن هجرة من غرب آسية جاءت إلى الدلتا المصرية واستقرت في شرقها بقيادة أوزيريس كانوا من الرعاة ، ورجال سلم ، في الزمن السابق للعصور التاريخية ، ما لبثوا أن صاروا ذوي نفوذ شمل مصر كلها في وقت لاحق . انظر : محمد أبو المحاسن عصفور ، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، بيروت ١٩٨١ ، ص ٧٧ .

ويتشابه عدد من ضمائرها مع الضمائر المعروفة في اللغات السامية ، وغير ذلك من تقارب في النحو والصرف لا يتأتى عادة إلا عن طريق وحدة أصولها اللغوية القديمة[٢٣] .

وقد أسهم في تأييد هذه القرابة اللغوية أن علماء اللغات حين صنفوا لغات البشر جعلوا اللغات السامية واللغات الحامية في مجموعة واحدة فقالوا "اللغات السامية ـــ الحامية" ، كما قالوا "اللغات الهندو ـــ أوروبية" مراعين درجة القرابة اللغوية والأصل القديم الواحد للغات التي تنتسب إلى كل مجموعة منها ، وجعلوا ما تبقى من اللغات في مجموعة ثالثة متنافرة الأصول والتركيب .

ونخلص أخيراً ، وبعد أن تأكدنا من أسباب الصلات القوية التي تربط بين من أصبحوا يعرفون اصطلاحاً بالشعوب السامية ، إلى أنهم كانوا يستوطنون بلاد الرافدين وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية ببقاعها المختلفة منذ ما قبل التاريخ أو في فجر التاريخ ، ولم يكونوا في منطقة شبه الجزيرة العربية وحدها ، ثم انطلقوا منها بموجات متتالية خلال أزمان متلاحقة ، كما يرى بعض الباحثين ، كانت أولاها هجرة الاكديين ، ثم العموريين والكنعانيين ، ثم هجرة الآراميين ... بل كانوا يتنقّلون في شمالي شبه الجزيرة، أي في بلاد الرافدين وبلاد الشام ، كما كانت القبائل العربية تفعل في الجاهلية في بقاع شبه الجزيرة العربية . ويلفت النظر أن الاتجاه كان من سورية إلى العراق أكثر ، بل أشد أثراً ووضوحاً ، ومثال العموريين ، الذين كان السومريون يسموهم مارتو Martu،والأكديون أمورو Amurru، (أموريين/عموريين) يؤكد ذلك ، وهم الذين كانوا يشكلون في سورية دويلات معاصرة للسومريين والأكديين ومن بعدهم البابليين (مثل ماري ويمحاض وقطنة) ، ثم انتزعوا الحكم في العراق نفسه في عصر الدولة البابلية القديمة التي اشتهر من ملوكها حمورابي ، صاحب التشريع المعروف ، الذي ينتمي وأسرته الحاكمة كلها إلى العموريين ، واسمه عمورابي يتركب في عنصره الأول (عمو ، وليس حمو) من اسم الإله الخاص بقبيلته ، وكذلك وصلت قبيلة الكلدانيين الآرامية إلى حكم

---

([23]) ـــ قصة الحضارة لمؤلفها ول ديورانت ٤٣/٢ ـــ ٤٤ . عبد العزيز صالح ، المصدر السابق ، ص٦ ـــ ٧ .

بابل بعد انتشار الآراميين في العراق قادمة من جهات سورية أيضاً ، وأسست الدولة البابلية الحديثة ، أو كما يسميها بعضهم الدولة الكلدانية ، في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، وكان نبوخذ نصر من أشهر ملوكها . كانت شبه الجزيرة العربية ترفد تلك القبائل بين حين وآخر بمستوطنين جدد ، مثلهم في ذلك مثل الأقوام الذين سموا أكديين وبابليين وآشوريين وآراميين، الذين كانوا يتنقّلون في الشمال ، كما كان العرب يتنقّلون في الجنوب . ثم ينتقلون إلى الهجرات الكبيرة عندما كانت الظروف تهيئ لهم ذلك .

فكانوا يتحركون على شكل جماعات صغيرة تتسلل بهدوء وسلام وتمتزج بسكان تلك المناطق ، أو على شكل هجرات كبيرة تستولي بالقوة وعنوة على الأراضي ، وتصل إلى الحكم في بعض من تلك المناطق إن تيسر لها ذلك ، وواتتها الظروف السياسية ثم تتوسع على حساب جيرانها ، كما رأينا من مثال العموريين والآراميين ، ثم من مثال دولتي المناذرة والغساسنة العربيتين .

ونخلص كذلك إلى أن الساميين كانوا يتحدثون لغات شديدة القرابة من بعضها ، قرابة نستدل منها على أنها تعود إلى أصل واحد ، وهذا الأصل اللغوي الواحد ، هو السبب الرئيسي الذي يحمل على الاعتقاد بالأصل الواحد لأصحاب هذه اللغات . مع أن علماء اللغات، ومنهم بعض علماء اللغة العرب القدامى، يرى أن اللغات (أو اللهجات) تكون متعددة ومختلفة في البداية، ثم تتوحد، بعد أن تتقارب مع بعضها وتقلل من الفروق التي تجعلها مختلفة عن بعضها ، وليس العكس . أي أن اللغات قد تكون متباينة ومتعددة ثم تصبح واحدة، أو تسود لغة الشعب ، (أو القبيلة) الأقوى ويتضاءل شأن اللغات الأخرى التي تتقرب من اللغة السائدة ، ولغة القرآن الكريم خير مثال على ذلك ، إذ إنها لغة قبيلة قريش في معظمها ، واللغة العربية قبل الإسلام التي استخدموها في الأدب الذي كانت القبائل العربية كلها تفهمه ، وينظم شعراؤهم القصائد بها . أما اللغات الأخرى ، كلغة تميم ، ولغة طيء وغيرها من اللغات فكانت لها خصائصها التي يتحدث عنها أهل اللغة في مصنفاتهم الكثيرة . كما كانت لغة عرب اليمن تعرف لهجات مختلفة ، ولكن اللغة السبئية ، أو الحميرية (كما

سميت في أطوارها الأخيرة) كانت الغالبة . ثم ما لبثت هي الأخرى أن تخلت للعربية الشمالية عن المكان بعد أن ظهر الإسلام وأصبحت لغة القرآن الكريم ، والعرب كلهم . ومازالت العربية الفصحى تربط بين الشعوب العربية وتؤلف بينهم ، كما يربط الإسلام بينها .

كما نخلص نتيجةً لما ذكرنا من أوجه القرابة إلى أن العرب ، عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين ، ساميون ، بل هم مثال للساميين ، لأن فيهم تتمثل كل صفات الساميين ، وسمات لغاتهم ، وعقائدهم القديمة ، وإن تأخرت أخبارهم المكتوبة . وربما حرياً بالباحث شلوتسر الذي ابتكر اصطلاح "السامية" و"الساميين" نسبة إلى سام بن نوح أن يختار اصطلاحاً آخر جامعاً لما كان يريد التعبير عنه ، يكون أقرب إلى "العربية" و"العرب" ، دون أن يفهم من ذلك أن الساميين كلهم عرب . ولكن ثقافة شلوتسر المسيحية والتي يستمد أصولها من التوراة اليهودية ، شأنه في ذلك شأن أغلبية المستشرقين الأوائل ، هي التي حملته على استنباط مصطلحه المعروف في أوساط المتخصصين ، حتى شاع وانتشر استخدامه ، برغم فساد أساسه ، كما بينا في البداية . ويرتبط اسم الساميين اليوم في أذهان الناس في كل مكان في العالم ، ولاسيما المثقفين منهم ، بأهم الإنجازات الحضارية التي قدموها للبشرية ، ولعل الكتابة الأبجدية التي اخترعها الفينيقيون في النصف الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد والتي عم استخدامها العالم تأتي في المقدمة ، وكذلك الديانات السماوية التي كان آخرها الدين الحنيف. والإنسانية مدينة للساميين وللشرق الأدنى الذي كان موطن الساميين لأنهم هم الذين شادوا صرح الحضارة ، التي تعد بحق أساساً للحضارة الأوروبية (والأمريكية) ، بينما أخذ الآريون عن الساميين ، وعن بابل السامية ، وعن مصر ، الحضارة ، و"لم ينشئ اليونان الحضارة إنشـــــاءً لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه" .. كما يقول ول ديورانت في "قصة الحضارة" (١٠/٢) .

# البابليون وحضارتهم

# البابليون وحضارتهم

تُطلَق تسمية البابليين نسبة إلى مدينة بابل على سكان بلاد ما بين النهرين الجنوبية ، كما يطلق على سكان القسم الشمالي منها اسم الآشوريين . والبابليون شعب أصيل في المشرق العربي يعود في أصوله إلى مجموعة من الشعوب اصطلح المؤرخون على تسميتها بالشعوب السامية ، وهي تلك الشعوب التي تنحدر من أصل واحد ، توزعت بمرور الزمن بين الجزيرة العربية ، وبلاد ما بين النهرين ، وسورية ، فاصطبغت حضارة هذه المناطق كلها بصبغة واحدة متميزة في سماتها الفريدة .

يبدأ تاريخ البابليين بظهور مدينة بابل في نهاية عصر سلالة أور الثالثة السومرية في بداية الألف الثاني ق.م وتستمر حتى سقوط المدينة بيد الفرس الأخمينيين في عام ٥٣٩ ق.م وينقسم هذا التاريخ إلى عدة عصور :

## ١. عصر الدولة البابلية القديمة (أو الأولى) :

ويبدأ بوصول سوموأبوم ، أحد زعماء القبائل البدوية الأمورية إلى حكم مدينة بابل وهي القبائل ، التي قدمت من الغرب من البادية السورية في بداية القرن التاسع عشر ، والتي دعاها السومريون باسم مارتو ، والأكديون أمورو أي ( القبائل البدوية القادمة من الغرب ) ، وقد تمكن هؤلاء الأموريون من إقامة عدد من الدول ودول المدن في بلاد ما بين النهرين وسورية . ونسبة إلى هذه الدولة سمي العصر بالعصر البابلي القديم الذي أمسى عنواناً لحضارة بلاد ما بين النهرين بكاملها ، إذ وصلت فيه الحضارة إلى قمة إنجازها ، ولا سيما في عهد أشهر ملوكها حمورابي ، صاحب التشريعات المعروفة باسمه . سادت اللغة البابلية بدءاً من هذا العصر ، وكتابتها المسمارية في كل أنحاء الشرق الأدنى القديم ، وأضحت لغة العالم القديم

الدبلوماسية والسياسية ، وانحسر تأثير اللغة السومرية ، وشارف على الانقراض كما انصهرت الفروق بين السومريين والساميين الذين كونوا مجتمعاً بابلياً واحداً .

واستمرت الدولة البابلية إلى ما بعد حمورابي (١٧٩٢ ـــ ١٧٥٠ ق.م) في تقدمها الحضاري حتى سقطت على يد ملك الحثيين مورشيلي الأول في عام (١٥٩٥ ق.م) .

عاصرت الأسرة الحاكمة في بابل الصراع بين المدينتين المتنافستين إيسين ولارسا ، وكان ملوكها يترقبون النتيجة ، ويتحسبون لها ، فعمل أولهم على تحصين بابل بسور جديد ، ثم قام بنشاط حربي مكنه من التوسع على حساب جيرانه . ثم تابع خليفته سومولائيل سياسته التوسعية فأخضع مدينة كيش وعدداً من المدن القريبة جنوبي بابل حتى وصل نفوذه إلى جوار مدينة نيبور بحيث استولى على أرض أكد بكاملها . وتم في عهد خليفته سابيوم (حوالي ١٨٤٤ ـــ ١٨٣١ ق.م) تشييد بناء معبد بابل المشهور إيسا جيلا الخاص بإله المدينة والدولة الرئيس " مردوك " . وقام ابنه بزيادة تحصينات العاصمة وبإقامة معبد للإلهة عشتار .

وعندما وصل " حمورابي " إلى الحكم ، وهو الملك السادس من ملوك الدولة البابلية ، كان ملك لارسا سين قد قضى على دولة إيسين حوالي عام (١٧٩٤ ق.م) ومد سيطرته على معظم المناطق الجنوبية من بلاد بابل Babylon ، وكانت تقوم في الشمال الشرقي دويلة إشنونا، وفي الشمال كان شمشي أدد الأول (١٨١٥ ـــ ١٧٨٢ق.م) يحكم أشور . فكان على حمورابي أن يحاول البقاء والاحتفاظ باستقلال بابل بين آشور القديمة في الشمال والشمال الغربي ولارسا في الجنوب . لكنه لم ينتظر المفاجآت ، بل عمد إلى اتّباع سياسة جريئة بدءاً من العام السادس لحكمه ، تمثلت في إقامة عدد من التحالفات المؤقتة مع جيرانه الواحد تلو الآخر حتى استطاع القضاء على أعدائه في الشرق والجنوب .

وكان حظه كبيراً إذ مات " شمشي أدد " الأول في العام (١٧٨٢ ق.م) بعد أن عاصره عشر سنوات ، فخف الضغط الخطير الذي كان يمثله الملك الآشوري القوي على حمورابي في الشمال ، لأن ابنه لم يكن ذلك الوريث الكفء الذي يستطيع أن يهدّد جاره في بابل ، إذ لم

يلبث أن تخلى عن المناطق المجاورة لبابل ، فأسرع حمورابي ليضع يده عليها . كما اعتلى عرش ماري زيمري ليم فعقد معه ومع ملك يمحاض " حلب " الأموري تحالفاً أفاد منه حمورابي في حروبه التوسعية حتى تمت له السيطرة على مناطق بلاد الرافدين جميعها ، ولم يتبق أمامه سوى ضم مملكة ماري إليها ، فهاجمها في عام (١٧٥٩ ق.م) وقضى على عرش حليفه المخلص زيمري ليم . وعندما ثار عليه أهل ماري بعد سنتين قمع تمردهم ودمر المدينة مثلما فعل بعدها بإشنونا حتى لا تقوم لهما قائمة . وبذلك استطاع حمورابي أن يوحد بلاد ما بين النهرين للمرة الثانية ، إذ كان شروكين الأكدي (سرجون ٢٣٤٠ ـــ ٢٢٨٤ ق.م) من قبل أول من وحد هذه المناطق وزاد عليها شمالي سورية وصولاً إلى البحر المتوسط . توالى بعد حمورابي عدد من الملوك الذين لم يكن لهم صيت ذائع أو دور بارز في تاريخ المملكة حتى سقطت على يد الحثيين عام (١٥٩٥ ق.م) غير أن الحثيين لم يبقوا في بابل لحكمها ، وإنما أفاد من سقوطها السريع الكاشيون .

## ٢. عصر الكاشيين :

وفد الكاشيون من المناطق الجبلية الشمالية الشرقية وتسللوا سلمياً إلى المدن البابلية الرئيسية ، وتسلموا مقاليد السلطة حين سقطت بابل بيد الحثيين الذين ما لبثوا أن انسحبوا منها.

واستمر الكاشيون في حكم البابليين حوالي خمسة قرون ، فعاصروا الآشوريين ، حكام الشمال الرافدي ، وفرضوا نفوذهم عليهم ردحاً من الزمن ، كما عاصروا دولة الحوريين ـــ الميتانيين ، والدولة المصرية الحديثة ، وأقاموا علاقات وثيقة مع ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وعاصروا الحثيين كذلك . وعدوا أنفسهم ملوك بابل الشرعيين ، واتخذوا ألقاب ملوكها . وعندما اختفت دولة الحوريين ـــ الميتانيين التي كان مركزها في منطقة الجزيرة العليا ( الجزيرة السورية، كما تسمى اليوم ) وتزايدت قوة الآشوريين في الشمال ، واستعادت عيلام عافيتها ،

وبدأت تتحرش بدولة الكاشيين من جديد ، غدت هذه الدولة محصورة بين عدوين قويين لا طاقة لها على الوقوف في وجههما ، وقد ساءت أحوالها الداخلية ، وحل فيها الضعف .

تجرأت عيلام على مهاجمة بابل ، لكن الملك الآشوري توكلتي نينورتا (١٢٤٤ ـــ ١٢٠٨ ق.م) كان أسبق في احتلال بابل والوصول إلى البحر الأسفل (الخليج العربي) .

وعندما مات الملك الآشوري استعاد البابليون استقلالهم الذي لم يطل كثيراً إذ كان العيلاميون ينتظرون فرصتهم للانقضاض على بابل والانتقام منها . فهاجمها الملك شوتروك ناخونتي حوالي ( ١١٦٠ ق.م ) فدمرها مع عدد من المدن الأخرى ، ونهب قصورها ومعابدها ، وحمل معه جملة من الغنائم النفيسة ذاتِ الدلالة التاريخية ، مثل مسلة الملك الأكدي ماينشتو سو ، ومسلة النصر لنرامسين ومسلة حمورابي التي دونت عليها شريعته .

استطاع البابليون مِنْ بَعْدُ انطلاقاً من مدينة إيسين التي قامت فيها أسرة بابلية حاكمة ، واشتهر من ملوكها نبوخذ نصر الأول (١١٢٤ ـــ ١١٠٣ ق.م)، استطاعوا طرد العيلاميين والانتقام منهم ، ومد نفوذهم السياسي إلى الآشوريين في الشمال الذين كانوا في إحدى حالات ضعفهم ، ولكن ما أن استعاد هؤلاء قوتهم حتى انقلبت الآية ، وخضع البابليون للآشوريين في الوقت الذي بدأت القبائل الآرامية تتدفق على البلاد ، وتنشئ الإمارات المحلية . وتفاقمت الأوضاع السياسية السيئة في البلاد حتى تدخل الملك الآشوري تيجلات بيليصر الثالث (٧٤٥ ـــ ٧٢٧ ق.م)، وفرض سيادته على بلاد بابل ، ولكن الأوضاع تردت بعد موته ثانية وقامت فيها أسرة حاكمة بزعامة آرامية . ثم عادت للخضوع مرة أخرى للسيادة الآشورية في عهد الأسرة السرجونية، سرجون الثاني وخلفائه سنحريب ، وأسرحدون ، وأشوربانيبال .

### ٣. العصر البابلي الحديث (أو الكلداني) :

أقام الكلدانيون ـــ وهم إحدى القبائل الآرامية ـــ في جنوبي العراق منذ أواخر العصر الكاشي ، وكونوا إمارات عدة ، كانت أكبرها إمارة بيت داكوري ، وبيت ياقين ، وبيت

أموكاني ، في المنطقة الواقعة إلى الشمال من الخليج العربي . وسيطرت قبائل آرامية أخرى على المنطقة الممتدة بين مدينة بابل وبورسيبا . وقد سعى ملوك الدولة الآشورية منذ أواخر القرن العاشر قبل الميلاد ، كما مر بنا ، إلى بسط السيادة الآشورية على القبائل الآرامية ، وإلى إضعافها وسحق قواها التي كانت تتمرد على الآشوريين ، كلما سنحت الفرصة ، وتتحالف مع ملوك بابل الذين كانوا يتطلعون إلى الانفصال عن آشور والاستقلال عن نفوذها . وظهر من بين الآراميين مردوك إبلا إدين الذي جلس على عرش بابل أكثر من مرة ، فجر عليه وعلى أهله عداوة البيت السرجوني حتى عهد الملك أشور بانيبال ، ثم أسس الحكم البابلي الجديد كلداني يدعى نابو بولاصر (٦٢٦ ـــ ٦٠٥ ق.م) .

وكان هذا حاكماً عيّنه الملك الآشوري على منطقة القطر البحري المتاخمة للخليج العربي، ثم ما لبث أن وسع منطقة نفوذه بعد موت آشور بانيبال باتجاه الشمال حتى وصل إلى مدينة نيبور .

وعندما لمس ضعف آشور تجرأ على دخول بابل وإعلان نفسه ملكاً عليها . وبعد عشر سنوات هاجم الآشوريين عند نهر الزاب الأسفل ودحرهم، ثم حاصر مدينة آشور في العام ( ٦١٦ ق.م) وارتد عنها . لكن ظهور الميديين (الإيرانيين)، ونمو قوتهم مكّنه وإياهم من القضاء على الآشوريين، وإسقاط عاصمتهم نينوى في العام (٦١٢ ق.م) .

وعندما انسحب من تبقى من الجيش الآشوري إلى حران تعقبه الجيش البابلي ومن معه من القوات المصرية التي وصلت لمؤازرة الآشوريين إلى حران . وتابع مطاردة المنسحبين إلى الفرات ، حتى تمت السيطرة الكاملة على سورية على يد ولي العهد نبوخذ نصر الثاني الذي كان يتمتع بحنكة عسكرية مكّنته من قهر الجيش المصري الذي أرسله الفرعون نيكاو الثاني إلى كركميش (جرابلس اليوم) للوقوف في وجه التوسع البابلي في عام (٦٠٥ ق.م) ، وهو العام الذي مات فيه نبوبولاصر ، وجلس فيه ابنه نبوخذ نصر الثاني على عرش بابل ، ولكن المصريين ـــ وإن تكبدوا خسائر جسيمة في معركة كركميش كلفتهم خسارة جيشهم بكامله ـــ لم يتوقفوا عن محاولة العودة إلى سورية التي يعدونها منطقة تخصهم .

فكانوا يستَعْدُون الحكام السوريين على البابليين ، ومن بينهم أمير عسقلان في فلسطين الذي عاقبه نبوخذ نصر ونهب مدينته عام (٦٠٤ ق.م ) .

ثم قرر بعد ثلاث سنوات مهاجمة مصر نفسها ، وخاض معركة ضارية مع جيشها تكبد خلالها الطرفان خسائر فادحة ، و لم تنجلِ المعركة عن نتيجة حاسمة لأحد من الطرفين . ثم عاد إلى فلسطين من جديد لمهاجمة القبائل البدوية التي كانت تتجاوب مع طلبات الفرعون .

وزاد شكه في نوايا مصر عندما تيقن من تفاهم جرى بينه وبين ملك يهوذا . فحاصر نبوخذ نصر أورشليم حتى سقطت بيده عام (٥٩٧ ق.م) . واقتاد معه إلى بابل حوالي (٣٠٠٠) يهودي أسرى ، وعين عليها صدقياً والياً . وكان ذلك عند اليهود ( السبي البابلي الأول ) عاد المصريون إلى فلسطين في عهد ملكهم الجديد ابريس ، فاحتل غزة ، وهاجم مدينتي صور وصيدا عن طريق البحر ، وحرض ملك أورشليم على العصيان . فلم يجد نبوخذ نصر بداً من المواجهة ، ووضع حد لتمادي اليهود وحلفائهم المصريين، فغزا أورشليم واقتحمها بعد أن حاصرها (١٨) شهراً في عام ٥٨٦/٥٨٧ ق.م ، ودمر هيكل سليمان ونقل خزائنه ، ونفى أربعين أو خمسين ألفاً من أهلها "لينوحوا عند مياه الفرات" بحسب قول كُتّاب العهد القديم .

وأطلق اليهود على هذا اسم ( السبي البابلي الثاني ) واعتبر كُتّاب أسفار العهد القديم ما حل باليهود عقاباً لهم على تماديهم على "عصيان الرب حتى ثار غضبه فأصعد عليهم الكلدانيين".

وبعدها أعاد المدن الفينيقية التي استغلت الأوضاع وأعلنت العصيان إلى حظيرة الدولة البابلية ، ولكن صور المنيعة استعصت عليه (١٣) عاماً حتى صالحته ورضيت بشروطه . وعمد إلى شق طريق مباشرة بين جبال لبنان وبابل لتيسير تحركات جيشه ونقل خشب الأرز منها .

كان الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني من الملوك القلائل الذين جمعوا بين الكفاءة الإدارية والبراعة في قيادة الجيش منذ كان ولياً للعهد . كما كان يتمتع بحس فني معماري رفيع .

ويشهد على ذلك إعادته مدينة بابل إلى مكانتها الرائدة في العالم القديم التي كانت قد وصلت إليها في عهد سميّه حمورابي قبل ماينوف على اثني عشر قرناً . فأمست أشهر مدن العالم نتيجة إنجازاته وما خلف فيها من المعالم الحضارية ، ما خلد اسمها ، ورفع من شأنها ، فمعظم ما تم الكشف عنه فيها منذ مطلع القرن العشرين الميلادي يرقى بتاريخه إلى عهد هذا الملك ، ومن ذلك أسوارها ، وجنائنها المعلقة التي عُدَّتْ من عجائب الدنيا السبع ، وبرج بابل المشهور ، وبوابة عشتار ، حتى قال عنها المؤرخ الإغريقي هيرودوت الذي زار خرائبها " إنها لا تضاهيها في عظمتها وسعتها مدينة أخرى " .

استغرق حكم نبوخذ نصر الثاني حوالي (٤٣) عاماً (٦٠٥ ـــ ٥٦٢ ق.م) وهي مدة تعادل قرابة نصف حكم الأسرة الكلدانية ، إذ خلفه على العرش ابن له لم يقسُ مثله على اليهود ـــ كما يذكر كتّاب العهد القديم ـــ بل سمح لهم بإقامة طقوسهم الدينية بحرية ، ثم توالى بعده اثنان من الملوك. وخلفهما الملك نابونيد (٥٥٥ ـــ ٥٣٩ ق.م) الذي وصل إلى الحكم عن طريق الانقلاب ، وكان خاتمة المطاف للسيادة البابلية في تاريخ المشرق العربي القديم .

كان نابونيد من كبار رجال الدولة في عهد نبوخذ نصر الثاني ، وكان يتميز بمحاباته لإله القمر ( سين ) الذي كانت والدته كاهنة له ، فغرست في نفسه تقديم عبادته على غيره من الآلهة ، ولاسيما رئيس الآلهة البابلية ( مردوك ) . فجر هذا عليه سخط الناس وكهنة مردوك . بدأ نابونيد حياته السياسية بالسير على خطى نبوخذ نصر في قيادة الجيش وتفقد أقاليم المملكة، ومطاردة القبائل العربية في شمال غربي الجزيرة العربية ، وعين ابنه نائباً له . فأساء الابن التصرف ولاسيما بتدخله في شؤون المعابد وأملاكها ، وعندما راق لنابونيد المكوث والإقامة في مدينة تيماء في شمال غربي الجزيرة العربية ، لأسباب مجهولة مدة تقارب عشر السنوات بعيداً عن العاصمة بابل تفاقمت الأمور في العاصمة سوءاً . ولعل نابونيد قصد من بقائه في شمال غربي الجزيرة العربية وضع يده على طريق التجارة الأساسي الذي يربط جنوبي شبه الجزيرة بسورية ومصر ، بعدما قلت أهمية الطريق الشرقي الذي كان يبدأ من

الخليج العربي وصولاً إلى بلاد ما بين النهرين وسورية ، لتعاظم قوة الفرس الأخمينيين ، جيرانهم في الشرق الذين باتوا على مقربة من هذا الطريق ، وصاروا قوة عظمى تتطلع إلى التوسع غرباً، ولخسارة مدينة أور، مرفأ الدولة الأساسي على الخليج العربي موقعها لبعدها عن مياه الخليج بسبب الطمي الذي تراكم بمرور الزمن ، فصارت السفن المحملة بالبضائع ترسو على الجهة الشرقية التابعة للفرس . فسعى إلى استراتيجية دفاعية تكفُل لمملكته الأمان بتوسيع المجال الدفاعي المحتمل في عمق الدولة. فترك ابنه ومعه الجيش بإمرته ، واحتفظ بقوات كبيرة تمركز بها في شمالي الجزيرة العربية بعد أن فرض سيادته على القبائل العربية. وعندما شعر نابونيد بالخطر الفارسي ، واحتمال غزو بابل ، عاد إلى العاصمة التي كان أهلها ساخطين عليه وعلى ابنه ، وكانت تعاني من أوضاع اقتصادية متردّية ومشاكل داخلية مضطربة ، بعد أن فات أوان الإصلاح . بل زاد على ذلك أن احتفل بتدشين معبد الآله سين في حران ، بعد أن نقل تمثاله مع زوجته في مهرجان مهيب ، مما زاد سخط الناس والكهنة عليه ، وسهّل على ملك الفرس قورش الثاني دخول البلاد في العام (٥٣٩ ق.م) من دون مقاومة ، إذ استقبله الأهالي بالترحيب وهللوا له ، وفي مقدمتهم كهنة مردوك ، فعين قورش ابنه قمبيز ملكاً على بابل .

لقد كانت الدولة البابلية الحديثة آخر دول بلاد ما بين النهرين الوطنية في تاريخ المشرق العربي القديم . وكان عصرها على قِصَره (٦٢٦ ـــ ٥٣٩ ق.م) من أزهى عصورها السياسية والحضارية . وإن انتهى دور بابل في التاريخ القديم في عام (٥٣٩ ق.م) دولة مستقلة ، وانتهى دور آشور في عام (٦١٢ ق.م) ، فإن زوال دورهما السياسي لم يستتبعه زوال تأثيرهما الحضاري في الشرق والغرب معاً .

### حضارتهم :

بلغت الحضارة البابلية من الشهرة في التاريخ ما جعلها تغدو عنواناً للحضارة الشرقية القديمة ، وممثلة لأرقى حضارات جنوب غربي آسية .

## النظام السياسي والإداري :

عرف البابليون نظام الحكم الملكي الوراثي، إذ كان يخلف الابن أباه في الحكم في العادة. وكان الملك يدعى في اللغة البابلية (شَرّو) ، ونادراً ما كان الملوك يمتلكون السيادة المطلقة ، على الرغم من ادعائهم أن الآلهة هي التي اختارتهم لحكم البلاد ، وفوضت إليهم التصرف في شؤون الرعية ، فلم يؤلهوا أنفسهم كما كان بعض الملوك الأكديين يفعلون مثل نرامسين وخلفائه ، وبعض ملوك سلالة أور السومرية الثالثة (بدءاً من شولجي) ، وبعض ملوك الكاشيين . فقد أبطل حمورابي هذه العادة ، لكنه لم يتمكن ، وكذلك خلفاؤه ، من وضع حد لانتشار أسماء شخصية تعبر عن هذه الظاهرة ، مثل اسم (حمورابي إيلي) ، أي "حمورابي هو إلهي" . وكان للملك أن يقرر للموظفين الكبار في القصر حدود المهام التي يوكلها إليهم . وأن يكلفهم بالعمل ضباطاً أيام الحرب . ولم يكن الملك يحمل ألقاباً فضفاضة مثل " ملك الجهات الأربع " التي كانت شائعة في المملكة الأكدية ، بل كانوا يكتفون بلقب " الملك الكبير ، الملك القوي" ، كما أطلق حمورابي على نفسه لقب "الراعي ، الوالد" .

وكان القصر الملكي يشكل المركز الإداري إلى جانب المعبد . وكان الوزير (سوكَّلّو) يساعد الملك ، والمحافظ (أو الحاكم الوالي) (ربيانوم) Rabianum ، أي الكبير ، يدير الأقاليم والمقاطعات باسم الملك .

ثم شاعت تسمية (خَزْيانُم/ خَزَنُّم) له ، وكانت توكل إليه وظائف وواجبات مهمة . وكان من الواجب على مختلف موظفي الإدارة أن يكونوا ضليعين في الكتابة ، ولذلك كثيراً ما كان يشار إليهم بصفة "الكتاب" (طُبْشَرّو) Tubsharru أيضاً ، مع إضافة مجال العمل الذين عينوا فيه . ومن أهم تلك المجالات : إدارة شؤون الزراعة الخاصة بالقصر والمعبد . كما كان يتوجب عليهم قياس الأراضي لأصحاب الأملاك الخاصة أو المزارعين المستأجرين ، ومراقبة شؤون تربية الحيوان والصيد . وكان ثمة موظفون مسؤولين عن الأعمال الخدمية العامة المختلفة ، ولاسيما تنظيم القنوات المائية الرئيسة وصيانتها ، وإقامة الحواجز والسدود

على الأنهار في الأماكن التي تحتاج إلى ذلك. أما أمر تحصيل الضرائب والرسوم المختلفة من التجار وأصحاب المهن المختلفة فكانت تقع على مسؤولية الجباة Makisu (ماكس) .

## الحياة الاقتصادية :

كانت بلاد بابل منبسطة حديثة التكوين من الناحية الجيولوجية لأنها ــ ولاسيما القسم الجنوبي منها ــ جزء من الخليج العربي ، ثم غمرتها الرواسب التي جلبها دجلة والفرات من المناطق الجبلية في الشمال . وهي تبدأ على وجه التقريب من المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة بغداد اليوم ، حيث يتقارب مجريا النهرين الكبيرين ، ثم يعودان ليبتعدا عن بعضهما ثانية ليحصرا بينهما منطقة بيضوية الشكل قبل أن يصبّا في الخليج العربي منفصلين في الأزمنة القديمة. وكان للنهرين فروع تنتشر في المنطقة تشكل شبكات طبيعية للري، وسبخات كثيرة ، وقد أفاد الإنسان من هذه البيئة ، فزرع الأرض ، وربّى الحيوانات وبنى المدن الكثيرة ، وشق الطرقات لتبادل البضائع ونقلها إلى البلاد المجاورة .

## الزراعة :

كانت الزراعة في بلاد بابل تتطلب رغم توافر المياه من نهري دجلة والفرات ، تتطلب عملاً مضنياً وتنظيماً دقيقاً ، ولكنها كانت تثمر غلالاً وفيرة، فكان من الضروري شق القنوات لإيصال المياه إلى الحقول. وكانت مسؤولية القنوات الرئيسة تلقى على كاهل الدولة. أما المزارعون فهم الذين يتولون القنوات الصغيرة الثانوية والعناية بها . واستعمل المزارعون البابليون المحراث والفأس والرفش البرونزي . وكانوا يُرَكّبون على محراث البذار ، الذي يشق الأرض قليلاً قمعاً لوضع البذار فيه . لتسقط في الخطوط التي يشقها المحراث في الأرض .

كان الحصاد يتم مرة واحدة في السنة عادة ، ثم تُقْلَب التربة بعد الحصاد ، وذلك في بداية فصل الصيف وخلال مدى زمني قصير يقع بين فترة فيضان المياه وتحويلها نحو الحقول ، وفترة تحول التربة الجافة إلى كتل قاسية . وكان المألوف أن تُبْذَر المحاصيل في أواخر الخريف ، وتحصد في نهاية الربيع . وكانت الغلال تُحْصَد بالمناجل . ويبدو أن البابليين كانوا يستخدمون

النورج . ثم يقومون بعملية التذرية ، وبعدها بتخزين المحصول في إهراءات قريبة من الحقول للإفادة منها، أو للبيع والتجارة بالفائض الذي كان يُكال ولا يوزن .

أما المحاصيل فكانت من القمح والشعير ، والعدس ، والحمص ، والكتان ، والسمسم ، والبازلياء والشوفان والدخن والجلبان . وكان الشعير واسمه (شيئو) She'u يحتل المقام الأول من حيث الاستخدام البشري . فكانوا يصنعون منه الخبز ، وأنواعاً من الأطعمة المهروسة والطحين والجعة (البيرة) .

واستخرج البابليون الزيت من السمسم لفقر بلادهم بأشجار الزيتون ، وصنعوا الأنسجة من الكتان . وكان ثمة بساتين متنوعة المساحات ضمن المدن وعند بواباتها الخارجية، وفي القرى ، تكثر فيها الأشجار وتُزْرع فيها الخضار .

وكانت أشجار النخيل من أكثر الأشجار أهمية ، وتحتاج إلى مياه كثيرة وتشكل واحدة من أهم المواد الغذائية ، طازجة أو مجففة ، ويُستحصل منها على الدبس . كما كان لأخشابها استخدامات مختلفة في مجال البناء رغم سوء نوعيتها ، كاستخدام سعف النخيل مع حزم من نبات الشوفان البري .

كما كانت أشجار الفاكهة المعروفة التين والرمان والتفاح ، وأقل منها الأجاص والسفرجل ، ولم تكن الحمضيات معروفة في بابل . وكثيراً ما استخدم البابليون النباتات والأعشاب للتداوي .

و إلى جانب الزراعة كانت تربية الحيوان شائعة عند البابليين . فكان الكلب من أقدم الحيوانات المنزلية لكثرة فوائده : في حماية القطعان والمنازل من الأعداء ، وفي الصيد . وكانت للكلاب تسميات تميز الكلب الحارس من الكلب الخاص بالصيد. كما اعتنى البابليون بتربية القطط المنزلية بهدف صيد الفئران والجرذان . واستعان البابليون بالحمار الذي يُعَدّ من أول ما دُجِّن من الحيوانات ، واستخدم في المجالات الزراعية وفي النقل. وورد ذكر البغل أيضاً في الكتابات البابلية ، أما الحصان فقد تأخر ظهوره في بلاد بابل ، ومثله الجمل .

كما اعتنى البابليون بتربية البقر والغنم والماعز والخنزير . ونجد في المشاهد التصويرية رسوماً كثيرة للثيران ، وكان الثور رمزاً لإله القمر ، ونلاحظ أن الملوك كانوا يلقبون أنفسهم باللقب الإلهي "الثور" إشارة إلى القوة . كما كان راعي الأغنام النموذج الحقيقي للرعاة، ولقب "الراعي" اتخذه كثير من الملوك لأنفسهم .

وأكثر الحيوانات التي كانت تُقدَّم كأضاحٍ في المناسبات الدينية كانت الأغنام التي كانت وحدها تُستَخدم كذلك كوسيلة للتنبؤات المستقبلية ولاسيما كبدها . كما كانت حيوانات مقدسة تخص الإله عشتار .

وإلى جانب الدواب كان البابليون يعنون بتربية الطيور مثل الإوز والبط للإفادة من لحمها وبيضها ، وكذلك الدجاج والنعام والحمام .

**المهن والحرف :**

أطلق البابليون ، ومعهم الآشوريون والأكديون من قبلهم لفظة Ummanutu (أومّانوتو) على الحِرَف اليدوية ، ولفظة أومّيا / أومّانو على معلم الحرفة . وكان الغزل والنسيج ، والخياطة والتطريز من أهم الحرف التي اختصت بها النساء .

فكن يتولّين تمشيط الصوف لتنظيفه ثم غزله بالمغزل ، ويتولين مهمة خياطة الملبوسات . وثمة شواهد تشير إلى صنع أثواب ثمينة للملوك وكبار الكهنة وغيرهم ، تنم عن مهارة عالية في حرفة الخياطة . وتذكر نصوص بابلية متأخرة خياطين اختصوا في خياطة أثواب الحداد (شَقّايا) .

وكانت مادة الخياطة والنسيج الصوف والكتان . وقد عرف البابليون ، مثل خلفائهم ، الأقمشة الملونة وصباغتها بوساطة الشب والقرمز، وغيرها من المواد التي يصعب تحديدها تماماً، حتى اختص بعضهم بعملية تلوين الأقمشة وتبييضها . ويبدو أن الغسالين والغسالات كانوا يُعَدّون أيضاً من الحرفيين ، ويُدْعَوْن (أشلاكو) ، بمعنى القصّارين .

وقد شاع استخدام الأنوال في النسيج ، إذ تذكر القوائم المعجمية بعضاً من أجزائها . وكان ثمة حرف أخرى متميزة كحرفة صانعي الأكياس والسجاد . وتعد نصوص ماري البابلية القديمة ونصوص نوزي أغنى النصوص من حيث المعلومات المتصلة بصناعة السجاد . ويبدو أن صناعة المنسوجات كانت تشكل مجال عمل لكثير من الناس في كل العصور ، ومن ثمة مجالاً اقتصادياً ذا أهمية متميزة .

ولا شك في أن فراء الحيوانات المختلفة كان يوفر أقدم الثياب للإنسان ، وقد استُخْدِم بعضُها في صنع الأحذية . واستُخْلِص الجلد منه بعد دباغته ونزع الشعر منه بوساطة التفاح الحامض ، وقشور الشجر والشب وغيرها من المواد . ومن أكثر الحيوانات التي استفاد الناس من جلودها البقر ، والماعز . وكان للجلد استخدام قليل للكتابة عليه .

وكان القصب الذي ينمو بكثرة على طول نهري الفرات ودجلة ، وفي السبخات يُسْتَخدَم في صناعة السلال وأعواد السهام والرماح ، وفي بناء القوارب والمراكب النهرية ، وصناعة الأبواب البسيطة والأثاث المنزلي ، وفي بناء الأكواخ وتغطية أرضيات المنازل والحظائر في الريف ، وكانت طبقات من الحصر القصبية تستخدم في بناء الأبنية الضخمة كالمعابد البرجية (الزقورة) ، حيث كانت توضع بين طبقات اللبن بفواصل متفاوتة البعد .

كانت الأخشاب قليلة في بلاد بابل ، لذلك نجد البابليين كالمصريين يحاولون الوصول إلى الجبال المحاذية لشرقي البحر المتوسط لجلب الأخشاب الجيدة منها . وتذكر المعاجم البابلية عدداً كبيراً من الأدوات الخشبية التي كان البابليون يستخدمونها في الأعمال المختلفة ، وفي صنع الأثاث المنزلي ، وكان للنجار Nangar Naggaru دور كبير في بناء البيوت والمعابد والقصور ، والمراكب النهرية والعربات ذات العجلات الخشبية .

وكانت حرفة الفخّار شائعة لدى البابليين ، لأهمية صناعة اللبن في البناء ، وفي عمل الألواح الطينية (الرُّقم) للكتابة عليها ، وفي صناعة الأواني والدمى والأعمال الفنية الأخرى .

وكذلك الحجّار الذي كان بحاجة إلى الأحجار والصخور التي كانت تُجْلَب من المناطق الجبلية من زاغروس وإيران وآسية الصغرى ، وسورية ، للبناء وصنع الأدوات الحجرية ، وفي النحت الفني .

أما الحرف المعدنية فكان العامل فيها يُذكَر في النصوص بلفظة نَفّاخوNappakhu أي " الحداد " ، نفاخ الكور الخاص بصهر المعادن . وكان النحاس والبرونز من أكثر المعادن استخداماً . وكان لديهم اختصاصيون بخلط النحاس بنسب محددة مع القصدير للحصول على البرونز الذي كان يُسْتَخدم كثيراً في صناعة الأسلحة ، وفي صناعة الأدوات . وإلى جانب النحاس والبرونز كان مُصَنِّع (حدّاد) الذهب يُذكر كذلك ، وهو صائغ الذهب والأدوات الثمينة من الفضة والمعادن الأخرى .

**التجارة :**

وتعني بمعناها الواسع مبادلةً للبضائع بشتى أنواعها ، ومن بينها البشر (العبيد) والعقارات، سواء على المستوى المحلي ، أو الخارجي عبر مسافات بعيدة . ثمة نصوص اتفاقات تجارية ، وقوائم جرد للبضائع ، ومراسلات تجارية وصلتنا منها آلاف من بلاد بابل .

وكانت معظم النصوص التجارية تُوَثَّق . وقد شاع في بلاد بابل الفقيرة بالمعادن اعتماد الحبوب بخاصة مادة للمقايضة ، كما شاع استخدام الأغنام وسيلة لتقدير ثمن البضائع أيضا . ثم حلت المعادن ، ولاسيما النحاس والفضة محل المقايضة ، وكان يتوجب على المشتري أن يزن القطع المعدنية أمام البائع .

ولم تعد الدولة ، ولاسيما في عصر حمورابي ، تنفرد في السيطرة على التجارة ، بل صار للمواطنين دور فعال في التجارة الخارجية بخاصة . ولكن الدولة كانت تعقد الاتفاقيات التجارية مع جيرانها ، وتحرص على فتح الطرق وحمايتها والسيطرة غليها ، وتسيير القوافل التجارية التي تعتمد الحمير وسيلة للانتقال .

وكانت هذه تلتزم بالسير في طرق معينة رئيسة . وكان التاجر (تمكارو) Tamkaru يقوم بدور رئيس في بلاد بابل وفي المجتمع البابلي : مشترياً وبائعاً بالجملة والمفرق ، مُموّلاً ومستثمراً وبديلاً عن المصارف .

أما البضائع التي كانت تُصدَّر من بلاد بابل فهي الحبوب بأنواعها ، والتمور والأدوات المصنعة والمنسوجات . وكانت تستورد المواد المعدنية الخام من إيران وسورية وآسية الصغرى ، وزيت الزيتون والنبيذ والأخشاب من سورية . كما كانت تجارة العبيد رائجة عند البابليين وكان معظمهم من إيران في عصر حمورابي .

**الحياة الاجتماعية :**

كانت الأسرة في كل أرجاء المشرق العربي القديم مبنية على سلطة الأب ، ولكن حقوق الأب ــ بصفته سيد الأسرة ــ لم تكن مطلقة . ولم يكن تعدد الزوجات مقبولاً ولا مسموحاً به إلا في الحالات النادرة ، ولاسيما إذا كانت المرأة عاقراً، أو تعاني من مرض عضال . وعلى الزوج أن ينفق عليها إذا أرادت البقاء عنده ، وإلا فعليه أن يدفع بائنتها كاملة، وإذا كانت ذات ولد كان على الزوج أن يدفع لها كذلك نصف أملاكه .

وكانت الزوجة تتمتع بمكانة اجتماعية مساوية للرجل ، وتحظى بحق العمل ، ولكن بعد أخذ موافقته. وكانت تدير عند غيابه المحلات التجارية . أما المرأة التي تصر على الانفصال عن زوجها فكانت تعرض نفسها لعقوبات شديدة وكان الأولاد الذكور مفضلين على الإناث، وللبكر مزايا خاصة ، وكان نظام التبني واسع النطاق عند البابليين .

**أما طبقات المجتمع البابلي فكانت ثلاث :**

١. الأحرار : وهم مواطنو المدن والفلاحون والرعاة .

٢. طبقة (الموشكينو) Mushkenu : وهؤلاء يمثلون الطبقة الوسطى ، وهم أقرب إلى طبقة الأحـــرار من الناحية الاجتماعية ، وأشبه بوضع الموالي في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام عند العرب .

٣. طبقة العبيد : وهؤلاء يخصون دائماً أفراداً معينين أو المعابد . ويبدو أن العبيد لم يكونوا يخضعون دائماً لسادهم من دون حقوق معينة . فقد كان للعبد أن يمارس التجارة بموافقة سيده له علامة وهي حلاقة نصف الرأس حتى لا يهرب ، وإذا هرب تَوجّب على الموظفين القبض عليه وإعادته إلى مالكه . ويعود أصل الكثيرين من العبيد إلى أسرى الحروب وسباياها . وكان بإمكان العبد أن يعتق نفسه ، وقد يتبناه أحدهم ، وكانت معاملتهم مقبولة ، ويُعَدّون أفراداً تابعين للتجمع المترلي .

ولم يكن المجتمع الشرقي القديم بعامة حتى في المدن الكبيرة مستقراً تماماً ، فمع وجود الأسرة ، كان ثمة الأسرة الكبيرة ، أو العشيرة التي كانت تعيش في المدينة والقرية ، وتجاور البدو والرعاة . وقد نجح عدد كبير من هؤلاء في تطوير أنفسهم وصاروا جنوداً وضابطاً ، والارتقاء إلى منصب الحاكم أو الملك ، وتأسيس أسر حاكمة ، كما كانت حال مؤسس السلالة الحاكمة البابلية الأولى التي كانت في الأصل مجموعة من القبائل الأمورية البدوية ، ثم مؤسس السلالة الحاكمة البابلية الحديثة ذي الأصل البدوي الآرامي (الكلداني) .

**الديانة :**

كان البابليون كغيرهم من شعوب المشرق العربي القديم وثنيين ، لهم آلهتهم الخاصة ، ويرأسها إله مدينة بابل مردوك الذي كان الإله الخالق ، الحامي للأفراد ، وإله الحرب كذلك ، وهو ــ باعتقادهم ــ ابن الإله إيا (إله الحكمة) .

وله ابن يدعى نبو الذي اعتبروه حامي الكتبة والمتعلمين . وكانت الإلهة عشتار (إلهة كوكب الزهرة) إلهة الخصب والحرب معاً .

وإله القمر عندهم كان يدعى سين ، أما إله الشمس فكان اسمه شمش ، وهو إله الحق والعدالة ونستدل من ذلك أن آلهتهم في معظمها كانت ذات علاقة بالكواكب والنجوم . وكان البابليون يحتفظون كغيرهم من شعوب بلاد ما بين النهرين بعبادة الآلهة السومرية ،

ويوجدون لها أسماء بلغتهم البابلية ، أو ما يماثلها من آلهتهم ، وكان ذلك نتيجة اختلاط الساميين بالسومريين في جنوبي بلاد ما بين النهرين . وكان لكثير من الآلهة مدينة رئيسة ، فيها يقوم المعبد الرئيس لعبادة الإله ، ولكن عبادته تنتشر في كل المدن وأرجاء الدولة ، فرئيس مجمع الآلهة (السومرية ـــ البابلية ) آن كان مركز عبادته في مدينة أوروك (الوركاء اليوم) ، أما مقره فكانت السماء . والإله (السومري) انليل كان معبده الرئيس في مدينة إريدو . ولعشتار معبد رئيس في مدينة أوروك أيضاً . والإله نبو في مدينة بورسيبا.

لقد سهلت المماثلة بين آلهة البابليين وآلهة السومريين بعامة في تناقص أعداد الآلهة وأدت إلى تحول آلهة كثيرة إلى أشكال افتراضية مجردة ، ولكنها حافظت في الوقت نفسه على التقاليد الشائعة مع إضفاء تصورات جديدة عليها . ومن أهم الحقائق الراسخة في أذهان البابليين حقيقة أن الإنسان رغم كل محاولاته لا يستطيع إيجاد السبيل القويم لسلوكه على إرادته الذاتية، وأن الإله حر في معاقبته أو الصفح عنه . أما تحديد الإثم فكان يتم غالباً وفق معايير محددة موضوعة ، وظلت تقتصر زمناً طويلاً على وجوب اتّباع السلوك الصحيح تجاه الآلهة والتمسك بالمثل الخلقية البشرية الأساسية . أما الآلهة فلم تكن تغفر الخطايا دائماً ، بل كانت تعاقب أيضاً . وكانت القناعة الشائعة هي أنه توجد علاقة تناسب بين شقاء الفرد البشري وحجم خطيئته ولكن غالباً ما كان يُقّر في الوقت نفسه بأن هذا لا ينفي تمتع الأشرار بحياة أفضل من ذوي الصلاح والاستقامة أحياناً ، وأن مصير الإنسان إلى العالم السفلي لا خلاص منه .

كان عيد رأس السنة أكيتو ( Akitu ) أهم الأعياد البابلية ، وتمتد الاحتفالات به عدة أيام، ويتم في الأصل في الخريف ، ثم تحول إلى الربيع . وكانت تُنْقَل فيه تماثيل الآلهة في موكب مهيب إلى بيت خاص بالاحتفال يقع عادة خارج نطاق سور المدينة . وجرت العادة أن تتلى صلوات وأناشيد على شرف الإله مردوك الذي كان معبده البرجي (زقورته) في مدينة بابل أضخم نماذج تلك المعابد .

**القوانين والشرائع :**

كانت كلمة (دين) في الأكدية (البابلية) تعني "مسألة قانونية"، حكم قانوني و(القاضي) يدعى ( ديَّان ) ، والمسؤول عن حماية القانون والعدالة جميع الآلهة ، وفي مقدمتها إله الشمس (شَمَشْ) الذي يوصف بأنه يرى كل شيء . أما الذي يتولى مسؤولية تطبيق القانون على الأرض فكان الملك ، وهو القاضي الأكبر .

وعرفت بلاد بابل تشريعات سومرية تعود أقدمها إلى الملك أورْنَمّو (٢١١١ ــ ١١٩٤ ق.م) ، ثم تبعتها تشريعات الملك لبيت عشتار ، ملك إيسين (١٩٣٤ ــ ١٩٢٤ق.م.) . ثم أصدر ملك إشنونا بعدها تشريعاً كتب باللغة البابلية .

أما أبرز تلك الشرائع فكان **قانون حمورابي** الذي يبزُّ التشريعات جميعها حتى الآن ، وهو الوحيد الذي وصلنا نصه الأصلي مدوناً على نصب حجري إضافة إلى كسر كثيرة وجدت في بابل ، وتعود إلى زمن معاصر أو تالٍ له ، وأخرى من بلاد آشور .

ويشتمل القانون على حوالي (٢٠٠) مادة قانونية . ويبدو الشق الجزائي منه أقسى من التشريعات السابقة بكثير ، مثل الإعدام ، وتشويه أعضاء الجسد وفاق مبدأ القصاص "العين بالعين ، والسن بالسن " . ولعل سبب غلبة التشديد على الإجراءات والغرامات المالية هو إيمان حمورابي بعدم كفاية القوانين الجزائية السابقة لردع الجريمة ومحاربتها في مملكته التي اتسعت بعد حملاته المكثفة .

واشتملت مواد القانون على أحكام راقية يقبلها المنطق في كل عصر ، وأحكام أخرى يصعب على المرء قبولها إلا بمنطق العصر الذي ظهرت فيه . كما أن مبدأ القصاص كان يطبق على أفراد الطبقة الواحدة من المجتمع ، ولمصلحة الطبقة العليا .

بينما قضت مواد القانون بالتعويض المادي وحده جزاء لاعتداء أحد أفراد الطبقة العليا على فرد من طبقة أخرى أقل منزلة من طبقته . ولا يعلم إلى أي مدى كانت تلك التشريعات تنفذ .

ويؤكد الملك على القضاة ضرورة الاهتمام بالتحقيقات والمحاكمات وبشهادة الشهود . وقد تكلفهم قلة الاهتمام وتغيير الأحكام خسارة مركزهم ودفع غرامة مالية ضخمة . وتعالج مواد القانون أموراً كثيرة تتعلق بشؤون الأسرة والعبيد والأراضي والتجارة .

وقد صدرت من بعد قانون حمورابي ثلاثة مراسيم تتضمن قرارات جزائية تتعلق بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، واحد في عهد ابنه سمسو إيلونا ، والثاني في عهد أمّي صدوقا ، رابع خلفاء حمورابي ، والثالث في عهد أحد خلفائه .

**اللغة والآداب :**

تنتمي لغة البابليين إلى مجموعة اللغات السامية ، كما اصطلح المستشرقون على تسمية لغات شعوب منطقة جنوب غربي آسية : العرب والآراميون والكنعانيون والأكديون . واللغة البابلية ومعها اللغة الآشورية فرعان من اللغة الأكدية التي سادت في بلاد ما بين النهرين قبل ظهور المملكة البابلية القديمة والمملكة الآشورية القديمة .

واستطاعت اللغة البابلية التي وصلت في عهد الملك حمورابي إلى مرحلة النضج والكمال الذي يتجلى في قانون حمورابي ، أن تسود عالم الشرق القديم ، وتغدو لغة الوثائق السياسية والاقتصادية في تلك المناطق حوالي ألف عام ، إلى أن حلت محلها اللغة الآرامية الشقيقة .

أما كتابتها فكانت بالخط المسماري المقطعي الذي طورته ليخدم أغراضها المختلفة ويعبر عن مكنوناتها .

وصيغت الأعمال الأدبية عند البابليين ، عدا النقوش الملكية ، في الغالب بتراكيب محكمة ومترابطة ، يصعب من خلالها التمييز بين النثر والشعر . ولاشك في أن الأساطير والملاحم البابلية ذات طابع شعري .

كان الأدب في العصر البابلي القديم استمراراً للأعمال الأدبية السومرية ذات التأثير الكبير في أدب بلاد ما بين النهرين بعامة ، ثم ما لبث أن تحرر من التقليد إلى الإبداع إذ ظهرت أعمال أدبية عكست التطورات المعيشية ، ونُضجَ اللغة التي باتت تهتم بالأسلوب الفني

والجمالي . وكانت الأسطورة مجالاً لاستيحاء إجابات عن تساؤلات كانت تراود مخيلة البابليين عن العالم الذي يعيشونه ، وعن مسائل مثل الخلق ، والموت ، والخلود ، والخطيئة والعقاب .

وكان من أبرز الأساطير ( أترخسيس ) في القرن الثامن عشر التي كان من أبرز موضوعاتها خلق الإنسان وصراع الآلهة ، والطوفان ، والعقاب الإلهي . وقد أعيدت صياغتها في العصور اللاحقة مرات عدة . وملحمة جلجامش التي تدور حول فكرة الحصول على الخلود والشباب الدائم . وأسطورة ( أدبا ) الذي يضيع على نفسه فرصة الخلود . وأسطورة ( إتانا ) ، أول ملوك مدينة كيش بعد الطوفان ، الذي يشغله الحصول على من يرثه .

وأسطورة نزول عشتار إلى العالم السفلي الذي لا رجعة منه ، ولكنها تعود بمساعدة الإله ( إيا ) الذي يعيد إليها الحياة ، ويقدم الإله دموزي (تموز) فدية لها ، فيرسل بدلاً منها ، ويتناوب في العالم السفلي كل ستة أشهر ، ويغيب معه الخصب والخضرة مؤقتاً رمزاً لتبدل فصول السنة .

ثم تظهر أسطورة بابلية إبداعية في القرن الثامن قبل الميلاد هي أسطورة (إرّا) إله الطاعون والدمار الذي يتخلى له الإله الوطني مردوك عن العرش مؤقتاً ليقود حرباً لإخضاع البشر الذين ما عادوا يتركون للآلهة للراحة لكنه ينجح في النهاية في تحقيق الاستقرار للبلاد وتصحيح الأوضاع ويندم على فعله الدموي ، ويقنعه وزيره بتوجيه ضرباته إلى أعداء البابليين كالآشوريين والعيلاميين .

ومن الأعمال المهمة أسطورة الخلق البابلية التي تعرف بمطلعها (إنوما إيليش) أي "عندما هناك في الأعالي " وتتناول الموضوع القديم برؤية جديدة لتكريس مكانة الإله مردوك رئيساً لمجمع الآلهة الرافدي .

وظهرت كذلك قصيدة "لأمُجدَنَّ سيد الحكمة" التي تعبر عن يأس الإنسان البابلي في العصر الكاشي وتشككه في العدالة الإلهية لكثرة المصائب التي حلت به. وتُقرَن هذه بسفر أيوب في كتاب العهد القديم .

وعرف البابليون أدب الحكمة الذي يضع في أولوياته أهدافاً أخلاقية ـــ تربوية كالأمثال المنظومة شعراً ، والمواعظ ، والقصص الديني ، حكايات الحيوان ، والمناظرات أو المحاورات التي تجري على ألسنة الحيوانات ، وبين النبات ، وبين الناس حول موضوعات متنوعة كالعدالة الإلهية، والحب . وألف الكُتّاب تراتيل دينية وابتهالات إلى الآلهة ، وحكايات فكاهية ساخرة، ومنها حكاية الفقير الذي أهدى الحاكم نعجته وهي كل ما يملك ، علّه يفوز عنده بما يحسِّن حاله ، ولكن لم يجد عنده سوى الازدراء . فأقسم لينتقمنّ منه ثلاث مرات . ونجح في ذلك بسعة حيلته وذكائه . ولاشك في أن الحكاية رمز لحلم الفقراء بالانتقام من الأغنياء المتسلطين على قدرهم .

## الفنون والآثار :

حظيت المعابد لدى البابليين باهتمام أكثر من القصور ، لكثرة آلهتهم وتعددها . فكان ثمة معابد كبرى للآلهة الوطنية ، وصغيرة للآلهة المحلية وذات الوظائف المحدودة ، وكان للإله تمثال في المعبد ، وحرم ، لا يسمح إلا للقليل من الأفراد بالمثول أمامه والدخول إليه . ويبدو أن المعابد كانت تفتقر في داخلها إلى التشكيلات الصورية لان بلاد بابل لم تكن تمتلك الحجارة اللازمة لذلك .

وكان أبرز أشكال المعابد هو المعبد البرجي ( الزقورة )، كما يدعى بالبابلية ، الذي أخذه البابليون عن السومريين . ويُعَدّ برج بابل المشهور خير نموذج عنه . وثمة نماذج قليلة من الرسوم التي تمت على الطين أو الجص بأسلوب الفريسكو على جدران القصور . لعل قصر ماري (تل الحريري) المشهور يُعَدّ مثالاً على ذلك ، إذ إنه ينتمي إلى العصر البابلي القديم .

وقد ظهرت بين الأشكال رسوم نباتية وحيوانية وبشرية ، ذات ألوان براقة ومتناسقة ، مستمدة من عالم الأساطير الأمورية . وكانت التماثيل البابلية التي تم العثور على عدد منها في عاصمة العيلاميين سوسة ، وهي التمثاثيل التي حملها هؤلاء إلى بلدهم مع ما نهبوه من العاصمة البابلية في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ، كانت صغيرة في الغالب ، قياساً على تماثيل جيرانهم الآشوريين ، ومصنوعة من حجر الديوريت أو الحجر الكلسي .

وكانت تمثل شخصيات الملوك في وضعية الجلوس على هيئة المصلين ، أو الوقوف بطريقة لا تختلف كثيراً عن تماثيل العصر السومري الحديث السابق . وبرع البابليون القدماء في فن صناعة المسلات ، ولكن لم يبق منها سوى مسلة حمورابي المشهورة ، إذا تعرضت الأعمال الفنية ، كما تعرضت المدن البابلية إما للدمار بسبب الحروب الكثيرة ، أو لعوامل الطبيعة ، وفي مقدمتها رطوبة الأرض الزائدة . وانتشرت صناعة الأختام الأسطوانية في العصر البابلي القديم بكثرة نتيجة لبروز دور الفرد في الاقتصاد ولاسيما في عهد حمورابي . فظهرت أشكال متعددة من مواد التصوير التي تمثل الآلهة والبشر والحيوانات وكانت هذه تُنْقَش بشكل مقلوب ، وعندما تُمَرّر على الطين الطري تظهر في هيئتها الطبيعية بارزة في الغالب. ويعود إلى عصر الكاشيين فن أحجار الحدود (كودورّو) التي كانت تتضمن صوراً منقوشة أيضاً إضافة إلى الكتابات . وقد ذكرنا في سياق حديثنا عن العصر البابلي الحديث نبذة عن الفنون فيه .

وكانت الموسيقا مألوفة لدى البابليين . ويُعْتَقد أن المغنين (والمغنيات) كان عليهم أن يؤدّوا الأغاني المفرحة كما يؤدون الأغاني الحزينة ، وكان ذلك يتم في الغالب بمرافقة الآلات الموسيقية . وقد عرف البابليون من الآلات الموسيقية الوترية اللير Lyre ذات الشكل المربع ، وآلة الهارب Harp التي تمتد أوتارها بشكل مائل . كما عرفوا المزمار الفردي والمزدوج والبوق، والطبل ، وغيرها من الآلات التي يصعب التعرف عليها.

**مراجع للاستزادة :**


١. أحمد ارحيم هبو ، تاريخ الشرق القديم (٢) بلاد ما بين النهرين (العراق) ، صنعاء ، وبيروت ١٩٩٦ .

٢. توفيق سليمان ، العراق في التاريخ القديم ، الموصل ١٩٩٢ .

٣. طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الأول: الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين بغداد وبيروت ١٩٧٣.

٤. عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ، القاهرة ١٩٩٠ .

1. Amiet. P., Die Kunst des Alten Orients. Freiburg 1970.
2. Klengel, H., Kultur geschichte des Alten Vorderasiens, Akademie Verlag, Berlin 1989.
3. Labat, u. a, Les religions du Proche- Orient. Textes et Traditions sacrées. 1970.
4. Lambert, L., Babylonian Wisdom literature, Oxford 1960.
5. Moorgat, A., The Art of Ancien Mesopotamia, London 1969.
6. Von Soden, W., Einfüahrung in die Altorientalistik, Darmstadt, 1985.

# حمورابي بابل

# حمورابي بابل

ينتسب حمورابي Hammurapi ( ١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق.م ) إلى أسرة حاكمة أمورية حكمت بابل منذ بداية القرن التاسع عشر قبل الميلاد وحتى حوالي عام ١٥٩٥ ق.م . وكان حمورابي السادس في ترتيب ملوك المملكة البابلية القديمة ، ولكنه كان أشهرهم لأسباب عدة ، وفي مقدمتها أنه أقام دولة مترامية الأطراف ، ضمت مناطق بلاد ما بين النهرين ، دجلة والفرات ، كلها ، ووصل نفوذه إلى مناطق مجاورة في شمالي سورية وجنوب غربي إيران ( عيلام ) ، حتى غدت المملكة البابلية في عهده أكبر دول الشرق القديم وأكثرها قوة وازدهاراً ، وصارت اللغة البابلية نتيجة لذلك لغة التجارة والأدب والدبلوماسية ، في العالم القديم ، وبقيت كذلك حتى حلت محلها اللغة الآرامية حوالي القرن الخامس قبل الميلاد . وكانت أوضاع المنطقة عند استلام حمورابي سدة الحكم مضطربة ، وكل حاكم يحاول فرض سيطرته على من حوله ، فيجمع الأنصار ، ويثبت حكمه بإحكام تبعية الملوك الصغار له ، كما نعلم من رسالة لموظف كبير لملك مدينة ماري ( تل الحريري اليوم ) يقول فيها : إنه ليس ثمة ملك واحد قوي بنفسه ، فحمورابي يقف وراءه ( ويتبعه ) عشرة إلى خمس عشرة ملكاً ... ثم يعدد غيره من الملوك . فكان على حمورابي أن ينتهج سياسة عُرِفَ بها دون غيره من المنافسين ، وهي سياسة التحالف المؤقت ، وسياسة الخطوة التي تتبعها خطوة تعززها . فكان يتحالف مع الأقرب ضد البعيد . وعندما ينتصر على البعيد ، يعود إلى الأقرب بعد أن يتحالف مع غيره . وعلى الرغم من وقوف ملك ماري زيمري ليم معه ، وتقديم العون الدائم من المحاربين والعتاد ، وإقناع ملك حلب بمؤازرته في ذلك ، فإنه لم ينج من مصير غيره من الحلفاء حين جعله حمورابي آخر الضحايا ، فأكمل بذلك حمورابي توسيع دولته بعد ثلاثين سنة من المعارك والتحالفات .

لم تكـن حـنكة حمورابي تقتصر على السياسة والحرب بل تبدو أيضاً في تنظيم المملكة وإدارتهـا ، وكـان يتابع بنفسه شؤون الأقاليم ويتدخل فيها . فألغى منصب الإنسي الحاكم المحـلي الذي لم يعد صالحاً في الدولة الكبيرة ، وعين موظفاً كبيراً مكانه لإدارة الأقاليم والمدن الكبيرة ، يتبع توجيهات الملك ويستمد صلاحياته المحدودة منه . وغيّر النظام الاقتصادي أيضاً، فـلم يعد القصر يملك مقدرات الدولة الاقتصادية وحده ، ويتصرف بها ، بل ظهرت الملكية الخاصة ، وصارت لها مكانة بارزة في المجتمع ، في مجال ملكية الأرض وزراعتها ، وفي الأعمال الحـرة والخدمات . كما برز دور إله مدينة بابل المحلي مردوك الذي كان شأنه لا يختلف عن شأن مدينة بابل نفسها ، قبل وصول حمورابي إلى العرش ، فصار إلهاً للدولة كلها ، وأهّله هذا لاحتلال مكانة رفيعة في مجمع الآلهة السومري ـــ الأكادي .

لم يصـب حمـورابي بالغرور على الرغم من الإنجازات السياسية الكثيرة التي حققها ، والوحـدة التي تمت على يده وجمعت كل مناطق بلاد ما بين النهرين ، فلم يؤلّه نفسه ، كما فعـل غـيره مـن الملوك العظام من قبل ، وإن سمى نفسه " إله الملوك " ، بل اكتفى باللقب المـألوف " ملـك الجهـات الأربع " ، وكان مخلصاً لرعاياه " ذوي الرؤوس السود " كما تدعوهم المصادر ، وحريصاً على رعاية مصالحهم ، وتحقيق العدالة والرفاهية لهم ، فأطلق على نفسه لقب " الراعي " و" الوالد " .

**قانون حمورابي :**

تعـود شـهرة حمـورابي الحقيقـية إلى التشريعات التي عُرِفَتْ باسمه، ودعيت " قانون حمـورابي"، الذي توج به أعماله الكبيرة طوال ثلاثة وأربعين عاماً قضاها في حكم بابل . فقد أصـدر قانونه في العام الرابع والثلاثين من حكمه بعد أن استقرت الأحوال في كل البقاع التي دانـت لحكمـه ، وصار من الضروري أن تنظم العلاقات بين مختلف فئات المواطنين ، وبين المواطـنين والقصـر ، وأن تحدد حقوق الجميع بما يتلاءم والأعراف السائدة ، وينسجم مع التقالـيد السـامّية بخاصة . دُوِنَ النص باللغة البابلية وبخطها المسماري على مسلة من حجر

الديوريـــت الأسود ، ارتفاعها ٢,٢٥ م ، ومحيطها عند القاعدة ١,٩٠ م .أما قسمها العلوي فهـــو أضيق وذو شكل هلالي ، ويظهر عليه مشهد يمثل الملك حمورابي واقفاً أما إله الشمس ، إله العدالة . وتُعرض المسلة اليوم في متحف اللوفر بباريس .

يـــتألف القانون من المقدمة ، ومن المتن الذي يشتمل على المواد القانونية ، ومن خاتمة . أمـــا المقدمة فتستغرق حوالي ٣٠٣ أسطر ، وصيغت بلغة شعرية ، يتحدث فيها حمورابي عن أعماله المختلفة ، ويؤكد شرعية حكمه ، ثم تتوالى مواد القانون وعددها ٢٨٢ مادة . ويعالج القـــانون قضايا اقتصادية واجتماعية عرفها المجتمع في عهد حمورابي ، فهي تتناول أمور القضاء والأمـــن ، وحقوق المحاربين ومسؤولياتهم ، وشؤون الزراعة ، والملكية ، وشروط القروض ، والأحوال بما تتضمنه من أمور الزواج والطلاق والميراث . وتتطرق إلى القصاص والتعويضات، وإلى أجور أصحاب المهن . واشتملت في ثناياها على أحكام راقية يقبلها المنطق في كل عصر، وأحكام أخرى يصعب على المرء قبولها إلا بمنطق العصر الذي ظهرت فيه . وغلب على معظم المواد طابع الشدة والقسوة في مواجهة الإضرار بمصالح الدولة والاعتداءات على النفس والمال. وكـــان المـــبدأ الذي يتعامل معه في معالجة الأضرار التي لا تتسبب بالموت هو " العين بالعين والســـن بالســـن " ولكـــنه لم يطبق على كل الطبقات الاجتماعية ، إذ كان المجتمع في عهد حمـــورابي وفي قانونه ينقسم إلى ثلاث طبقات : الأحرار ، والعبيد ، وطبقة متوسطة بينهما ، فـــإذا مـــا نجمـــت الأضرار نفسها عن طبقة عليا ولحقت أفراداً من طبقة أدنى كانت العقوبة أخف، وتقضي بالتعويض المادي وحده .

لم يكـــن حمـــورابي أول ملك في بابل يضع القوانين ، كما كان يفترض الباحثون قبل اكتشاف قوانين أورنمو ، وليبيت عشتار و إشنونا ، فلم تكن تشريعاته وليدة عهدها وحده ، و لم تكن الأولى من نوعها ، بل تضمنت بطبيعة الحال مواد كثيرة سبقه إليها أصحاب القوانين الســـابقة ، وأبقـــت بعضها على حاله ، وعدلت بعض المواد الأخرى ، وزادت عليها مواد جديدة تتناسب والعصر الذي صدر فيه القانون .

استمرت الدولة البابلية من بعد حمورابي على يد خمسة خلفاء من نسله ، ولكن الضعف بـــدأ يـــدب في أوصـــالها ، والأخطـــار تتهددها ، والأقاليم تنفصل عنها بدءاً من عهد ابنه سمســـوإيلونا ، حتى وجه الحثيون لها ضربة قاضية عام ١٥٩٥ ق.م ، ولكنهم لم يبقوا في بابل بـــل إنســـحبوا منها ، واستلم الحكم الكاشيون الذين كانوا يتربصون ببابل الدوائر ، وأقاموا دولة لهم فيها دامت حوالي أربعة قرون .

**مراجع للإستزادة :**


١ ـــ أحمد ارحيم هبو ، تاريخ الشرق القديم ( ٢ ) بلاد ما بين النهرين ( العراق ) ، دار الحكمة اليمانية ، ودار الحرف العربي ، بيروت ١٩٩٦ .

٢ ـــ أنطون موركات ، تاريخ الشرق الأدنى القديم ، تعريب توفيق سليمان ، علي أبو عساف ، قاسم طوير ، دمشق .

٣ ـــ عيد مرعي ، قوانين بلاد ما بين النهرين ، دمشق ١٩٩٥ .

4 – D. O. Edzard, Die zweite Zwischenzeit Babyloniens, Wiesbaden 1975.

5 – André Finet " Le Code de Hammurapi , Introduction, Traduction et Annotation, Paris .

6 - L. W. King, The Letters and Inscriptions of Hammurabi, London 1907 .

7 – H. Klengel, Hammurapivon Babylon und seine Zeit, Berlin 1980 .

8 – W.Von Soden, Herrscher im Alten Orient, Berlin 1954 .

# الأدب البابلي

# الأدب البابلي

تُطلق تسمية البابليين نسبة إلى بابل على سكان بلاد ما بين النهرين الجنوبية . والبابليون شعب أصيل في المشرق العربي يعود في أصوله الإثنية إلى مجموعة من الشعوب ، اصطلح المؤرخون على تسميتها بالشعوب السامية وهي تلك الشعوب التي تنحدر من أصل واحد ، توزعت بمرور الزمن بين شبه الجزيرة العربية ، وبلاد ما بين النهرين ، وسورية ، فاصطبغت حضارة هذه المناطق بصبغة واحدة متميزة في سماتها الفريدة .

ويبدأ تاريخ البابليين بظهور مدينة بابل في بداية الألف الثاني ق.م . وتستمر حتى سقوط المدينة بيد الفرس الأخمينيين في عام ( ٥٣٩ ) ق.م . وينقسم هذا التاريخ إلى عدة عصور :

١ ـــ عصر الدولة البابلية القديمة ( أو الأولى ) : ويبدأ بوصول القبائل البدوية العمورية ( الأمورية ) إلى حكم مدينة بابل ، وهي القبائل التي قدمت من الغرب ، من البادية السورية في بداية القرن التاسع عشر ق.م ، والتي دعاها السومريون باسم مارتو MARTU ، والأكديون أمورو AMURRU . وقد تمكن هؤلاء العموريون من إقامة عدد من الدول في بلاد ما بين النهرين وسورية، ومن بينها الدولة الآشورية القديمة، وماري ، ويمحاض، وقطنا، والدولة البابلية . ونسبة إلى هذه الدولة سمي العصر بالعصر البابلي القديم الذي أمسى عنواناً لحضارة بلاد ما بين النهرين بكاملها ، إذ وصلت فيه الحضارة إلى قمة إنجازاتها ، ولا سيما في عهد أشهر ملوكها حمورابي ( عمورابي ) ، صاحب التشريعات المعروفة باسمه .

وسادت اللغة البابلية بدءاً من هذا العصر ، وكتابتها المسمارية في كل أنحاء الشرق الأدنى القديم ، وأضحت لغة العالم القديم الدبلوماسية والسياسية .

واستمرت الدولة البابلية إلى ما بعد حمورابي ( ١٧٩٢ ـــ ١٧٥٠ ق.م ) في تقدمها الحضاري حتى سقطت في يد الحثيين، في زمن ملكهم مورشيلي الأول في عام ١٥٩٥ ق.م .

٢ ـــ عهد الكاشيين : والكاشيون شعب غريب عن المنطقة مثل السومريين ، وفدوا من المناطق الجبلية الشمالية الشرقية ، وتسللوا سلمياً إلى المدن البابلية الرئيسة ، وتسلموا مقاليد الحكم حين سقطت بابل بيد الحثيين الذين مالبثوا أن انسحبوا منها بعد نهبها . واستمر الكاشيون في حكم البابليين حوالي خمسة قرون ، وعدوا أنفسهم ملوك بابل الشرعيين ، واتخذوا ألقاب ملوكها ، وتحدثوا اللغة البابلية . إلاّ أن البابليين استطاعوا بعد أن تردت الأحوال الحصول على استقلالهم ، ودخلوا في صراع مع الآشوريين في الشمال، والعيلاميين ( الإيرانيين ) في الشرق بزعامة الآراميين الذين قدموا البلاد في أواخر العصر الكاشي . ويعد المؤرخون هذا العصر ، العصر البابلي الوسيط .

٣ ـــ العصر البابلي الحديث ( أو الكلداني ) : أقام الكلدانيون ، وهم إحدى القبائل الآرامية ، في جنوبي بلاد ما بين النهرين ، وكوّنوا إمارات عدة ، وتمكن أحد زعمائهم من الاستقلال ببابل عن آشور التي كانت تفرض سيطرقما على الجنوب الرافدي . ثم تحالف مع الإيرانيين الميديين ضد الآشوريين حتى قضى الحليفان عليهم واقتسما البلاد الخاضعة لحكمهم ، فدانت العراق وسورية للكلدانيين الذين اشتهر من ملوكهم نبوخذ نصر الثاني ( ٦٠٥ ـــ ٥٦٢ ق. م) ، صاحب السبي البابلي المشهور ، الذي أعاد بابل إلى مكانتها في العالم القديم التي كانت قد وصلت إليها في عهد سميّه حمورابي قبل ما ينوف على اثني عشر قرناً ، فأمست أشهر مدن العالم القديم نتيجة إنجازاته ، وما خلّف فيها من المعالم الحضارية ، ما خلّد اسمها ، ورفع من شأنها ، ومن ذلك الجنائن المعلقة وبرج بابل ، وبوابة عشتار ، حتى قال عنها المؤرخ الإغريقي هيرودوت الذي زار خرائبها " إنها لا تضاهيها في عظمتها وسعتها مدينة أخرى " .

**اللغة البابلية :**

تنتمي لغة البابليين إلى مجموعة اللغات التي دعاها الباحثون اصطلاحاً باسم " اللغات السامية " ، أي لغات : العرب والأكديين ( البابليين والآشوريين ) والكنعانيين والآراميين. واللغة البابلية والآشورية فرعان من اللغة الأكدية التي سادت في بلاد ما بين النهرين بعد أن توسع سرجون، مؤسس الدولة الأكدية في بسط سلطانه على كل بلاد ما بين النهرين ، وتجاوزها إلى شمالي سورية، وجنوبي آسية الصغرى وإلى أجزاء من إيران . واستطاعت اللغة البابلية التي وصلت في عهد حمورابي ، أشهر ملوك الدولة البابلية القديمة ، إلى مرحلة النضج والكمال الذي يتجلى في قانون حمورابي ، أن تسود عالم الشرق القديم ، وتغدو لغة الوثائق السياسية والاقتصادية في المناطق ذاتها تقريباً التي كانت الأكدية قد وصلت إليها حوالي ألف عام، إلى أن حلت محلها اللغة الآرامية الشقيقة .

**الأدب :**

صيغت الأعمال الأدبية عند البابليين ، عدا النقوش الملكية ، في الغالب بتراكيب محكمة ومـــترابطة ، يصعب من خلالها التمييز بين النثر والشعر . ولا شك في أن الأساطير والملاحم البابلية ذات طابع شعري .

كـــان الأدب في العصـــر البابلي القديم استمراراً للأعمال الأدبية السومرية ذات التأثير الكـــبير في أدب بـــلاد ما بين النهرين بعامّة ، ثم ما لبث أن تحرر من التقليد إلى الإبداع ، إذ ظهرت أعمال أدبية عكست التطورات المعيشية ، ونضجَ اللغة التي باتت تهتم بالأسلوب الفني والجمـــالي . وحظـــي الأدب البابلي هو الآخر بعد السومري بانتشار واسع في العالم القديم ، فظهـــر في لغات منطقة الشرق القديم كالحثية والحورية، وهي من اللغات الهندية ـــ الأوربية ، وفي العبرية والآشورية طبعاً . وقد تنوعت أجناس النصوص الأدبية البابلية ، ونذكر منها :

١ ــ النقوش الملكية :

تُعــد الــنقوش الملكــية التي كان الملوك يأمرون بكتابتها نوعاً من النصوص الأدبية إذ تضمنت موضوعات تتجاوز سرداً لأعمال البناء والمعارك الحربية . فنجد ــ مثلاً ــ في مقدمة قانون حمورابي الشعرية التي يبلغ عدد أسطرها ( ٣٠٣ ) سطراً وصفاً لأعماله المختلفة التي قام بهــا لمصــلحة المدن التي ضمها إلى ملكه ، ولا ينسى أن يظهر فيها تبجيله لآلهتها وأن يؤكد شــرعيته ، إذ يقــول : " الإله آنو العظيم ... وإنليل ، سيد السماء والأرض ، مقرر مصير البلاد، حدّد لمردوك ، الابن البكر لإيا ، الحكم على جميع الناس ... في ذلك الزمن جعلاني ، أنا حمورابي الأمير التقي ، خادم الآلهة ، لأطهر الحق في البلاد ، ولأقضي على السوء والشر ، ولأقف دون طغيان القوي على الضعيف ، ولأشرق مثل شمش على ذوي الرؤوس السود وأنير الــبلاد ... " . ويصف نفسه بأنه :" مقتحم أطراف العالم الأربعة الذي رفع اسم بابل عالياً والذي أنجبه سين ( إله القمر ) ، فهو ابن الإله سين ، وهو إله الملوك ، وحبيب الآلهة والمطيع الدائــم لهــا . وينهي حمورابي قانونه بخاتمة تشبه المقدمة بأسلوبها الشعري ، يذكر فيها أيضاً أعمالــه ، ويبتهل إلى الآلهة واحداً بعد الآخر أن تعاقب من يخالف قانونه ، ولا ينفذ مواده ، أو يحــاول محو اسمه ليكتب اسمه مكانه ، ويصف نفسه بلقب " ملك العدالة " الذي " حضن سكان بلاد سومر وأكد كي لا يظلمَ القوي الضعيف ، ولمساعدة اليتيم والأرملة في الوصول إلى حقهمــا ... ويرتاحَ المواطنون وتنشرحَ صدورهم عندما يقرأون الأحكام ، ويعرفون أن حمورابي موجود كأب حقيقي للرعية .

ومن النصوص الفريدة نقش خلّد فيه نبونيد ، آخر ملوك الكلدانيين ( ٥٤٨ ق.م ) ، أمه هــدّا ــ جوبي التي توفيت عن عمر يناهز ( ١٠٣ ) سنوات ، وأمر بتدوينه على قبرها ، وفيه تــتحدث الأم المتوفاة عن نفسها طويلاً ، عن ورعها وتقواها تجاه الآلهة جميعها ، وللإله سين بخاصــة ، وتطلب من الملوك التالين الاهتمام بطقوس الموتى ، وتمجّد ابنها الذي اختارته الآلهة ليكون ملكاً على بابل ولتبجيل الإله سين .

٢ ـ الأساطير والملاحم :

تـنعكس في الأساطير البابلية تصورات الإنسان في ذلك العصر عن مسائلَ مختلفة كانت تحتل مكانة خاصة في نفسه عن الآلهة والكون ، وأنصاف الآلهة ، والقوى الخارقة في الطبيعة ، وتنظيم الكون . ونذكر من تلك الأساطير :

ـ أسـطورة أترخسـيس الـتي تم العثور على اربع نسخ لها في مواضع مختلفة ، تعود تواريخهـا إلى أزمنة متباينة : بابلية قديمة ، وبابلية وسيطة ، ونسخة آشورية حديثة ، وبابلية متأخرة . ويعود ذلك إلى شهرتها ، وانتشارها المكاني والزماني .

ويصف كاتب النسخة البابلية، واسمه نور إيا " نور ( الآلهة ) أيا ( قرينة الإله شمش)" ، نفسه بالناسخ الأصغر ، ولم يكن من عادة الكتّاب ذكر اسمهم ، إذ تخلو كثير من النصوص من ذكر المؤلفين والناسخين . وكانت الأساطير والنصوص بعامة تُصنّف في المكتبات الكبرى كمكتبة نينوى أو آشور بانيبال، كما تدعى أيضاً نسبة إلى مؤسسها ، اعتماداً على السطر الأول منها. لذلك تدعى هذه الأسطورة ، أسطورة أترخسيس ، إينوما إيلو أويلوم inūma īlū awīlum ، حرفـياً : " عندما الآلهة بشر " ، أي ، عندما لم يكن قد حصل تمييز بين الإله والإنسان بعد، وتدعى عند الباحثين باسم أترخسيس بطل الأسطورة.

**موضـوع الأسطورة** : خَلْقُ الإنسان بعد تمردٍ في صفوف الآلهة التي كانت وحدها في الكـون . وكان الآلهة مجموعتين ، واحدة تدعى ( أنوناكي ) ، والثانية ( إيجيجي ) . وكانت المجموعـة الثانـية تنوء بعبء العمل لخدمة بقية الآلهة الرئيسة ومجموعة الأنوناكي التي كانت تـتقلد مقاليد المناصب العليا . فقام الإيجيجي بحفر الأنهار ، وشق القنوات ، ونصب الجبال ، وتأمين القوت والغذاء ، وكل مستلزمات الحياة .

بعد أربعين سنة من العمل والشقاء المضني، قررت جماعة الإيجيجي التمرد والعصيان ، فعمدت إلى إحراق أدوات العمل ، وحملت النار قاصدة باب معبد الإله إنليل في مدينة نيبور . فخاف الحـراس والخـدم وارتعدت فرائصهم ، وهم يرون جدية الخطر المحدق ، وهرعوا إلى سيدهم

إنلـــيل ، فأصـــدر أوامـــره إلى مساعده ليقوم بالتفاوض مع الثائرين ، وحل المشكلة سلمياً .
ووجـــد الإيجيجي تعاطفاً من الآلهة ، وفي مقدمتهم إنليل نفسه ، الذي راح يذرف الدموع ، ويـبدي حـــزنه الشديد على ما يكابده هؤلاء من هم وشقاء ، وتوصَّلَ الآلهة إلى قرار يقضي بخلـــق الإنســـان ليحمل نير العمل عن الإيجيجي ، ويقوم على خدمة الآلة وتأمين مستلزمات حـــياتها. فاســـتُدْعِيت الإلهة الأم ننتو للقيام بعملية الخلق، وساعدها في ذلك الإله إنكي / إيا الذي جبل الإنسان من الطين ودم أحد الآلِهة ، ثم قسّما الطين الذي يمثل الشكل البشري إلى أربع عشرة قطعة سبعِ قِطَع ذكوراً ، وسبع قطع إناثاً لتتزاوج مع بعضها وتتكاثر على الأرض.

وبعد مرور ١٢٠٠ سنة كثر أعداد البشر ، وعَلَتْ أصواتهم ، وزاد ضجيجهم ، الأمر الذي أزعج إنليل وأقضّ مضجعه، وما عاد يستطيع النوم، وينعم بالهدوء، فعمد إلى التفكير بطريقة يتخلص بها من الوضع السيء الذي كان يعاني منه . فهداه تفكيره إلى الطلب من الإله نمتار ، وهو إله الطاعون والأوبئة ، أن يفتك بالبشر ويبيدهم . ولكن الإله إنكي الذي يَعُّد البشر أبناءه ، فهو الذي خلقهم ، يخشى عليهم الفناء ، فيوعز إلى أترخسيس الحكيم أن يجمع زعماء البلاد ، وينادي بهم للتعاون في بناء معبد للإله نمتار ، لاسترضائه ، وتقديم القرابين له لكي يكف بلاءه عنهم . فانصاع أولئك لنصيحته ، وتمّ تفادي الكارثة الرهيبة .

وبعـــد ألـــفٍ ومئتي سنة أخرى تضاعف عدد البشر ، وعلا ضجيجهم ثانية ، ما أزعج إنلـيل. فأوعـــز إلى الإلـــه أدد ، إله الأمطار للقضاء عليهم بحبس مياه الأمطار عنهم ، ليحل القحـــط والجدب ، فيحلُّ بهم الهلاك من الجوع . ويصف الكاتب هنا حال البشر المزرية التي آلـــت إليها بعد مرور ستِ سنوات عجاف ، حتى باتوا يفكرون بأكل لحوم بعضهم بعضاً . لكن إنكي ، الإلهَ المحبَّ للإنسان ، صنيعتهِ ، تدخَّل ثانية لينصح الحكيم أترخسيس ببناء معبد للإله أدد بالتعاون مع بني قومه ، يقدمون فيه الأضاحي والقرابين له لكي يطلق مياهه السماوية ليشرب البشر وتحيا الأرض من جديد . فنجا البشر من هلاك مُحَقَّق خطّطَ له إنليل مرة ثانية.

ولمـــا رأى إنلـــيل أن خططه لم تنجح في القضاء على الجنس البشري ، دعا مجمع الآلهة للتشاور وإيجاد طريقة للتخلص منه ، وحتى لا يفشو الأمر ، ويتسرب خبره ، دعا الجميع إلى القَسَـــم بـــأغلظ الأيمـــان للتكتم وعدم إفشاء ما سيتوصل إليه المجمع ، وكان إنكي بينهم . وتوصـــل المجمع إلى قرار يقضي بإحداث الطوفان ، وكُلِّف أدد بإطلاق أمطاره من الأعالي ، وإنكي بإطلاق مياهه السفلية ، فهو إله المياه العذبة في الأرض حتى تنهمر الأمطار من الأعلى وتتفجر المياه من الأسفل ويغرق كل ما على الأرض من حياة .

لكـــي إنكي المحبَّ والمتعاطفَ مع البشر وجدَ الوسيلة لإعلام أترخسيس وإنذاره بشكل غـــير مباشر ، فتحدث إلى حائط القصب في مسكن أترخسيس محذراً إياه من وقوع الطوفان بعد سبعة أيام ، واستمراره سبعة أيام بلياليها ، ودلَّهُ على طريقة للنجاة على ظهر سفينة محددة الأوصاف ، بعيداً عن أهل المدينة الذين سيستغربون تجهيزه للسفينة ، ومغادرته البلد ، وأوصاه أن يحمـــل معـــه أسرته وأصدقاءه ، وعماله المهرة ، والحيوانات الكبيرة والصغيرة والطيور ، ثم ...

... بـــدأ الطوفـــان كمعركةٍ فوق رؤوس الناس كانت قوته . لم يرَ الأخ أخاه لم يميزوا بعضـــهم مـــن الكارثة . الطوفان يصخب كالثور . كصراخ حمار وحشي . هدرت الرياح . الظـــلمة عظيمة والشمس خافية ... إنكي تغيرت ملامحه . أولاده سقطوا أمامه . ننتو السيدة العظـــيمة تغطت شفتاها بالحمى . الأنوناكي الآلهة العظيمة جالسون في ظمأ وجوع . رأتهم الآلهـــة فراحت تبكي . مولِّدة الآلهة الحكيمة مامي قالت : ملعون هذا اليوم ... كيف قررت معهـــم الخـــراب في اجتماع الآلهة ... ننتو راحت تبكي ... الآلهة بكوا معها ... جلسوا كالخراف ... سبعة أيام وسبّع ليال بقي المطر الغزير ، العاصفة ، الطوفان .

ثم ينداح الطوفان ، وتنحسر المياه ، وينجو أترخسيس الذي يتحدث في الأسطورة قائلاً: وعندما حلَ اليوم السابع أتيت بحمامة وأطلقتها بالسماء . طارت الحمامة بعيداً ثم ما لبثت أن عادت إلي. لم تجد مستَقَراً فآبت . فأتيت بسنونو وأطلقته في السماء . طار بعيداً وما لبث أن عاد إلي. لم يجد موطئاً لقدميه فآب . ثم أتيت بغراب وأطلقته في السماء . فطار الغراب بعيداً،

ولما رأى الماء قد انحسر ، أكل وحام وحط ، و لم يعد . عند ذلك أطلقت الجميع للجهات الأربع وقدمت أضحية . سكبت خمر القربان على قمة الجبل... فتشمّم الآلهة الرائحة الزكية. تجمعوا على الأضحية كالذباب . وعندما وصلت الإلهة العظيمة عشتار رفعت عقدها الكريم الذي صنعه آنو وفق رغباها وقالت : أيها الآلهة الحاضرون . كما لا أنسى هذا العقد اللازوردي الذي يزين عنقي ، فإنني لن أنسى هذه الأيام قط ، وسأذكرها دوماً . تقدموا جميعاً واقتربوا من الأضحية . إلا إنليل وحده لن يقترب لأنه سبّب الطوفان دونما تروٍّ ، وأسلم شعبي للدمار . وعندما وصل إنليل ورأى السفينة انتابه الغيظ الشديد ، واستشاط غضباً من آلهة الإيجيجي . أَنَجا أحد من الفانين ؟ ألم يكن مقدراً أن يهلكوا جميعاً ؟ ففتح نينورتا [1] فمه وقال مخاطباً إنليل المحارب : من يستطيع أن يقوم بأمر دونما إيا ؟ إن إيا وحده يعي كل الأمور. ففتح إيا فمه وقال مخاطباً إنليل المقاتل : أيها المحارب ، أيها الحكيم بين الآلهة . كيف دونما تَفكّر جلبتَ هذا الطوفان ؟ كنتَ تستطيع أن تسلط السباع لتنقص عدد البشر .كنت تستطيع أن تطلق الذئاب فتُنقِصَ من تعدادهم. أو تحدث القحط الذي يهلك البلاد أو تأتي بإرّا [2] ليحصد الناس ...

خصام شديد بين الإلهين إنليل وإنكي ينشأ نتيجة ما حدث من مخالفة لإجماع الآلهة وقسمهم بأن لا يفشوا خطة القضاء على البشر وإبادهم . لا يلبث بعدها الطرفان أن يتوصلا إلى قرار لتحديد النسل ، والحد من تكاثر البشر الكبير ، وذلك بخلق نساء عقيمات ، وأن تنذر طائفة من النساء أنفسهن للآلهة ، وخلق عفاريت تخطف الأطفال من أحضان أمهاتهم .

ـــ **أسطورة الخلق** : وتعرف بالسطر الأول منها إينوما إيليش ، أي " عندما هناك في العلا " [ لم يكن للسماء اسم ] " أي لم تكن موجودة . ولسوف نذكرها بشيء من التفصيل في حديثنا[3] عن " قصة الخلق في الأساطير الشرقية " . وفيها خلّف البابليون تصورهم عن خلق

---

[1] ـــ نورتا إله السدود والري والقنوات .

[2] ـــ إله الطاعون .

[3] ـــ أنظر ص ١٨٣ .

الكـــون ، وهـــو تصور لا يختلف كثيراً عن تصور السومريين من حيث المبدأ ، غير أن القصة كـــلها أُلّفـــت سعياً وراء بيان السبب في ارتقاء الإله مردوك إلى مرتبة الإله الأعظم في الدولة البابلـــية ، بعدما كان إلهاً محلياً لمدينة بابل المغمورة قبل ظهور حمورابي ، ملكها المشهور الذي توصـــل إلى السيطرة على بلاد ما بين النهرين بكاملها بوساطة حنكته السياسية والعسكرية ، فـــارتقى بذلك مردوك إلى مرتبة الإله الرئيس. ويعود تأليف هذه الأسطورة إلى مطلع القرن الـــرابع عشـــر ق. م ، وكانت تتلى في احتفال مهيب في راس السنة البابلية ، حيث يتقمص الملـــك شخصية مردوك . وأحلّ الآشوريون إلههم آشور في عهد الملك سنحريب محل مردوك ليرفعوا من مقام إلههم الخاص .

نجد في مطلع القصيدة ( الأسطورة ) حديثاً قصيراً عن أصول الآلهة : عماء أزلي انبثق عنه إلهان يمثلان المياه الأولى ، ( أبسو ) إله المياه العذبة ، و( تيامت ) إلهة المياه المالحة . نشأت من امتزاجهما ( زواجهما ) الآلهة الأخرى ، ومنها ( آنو ) الذي أنجب ( نوديمود ) ، وهذا لقب الإله ( إنكي / إيا ) . وعندما كثرت الآلهة ، ونشأت أجيال جديدة عكّرت هذه صفو الإله الأصل أبسو ، وسعت إلى التبديل والتغيير ، الأمر الذي أقلقه ، ففكر بخطة للقضاء عليهم بعدما صار ( إنكي ) زعيماً لهم . فبادره هذا بالهجوم وأفناه في نفسه بتخديره وسلبه إرادته بالسحر . ثم أنجب إيا ( مردوك ) المعجزة الذي تصدى لتيامت التي أرادت الانتقام لزوجها ، وشقها نصفين بعد أن ملأ جوفها بريح السموم حين فتحت فاهَها لابتلاعه ، وجعل نصفها الأعلى سماء ، ونصفها الأسفل أرضاً .

وتذكر الأسطورة خلق الإنسان الذي تم بخلط دم الإله ( كنجو ) الذي ساعد تيامت بالطين لخدمة الآلهة ، كما عرفنا من أسطورة أترخسيس أيضاً .

وبعد تأسيس مدينة بابل وإنشاء معبدها ( إيساجيلا ) الذي يغدو معبد الإله مردوك الرئيس تجتمع الآلهة في احتفال بالنصر ، وتمجّد الأسماء الخمسين للإله مردوك . وتورد الأسطورة لكل اسم من أسمائه الحسنى تفسيراً ذا صلة ما بالأصل الاشتقاقي للاسم .

وثمة رواية معدّلة متأخرة لهذه الأسطورة يذكرها بيروسوس[٤] [ برعوثا ] في مصنفه " البابليات " الذي صنفه حوالي ٣٠٠ سنة ق.م باللغة اليونانية .

**صراعات ومعارك بين الآلهة :**

ثمة أساطير يدور الحديث فيها عن مواجهة القوى المعادية للنظام السائد الذي وضعت الآلهة قواعده ، ومن تلك القوى طائر أسطوري يدعى ( أنزو ) سرق ذات مرة ألواح القدر التي تُمكّن الإله إنليل من السيطرة على مصير الكائنات والعالم وهو يغتسل ، فتصدى له إله الحرب نينورتا، واستطاع أن يتغلب عليه ويقتله ، ويسترد الألواح منه ، بعد محاولات يائسة ، وبمشورة إيا وحكمته ، وبعد أن خاف الآلهة الكبار من مواجهته .

ومنها أساطير تصور آلهة كبرى في مواقف سلبية ، قد تكون وضيعةً أحياناً ، مثل:
ــ **أسطورة ( إنليل )** و ( **نينليل** ) التي تتحدث عن أنّ الإله الكبير ( إنليل ) قد ارتكب إثماً وهو فتيّ في مقتبل العمر ، فقد زار ( إنليل ) عندما كانت تستحم ، وانفرد بها وضاجعها ، وأنجب منها إله القمر ( سين ) ، فأنّبته الآلهة الأخرى على فِعْلته لأنه صار غير طاهر . ولكنه أعاد الكرة وضاجع إنليل ثلاث مرات وهو متنكر في أثواب مختلفة وأنجب منها آلهة أخرى . ومع ذلك فإن التراتيل الدينية تصفه بالسيّد .

ــ ونقرأ أيضاً أن **إنانّا / عشتار** تسلب إنكي السكران القوة الخاصة بحفظ النظام الكوني والأرضي وحمايته ، وتهرب بها إلى مدينة أوروك ( الوركاء ) . ولكنه عندما يصحو فإنه يسعى لاستعادتها عن طريق العفاريت ، ولكن هؤلاء لا طاقة لهم على مواجهة إنانا . فيضطر إلى الذهاب إلى أوروك بنفسه ليظفر بها بمساعدة من الإله إنليل نفسه . والإلهة إنانا هي بطلة أسطورة " نزول إنانّا إلى العالم السفلي " أيضاً . كان فضولها وتعديها على اختصاصات غيرها سبباً في نزولها إلى العالم السفلي ، وهو عالم الأموات ، العالم الذي لا عودة منه . تحاول الدخول بكسر الباب لإعادة الموتى إلى الحياة ، ولكن البواب يمنعها ، وأختها ملكة العالم السفلي إريشكيجال تخاف على ملكها ومن منافسة عشتار ، فتأمر البواب أن يعامل عشتار

---

[٤] ــ أنظر كتابنا : تاريخ الشرق القديم ( ٢ ) بلاد ما بين النهرين ( العراق ) ، ص ٤٧ .

بحسب القواعد القديمة المتبعة. فيقودها إلى إريشكيجال عارية تماماً كأي من الأموات، بعد أن تخلع ملابسها قطعة بعد الأخرى وهذه رموز قوتها الإلهية ، وهي في طريقها إلى حاكمة العالم السفلي ، وتمتثل لطلبات الحارس الصارمة. فتمسك بها الملكة وتقوم بحبسها وتنهال عليها قوى الشر في الجحيم وتعذبها حتى الموت. فيتوقف الخصب على وجه الأرض، والتكاثر بجميع أشكاله . فيتوجّه الرسول الإلهي مرتدياً ثوب الحداد ليخبر الإله ( سين ) ، ولكن هذا يطرده ، فيلجأ إلى ( إيا ) الذي يرسل خادمه بماء الحياة لإنقاذ عشتار ، ولكن أختها تلعنه وتمنعه من الدخول إلى عالمها ، وترسل بدلاً عنه الحارس بماء الحياة كي يرشها به لتعود إليها الحياة ، وتخرج عشتار من العالم السفلي ، وتستعيد عند كل بوابة تمر بها قطعة من ملابسها وحليّها التي كانت قد نُزِعَت عنها عند نزولها ، ولكن كان عليها أن تأتي ببديل لها يحل محلها في العالم السفلي ، وهو الشرط الذي اشترطته ملكة العالم السفلي مقابل السماح لها بالمغادرة . فتختار حبيبها دوموزي ( تموز ) الذي يتبادل معها الدور كل نصف سنة ، ولذلك بات غياب الخصب والخضرة عن الأرض مؤقتاً تبعاً لتبدل فصول السنة .

ــ وثمة أسطورة بابلية أحدثُ تهدف إلى توضيح سرٍّ كون **الإله نرجال أو** ( إرّا ) إلهاً سماوياً وللعالم السفلي في آن واحد ، وهو في الأصل إله نار الشمس الملتهبة ، الذي يشعل الحرائق ، ويثير الحمّى ويسبب الأوبئة لدى الإنسان والحيوان . وخلاصة الأسطورة :

تقيم الآلهة وليمة احتفالية مهيبة ، وترسل في طلب ملكة العالم السفلي إريشكيجال كي تشاركها الاحتفال ، وتأخذ نصيبها . فتبعث رسولها الخاص نائباً عنها ، وعندما يراه نرجال يتجاهله ، ولا يقدم له ما يستحق من استقبال وحفاوة . فيعود المبعوث الخاص إلى سيدته ، ويروي لها ما حدث من نرجال . فتسخط عليه وتطلب إحضاره إليها مهددة بأنه إنْ لم يَمْثُل أمامها فإنها سترسل الأموات إلى سطح الأرض ، وفي نفسها أن تجعل منه زوجاً لها بعد أن ملّت من زوجها الفعلي. عندئذٍ يسرع نرجال وقد شجعّه الإله ( إيا ) وزوّده بنصائحه إلى إريشكيجال ، فيغتصبها ويصبح زوجها وملك العالم السفلي إضافةً إلى مكانته كإله سماوي .

**ــ أساطير بابلية عن الباحثين عن الحياة ( جلجامش ، إتانا ، أدبا ) :**

أخذت أسطورة جلجامش ( الملحمة ) شكلها النهائي المتداول في حوالي عام ( ١١٠٠ ) ق.م بعد أن بدأت تتبلور منذ القرن الثامن عشر عن ثلاث حكايات سومرية عن مآثر ملك أوروك ( حوالي ٢٧٠٠ ق.م )، وحكاية عن الطوفان في عمل واحد ذي طابع جديد . وظهرت بعد ( ١٤٠٠ ) ق.م في سورية وفلسطين وآسية الصغرى قصائد شعرية عن جلجامش مما بقي من آثارها ، صياغةً حرة وغير ملتزمة بالأصل البابلي .

يدعى كاتب الملحمة في فهارس الأعمال الأدبية سين لُقي أُنّيني من أهل أوروك ، وقد جعلها في اثني عشر رقيماً ، وتضم حوالي ثلاثة آلاف بيت ، فغدت منظومته أكمل صياغةٍ ، لمادة الملحمة . أما الكتاب اللاحقون في الألف الأول فيبدو لنا أنهم أعادوا تدوين النص ، مع شيء من التغيير فحسب .

تبدأ الملحمة بمدح سور مدينة أوروك الذي كان جلجامش قد سخّر السكان في بنائه ، وأثقل عليهم بشأنه . وكي يوضَعَ حدٌّ لمظالمه خلقت الآلهة نداً له هو الإنسان الوحشي إنكيدو الذي تربى مع الحيوانات ، ثم اقتادته إحدى عاهرات المعبد إلى أوروك حيث شرع في مواجهة جلجامش . وانتهى النزال بينهما بأنْ تعاهدا على الصداقة ثم أخذا يخططان معاً لخوض المعركة ضد خُواوا / خُمبابا المسيطر على غابة الأرز . وبعد مسيرٍ طويل وشاق بمساعدة الإله الشمسِ استطاعا أن يحققا النصر عليه .

وفي طريق العودة عرضت الإلهة عشتار حبها على جلجامش ، ولكنه صدّها بعنف ، وراح يُذكِّرها بأفعالها السيئة مع عشاقها السابقين . وكي تنتقم عشتار منه راحت ترجو أباها الإله آنو أن يرسل الثور السماوي ضده . فاستجاب ، وراح الثور الغاضب يرمي كثيراً من رجال أوروك بشخيره في حفر عميقة . ولكن الصديقين البطلين ، جلجامش وإنكيدو ، يتمكنان بعد ذلك من قتله . وتمادى إنكيدو فأهان عشتار إهانة شديدة حملتها على الحكم عليه بالموت .

الـــتفكير بالموت، ومرض إنكيدو المهلك ، ثم موته يصبح من ثمّ مجالاً للوصف المسهب ، مـــع إقحام عدد من الأحلام وتفسيراها ، وكذلك تصوير آلام جلجامش الفظيعة التي ألمت به عندما شعر بأنه لا يستطيع إنقاذ صديقه إنكيدو من الموت المحتوم .

عـــندئذٍ ســيطر الخوف من الموت على جلجامش أيضاً ، فانطلق إلى أوتونابشتم ، بطل الطوفان المقيم في منطقة قصية كي يعرف منه كيف استطاع النجاة من الموت .

ثم نقـــرأ وصـــفاً مفصلاً مع كثير من التكرار لرحلته التي قطعها في بعض مراحلها تحت الأرض . ومـــرت بمـــراحل عدة ، حيث التقى خلالها بالزوج ذوي الشكل البشري العقربي اللذيـــن كانا طيبين معه ، وبساقية الحانة سيدوري ، وبالملاح أورشنابي الذي قاده رغم الخطر عبر مياه الموت إلى أوتو بنشتم .

ثم روى هـــذا له حكاية الطوفان التي منحته الآلهة في نهايتها الحياة الخالدة ، ونصحه بعد أن أخفـــق في اجتياز امتحان أجراه له ليختبر قدرته على عدم الندم ، بأن يأخذ نبتة الحياة من أعمـــاق الـــبحار . فعمل جلجامش بنصيحته ، وأقفل راجعاً . ولكنه أتاح الفرصة لأفعى أن تسرق منه النبتة خلال الطريق ، وهو مستلقٍ يستريح بعد الاستحمام . فبدّلت الأفعى جلدها مباشـــرة . فضـــاع كل شيء ، وراحت آماله عبثاً . فتخلى عن طموحه وراح يعيش حياته العادية ، بعد أن تأكد من الحقيقة التي قالت لها له والدته ، وفتاة الحانة ، وجده أوتو نبشتم : الحـــياة الأبديـــة الـــتي تنشدُها لن تلقاها. عندما خلقت الآلهة البشر قدّرت عليهم الموت ، واحتفظـــتْ بالحياة الدائمة لنفسها. خابت آماله إذن واقتنع بأن خلود الإنسان إنما هو بأفعاله وأعماله التي يخلّفها بعده .

غـــدت مـــلحمة جلجامش واحدة من الأعمال الأدبية العظيمة ، بما اشتملت عليه من أســـلوب فريد في التعبير عن المشاعر الإنسانية المشتركة وإبرازها ، ولا سيما عن الصداقة التي تبرز في ثنايا الحديث وتتكرر الإشارة إليها مراراً .

– وتدور أسطورة **إتانا** حول البحث عن الحياة أيضاً . وقد وصلتنا عدة صياغات بابلية قديمة ، وأخرى حديثة لها ، ولكنها غير كاملة .

بقـــي إتانا ، أول ملوك كيش بعد الطوفان الذي عينته الآلهة ، محروماً من الولد . ثم نقرأ في مطلـــع الأســـطورة حكاية خرافية تتحدث عن نسر وأفعى تصادقا وتعاهدا على مساعدة بعضـــهما . وكـــان لكل منهما صغار ويتعاونان في تأمين الطعام لهم . استغل النسر في أحد الأيـــام غـــياب الأفعى ، رغم تحذير أبنائه له من انتقام الإله شمش ، وابتلع أبناءها . فشكت الأفعـــى إلى الإله ، وتلقت منه النصيحة بأن تخفي نفسها في جيفة كبيرة في الجبل كي تقتص من النسر عند قدومه بحثاً عن الطعام .

فحصل ذلك ، وتمكنت الأفعى من كسر جناحي النسر ، ثم رمته في حفرة ليتعرض فيها للجوع . أما النسر فراح يصرخ مستغفراً الإله ، وطالباً الصفح عنه يومياً ، وأن ينجيه مما هو فيه . فاستجاب الإله أخيراً ، وطلب إلى إتانا الملك ، أن ينقذ النسر ، وأن يرعاه حتى يشفى ويســـتعيد عافيـــته . ففعـــل الملك إتانا ما أمره الإله . وبعدها طلب من النسر أن يريه نبات الولادة.

لا يستطيع النسر تلبية رغبة إتانا رغم توسلاته ، ولكنه يبدي استعداده لحمل الملك على ظهـــره إلى الســـماء كي ينال الحياة الخالدة هناك . ويطيران حتى السماء الثانية ، ولكن إتانا يشعر بالدوار ويسقطان كلاهما .

أمـــا أســـطورة ( **أدبا** ) ، الحكيم الأول في مدينة إريدو فلها بعض الملامح الهزلية ، فقد كسر أدبا أحد جناحي ريح الجنوب التي أفسدت عليه صيد السمك للإله ( إيا ) ، فاستدعي للمـــثول أمـــام الإله ( آنو ) لنيل جزائه . فنصحه إيا بأن يمتنع عن تناول أي طعام أو شراب يقدمه له آنو . ولكن آنو المعروف بانحيازه الدائم لبني البشر تفهم الموقف وتعاطف مع المذنب المســـكين أدبا ، وعرض عليه طعام الحياة بدلاً من طعام الموت . فرفض أدبا تناوله ، فأضاع بذلك على نفسه فرصة الحصول على الحياة الخالدة .

## أساطير إبداعية :

أبدع البابليون ـــ من دون شك ـــ عدداً من الأساطير التي ليس لها أصل قديم ، في عصر متأخر يعود إلى عصر الدولة البابلية ( الكلدانية ) ربما ، وتحتل من بينها أسطورة ( إرّا ) مكانة خاصة[5] ، وهذا هو إله الطاعون والأوبئة ، وتنسب الأسطورة إلى ناظمها كبتي إيلاني مردوك ، وقد تم نسخ رقمها الخمسة التي أوحيت إلى الشاعر خلال ليلة واحدة في مدينة آشور على الرغم من أنها تعبر عن اتجاه مؤيد للبابليين . لذلك نوردها هنا مع أنها ليست بابلية النشأة . وتقول الأسطورة إن الإله ( إرّا ) الذي كان زمناً طويلاً غير فاعل ، طُلب إليه أن ينشط في سبيل مواجهة البشر المزعجين وتقليص عددهم وابتلائهم في ممتلكاتهم ولا سيما الحيوانية . وبما أن الإله مردوك كان ملك الآلهة في بلاد بابل فقد توجب عليه أن يسعى إلى حمله على التخلص عن عرش السيادة لبعض الوقت حتى يقوم بتنفيذ عمله . فانسحب مردوك، كما يبدو ، فالنص هنا فيه ناقص كثيرة ، وبدأ إرّا بإعطاء تعليماته لآلهة أخرى بأن تمتنع هي الأخرى عن تقديم خيراتها إلى البشر ، مثل إله الشمس ، وإله القمر ، وإله المطر . فحلّ القحط ، وعم الهلاك ، واضطربت الأحوال ، واقتتل الناس وتحاربوا . ولكن وزيره ، وقد رأى ما حلّ بالبشر والأرض ومن عليها من كوارث يقنع بعد لأي إرّا بالتوقف عن أعماله وأن يكتفي في المستقبل بابتلاء أعداء بابل كالآشوريين والعيلاميين . أما الإله مردوك فإنه لا يحرك ساكناً بل يقنع برثاء مدينته بابل .

لقيت هذه الأسطورة انتشاراً واسعاً في بلاد ما بين النهرين حتى أضحت جزءاً من التراث الشعبي . وهي تشير بوضوح إلى الواقع المعاصر لها، وما وصلت إليها الأحوال من تَرَدٍّ، ولا سيما في بابل التي تخلى عنها إلهها وتركها لمصيرها بيد إله لا يرحم .

## ٣ـ أدب الحكمة :

ويجمع في دلالته كل الأعمال الأدبية التي تضع في أولويات أغراضها أهدافاً أخلاقية وتربوية ، كالأمثال المنظومة شعراً ، والقصص الدينية ، وكذلك ، كما في بلاد بابل ،

[5] ـــ أنظر لمزيد من الاطلاع كتاب : فاروق اسماعيل ، إرّا وملك كل الديار ، حلب ١٩٩٨ .

حكايـات الحـيوان ، والمناظرات أو المحاورات الثنائية . وترد الفكاهة أيضاً في كثير من تلك الأعمال عنصراً حافزاً على البهجة والنشاط ، ويحتل حيزاً مرموقاً فيها .

**الأمثال :**

تنتشر الأمثال الشعبية والطرائف المسلّية شفهياً في كل مكان. ويرتبط كثير منها بعصره، ثم يطويها النسيان بسرعة . بينما تعبّر أخرى بتركيز أكبر عن مسائل إنسانية مشتركة ، فتنتقل من شعب إلى آخر .

وقـد تـرجم البابليون عن السومرية مجموعة من الأمثال ، ومنها نذكر : لدغ عقرب إنسـاناً فماذا استفاد ؟ وأوصل واشٍ إنساناً إلى الموت ، فما الفائدة التي حققها ؟ ومثل هذه الأمثال تؤدي معنى النقد اللاذع أو التوبيخ .

وثمة قصص فكاهية قصيرة تتألف غالباً من بضعة سطور ، ومن ضمنها كثير من حكايات الحيوان القصيرة ، وكذلك بعض القصص القصيرة المستوحاة من الواقع البشري ، وتهدف إلى التحذير من ممارسة الأعمال السيئة ، وقد صيغت بشكل متقن على غرار الحكايات العربية القصيرة . وترد الأمثال الشعبية أحياناً في ثنايا الرسائل . وهناك إشارات متفرقة إلى ألغاز ، ولكنها لم تُجْمعَ في مجموعات خاصة .

**٤ـ المناظرات وحكايات الحيوان :**

والمـناظرات تدور عادة بين طرفين ، يسعى كل واحد منهما إلى إظهار خصائصه وبيان فضـله وتفوّقـه ، وإلى الحط من قيمة الطرف الآخر . وبما أنها لا تستطيع الوصول إلى تفاهم واتفـاق ، فإن أحد الآلهة ، وأحياناً أحد الملوك ، يُستدعى كي يقرر أيهما أفضل في النهاية . وقـد يكـون طـرفا المناظرة من الآلهة أو من البشر ، كما في مناظرة الراعي الذي يمثل الإله دمـوزي والفلاح ، أو الأب وابنه أو في نطاق أوسع ، كما في مناظرة فصلي السنة : الصيف والشـتاء ، أو الخـروف والشعير ، أو المعول والمحراث ، وبين الحيوانات : الثعلب والذئب ،

الكلب والسبع ، الحصان والثور . وقد يحل إشكالية المناظرة أحد الطرفين ، كما يقع بين مالك الحزين والسلحفاة التي تنهي المسألة بالتهام بيوضه .

### ٥- حكايات فكاهية ساخرة :

في حكاية بابلية فريدة ، يعود تاريخ تدوينها إلى حوالي عام ( ١١٠٠ ) ق.م نقرأ عن الفقير ( جيميل نينورتا ) الذي دفعه اليأس إلى إهداء محافظ نيبور كل ما يملك ، وهي نعجته الوحيدة ، على أمل أن يحظى منه بأعطية مناسبة . ولكن المحافظ يصدّه بازدراء ، فلا يحصل منه سوى على كأس من البيرة . لذلك يقول لبواب المحافظ عند الانصراف : إنه سينتقم من المحافظ ثلاث مرات .

وكان أول ما فعله هو أنه قصد ملك البلاد ورجاه أن يُعيره عربة فخمة ، وسار بها إلى المحافظ ، وطالبه ، ممثلاً دور المندوب الملكي ، بضرورة عقد لقاء خاص بينهما . وخلال اللقاء قام بضرب المحافظ من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين بقسوة ، كما أرغمه على دفع أجرة العربة بالذهب .

ثم تنكر في هيئة طبيب يعالج الذين يعانون من انسلاخ وتقشر الجلد ، وانفرد بالمحافظ وردّ الإساءة القديمة بضربه ضرباً مبرحاً كالمرة الأولى .

وعندما قرر المحافظ أن يلاحقه ، هو وخدمه ، استطاع الفقير أن يجذب المحافظ ، وأن يوقعه في قبضته ، وينفرد به للمرة الثالثة ويقوم بضربه كالعادة . ثم ينتهي النص بالعبارات التالية : لم يستطع المحافظ أن يعود إلى المدينة ثانية إلاّ زاحفاً .

ونجد في هذه الحكاية تعبيراً عن حُلم بعض الناس آنذاك بالانتقام من المتسلطين الأقوياء والرد عليهم بمثل أفعالهم ، ولا بد أنهم كانوا يبتسمون في قرارة أنفسهم ويضحكون لمثل هذه الحكايات ، كما نفعل في عصرنا .

## ٦ـ الخاتمة :

وإضافة إلى ما ذكرنا من موضوعات أدبية ، نختم الحديث بذكر موضوعات أخرى متنوعة دون التفصيل فيها ، من مثل المدائح الدينية . والابتهالات إلى الآلهة والأدعية ، والتعويذات . ويلاحظ في ابتهالات خاصة وجود عبارات تذكّر بمزامير كتاب العهد القديم ، مع اختلاف واضح في اسم الإله وصفاته . وثمة مزمور في الشكوى يحتل مكانة فريدة في الأدب الديني ، وهو المعروف بالعنوان " لأمجّدَنّ سيد الحكمة " . إنه يعرض في مجموع أبياته التي تبلغ ( ٤٨٠ ) بيتاً شكوى طويلة على لسان موظف ذي مرتبة عالية ( في نحو ١١٠٠ ق.م ) ، فهو يشكو من أمراضه الكثيرة ، ومن التمييز الطبقي الاجتماعي السائد ، مما أوصله إلى حافة الموت ، بل وإلى الشك في عدالة الآلهة لدى المعذّبين الذين لم يرتكبوا آثاماً كثيرة ، ووصل ذلك لدى الكثيرين إلى درجة ظنوا فيها أن لا مخرج من التعددية الإلهية، طالما أن الإنسان المعذب يجد نفسه مضطراً إلى أن يغيظ بعض الآلهة من خلال تفضيل آلهة معينة واختيارها في الدعوات ، وبذلك يجلب لنفسه شرّها وعدم رضاها عنه . فبات لا يعرف تماماً ماذا يريد الإله منه ، ولا شيء يساعد في ذلك ، كما هي الحال عند أيوب في كتاب اليهود المقدس ، العهد القديم ، غير الاستسلام للإرادة الإلهية ، وينعكس ذلك في مصير الإنسان المعذب ، وفي رجائه الخلاص من العذاب ، ولو أن ذلك غالباً ما يبقى دون استجابة . ولكن الإله مردوك يوحي إلى عبده أخيراً بالخلاص بوساطة رسولٍ جاءه في الحلم . وكما في سفر أيوب تتراكم الآلام وتصل إلى حد يتجاوز قدرة الفرد على التحمل .

وثمة حوارية تعود إلى نحو ٨٠٠ ق.م تدور بين صديقين ، يعبّر أحدهما ويدافع عن الموقف التقليدي الشائع من الآلهة ، أما الثاني فيعارضه ويتشكّى من ظلم الآلهة ، ويلاحظ أن البابليين لم يهتموا كثيراً بمسألة موقف الإنسان من الآلهة[6] .

---

[6] ـ للاطلاع على مزيد من المعلومات ينظر كتاب :

W. von Soden, Einführung in die Altorientalistik. Darmstadt 1985 , S. 194 ff.

وقد نقله إلى العربية د. فاروق اسماعيل ، وراجعته ، وهو قيد الطبع .

# الحضارة الكنعانية

# الحضارة الكنعانية

يفـــترض الباحثون المختصون أن شبه الجزيرة العربية شهدت موجات من الهجرات التي انطلقت في فترات متباعدة إلى الأطراف الشمالية منها ، ولاسيما إلى البادية السورية التي تُعَدُّ امتداداً لبواديها ، ويعدُّها بعضهم جزءاً منها ، ثم كان أولئك المهاجرون يتوجهون من البادية الســـورية شرقاً وشمالاً وغرباً . هم من القبائل البدوية أصلاً ، ولكنهم بعد أن يستقر بهم المقام في القـــرى والمدن يتحولون إلى قبائل متمدنة ، وسكان متحضرين ، يمارسون أنواعاً شتى من المهـــن والحــــرف ، ولا يلبثون أن يصلوا إلى سدة الحكم ، ويؤسسوا سلالات حاكمة ، وقد يقدَّر لهم أن يمتد حكمهم عدة قرون . هكذا كانت الهجرة الأكّدية أولاً في الألف الرابع قبل المـــيلاد إلى جنوبي العراق ثم الهجرة العمّورية ( الأمورية ) في الألف الثالث، ثم الهجرة الآرامية في الألف الثاني. وكانت هجرة العموريين / الأموريين من البادية السورية باتجاه الشرق ، أي إلى بـــلاد ما بين النهرين ، ومن هنا جاءت تسمية العموريين / الأموريين نسبة إلى الجهة التي قدمـــوا مـــنها وهـــي الغرب ، إذ سمّاهم أشقاؤهم الأكّديون امورّو بلغتهم ، أي " الغربي " و" الغربـــيون " ، كمـــا سمّاهم السومريون ، وهم سكان جنوبي بلاد ما بين النهرين أيضاً ، مـــارتو ، أي " الغـــرب " كذلك . كما انطلقت قبائل منهم باتجاه الشمال ، وبعضهم الآخر باتجـــاه الغـــرب ، إلى الساحل السوري في الوقت نفسه . وأطلق هؤلاء على أنفسهم اسم " الكنعانيين ". ولفظة كنعان معروفة في كتاب اليهود المقدس ، العهد القديم ، من اسم الأرض التي اغتصبها العبرانيون ، وكانوا يطلقون عليها في أم كتابهم اسم " أرض كنعان " . وقد يعود اســـم كـــنعان هذا إلى اشتقاق من مادة ( كنع ) السامية التي تعني " انخفض " ، تواضع " . وسميـــت أرض كـــنعان لانخفاضـــها عمـــا يجاورها بالقياس إلى الجبال والمرتفعات التي تقع إلى شـــرقها. وتذكر التوراة أن الكنعانيين كانوا يسكنون السهول والأراضي المنخفضة ، بينما كـــان الأموريـــون يستوطنون الجبال والمرتفعات . وتسمي النصوص الحورية كنعان كْناجّي

knaggi ، والنصـــوص الأكّديـــة تسميها كِناخّي kinakhkhi ، أي كناعّي ، إذ أن الكتابة المســـمارية تعـــبّر عن العين بالخاء ، كما في اسم خَمّورابي بالمسمارية وهو عَمّورابي باللفظ الصحيح . وتعني لفظة كْناخّي ، كِناخّي " الصباغ الأرجواني " ويبدو أن الكنعانيين اشتهروا بهـــذا اللون من الصباغ حتى أطلقه الآخرون عليهم ، ومنهم الإغريق ( اليونان ) الذي سموهم بلغـــتهم " فينيقيين " ، إذ عَرَفوا هؤلاء القادمين إليهم من البحر بأشرعة سفنهم الأرجوانية ، وأقمشـــتهم الـــتي كـــانوا يبيعونهم إياها . وهكذا طغى هذا الاسم " الفينيقيون " على اسمهم الأصلي " الكنعانيون " ، وشاع في التاريخ على حساب اسم الكنعانيين .

قَدِمَ الكنعانيون إذن مع الأموريين أصلاً من شبه الجزيرة العربية إلى بادية الشام في الألف الثالـــث قبل الميلاد ، ثم توجهوا بعدئذٍ إلى الغرب ، وانتشروا على طول الساحل السوري من خلـــيج الاسكندرون في الشمال إلى غزة ورفح في الجنوب ، حيث صار دارَ مستقرٍ لهم دون غيرهم. ويسمي بعض الباحثين لشدة صلتهم بالأموريين ، يسمي الأموريين كنعانيين شرقيين، أي يجعلـــون الأموريـــين فرعاً من الكنعانيين ، وليس العكس . ومما يؤكد الصلة الوثيقة بين القومين اللغةُ التي تجمع بينهما ، وتميزها من اللغات السامية الشقيقة .

وقـــد تمكن الأموريون من إقامة ممالك قوية في العراق وسورية ، ومنها المملكة الآشورية في شمـــالي العراق والجزيرة السورية ، وفي بابل أقام الأموريون المملكة العظيمة التي اشتهر من ملوكهـــا حمورابي . وفي سورية قامت دولة يمحاض في الشمال وعاصمتها حلب ، وكذلك دولة ماري على نهر الفرات ، وقطنا على نهر العاصي .

أمـــا الكنعانيون فقد أقاموا دويلات لهم على طول الساحل السوري ، في رأس الشمرة أوغاريـــت ، وإلى الجـــنوب منها أرواد التي كانت تسيطر على ما يقابل الجزيرة من أراض ، ويقـــوم معـــبدها الرئيس في عمريت ( قرب طرطوس ) . وإلى الجنوب منها جبيل ، وصيدا وصور . ومن بَعْدُ بيروت وطرابلس .

وقـــد خضع الكنعانيون لاتصالهم الوثيق بالبحر ، ولا سيما بمصر إلى التأثير الحضاري . وتـــأكدت علاقتهم بالمصريين سياسياً من خلال تبعيتهم الطويلة لمصر في عصر الدولة المصرية الحديـــثة ، وهـــو عصر التوسع المصري الكبير ( ١٥٧٥ ــ ١٠٨٠ ق. م ) وخضوع معظم مـــناطقهم الفينيقية للنفوذ المصري . ولم تنقطع العلاقات التجارية والثقافية بينهم وبين مصر ، ودول العـــالم الايجـــي ( اليوناني ) ، بل استمرت وتواصلت دون انقطاع حتى عصر البطالمة والســـلوقيين بدرجـــات متفاوتة من القوة والضعف . وكان لهذه العلاقات أن تبدأ منذ عصر الأسرات الفرعونية الأولى الذي عَرفَ أول اتصال تجاري بين مصر وجبيل بخاصة التي كانت الميناء المفضل عند المصريين حيث كانت لهم جالية كبيرة فيها طوال تاريخهم القديم .

وتظهـــر آثـــار الكنعانيين الدينية واللغوية منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد بوضوح في المـــنطقة . وهذا يعني أن وجودهم في المنطقة يعود إلى حقبة زمنية أقدم ، إذ تؤكد أسماء المدن الكنعانـــية التي يعود تاريخها إلى ما قبل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، مثل أريحا ، بيت شان، مجيدو أن أسلاف الكنعانيين سكنوا المنطقة وعمروها في فترة سابقة لظهور الوثائق الكتابية .

**اللغة الكنعانية :**

هـــي إحـــدى اللغات السامية وتشكل مع اللغة الآرامية ولهجاتها شعبتي اللغات السامية الشـــمالية الغربـــية . والسامية أو الساميون مصطلح ظهر لأول مرة في عام ١٧٨١ م على يد عـــالم نمســـاوي اسمه شلوتزر ، ابتدعه عندما كان يبحث عن اسم يجمع اللغات المعروفة في منطقة جنوب غربي آسية ، بما تضم من شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وبلاد الشام ، وهي لغـــات تـــأكد له أنها متقاربة ، متشابهة ، وكأنها لهجات تشعبت عن لغة واحدة ، من حيث الأصوات ، والألفاظ ، والتراكيب ، والبناء بشكل عام ، كما هو حال اللغة العربية الفصحى الـــيوم ولهجاتها المنتشرة بين الخليج والمحيط . وقد اهتدى إلى مصطلح السامية بعدما رجع إلى نـــص في التوراة يذكر اسم نوح عليه السلام ، وأولاده الثلاثة سام وحام ويافث ، وعثر على أسماء أولاد ســـام ، وهـــم الشـــعوب الـــتي انحدرت منه ، آشـــور ، وآرام ، وعابر ، ويقطان

( أو قحطان ) . ثم أضاف إلى الآشوريين والآراميين والعبرانيين ، والقحطانيين ، أي العرب ، أضـــاف إلى لغـــاتهم اللغة الحبشية ، وأضاف آخرون اللغة الأكدية بفرعيها البابلية والآشورية عـــندما ظهـــرت آثارها الكتابية المسمارية . فاكتملت معرفتهم بهذه اللغات التي دعيت نسبة إلى أهـــلها ، وإلى أمكنـــتها ، بظهـــور آثـــار الشعوب الأخرى ، وآخرها اللغة الإبلائية ، أو الإبلويـــة التي ظهرت آثارها في تل مرديخ قرب سراقب ، جنوب غربي حلب ، وقد نعثر على لغات أو لهجات أخرى ، كلما انكشفت آثار حواضرَ أخرى في المنطقة .

إذن اللغـــة الكنعانية هي لغة سامية غربية ، وتشتمل على لهجات أو لغات تتفرع عنها ، وهي : الأوغاريتية ، والفينيقية ، والعبرية ، والمؤابية ، والأدومية .

اما كتابتها فكانت تصويرية في البداية ، ومسمارية ، ثم أبجدية ، ألفبائية سنتحدث عنها لاحقاً .

## الديانة الكنعانية :

دان الكنعانـــيون كأشقائهم الساميين بالوثنية ، وكانت آلهتهم كثيرة ، إذ وصل عددها في أوغاريـــت إلى حـــوالي الســـبعين من الآلهة على الأقل وبينها عدد من الإلهات . وتذكر النصـــوص الأوغاريتـــية الإلهة أثيرت " خالقة الآلهة " وزوجة الإله الأب إيل . وتدعى أحياناً إيلات ، أي الإلهة ببساطة . ولكن الإلهة عنات هي التي تحتل مركزاً هاماً في عالم الآلهة ، ومن صـــفاتها " البتول " ، وهي إلهة الحب والجمال والخصوبة ، وفي الوقت نفسه إلهة الحرب . إنها ربـــة متناقضة الطباع والصفات ، تذرف الدموع بسخاء على موت أخيها بعد مقتله ، ويهفو قلبها إليه بحب جارف ، وينبض بعاطفة صادقة ، وتبدو في شخصية الكائن الرؤوم الذي يشع محـــبة وحناناً رائعاً . ولكنها سرعان ما تتقمص شخصية مغايرة تتسم بحب الانتقام الشنيع من قـــاتل أخيها . وثمة شواهد كثيرة على حبها للعنف ، ومنها تهديدها لوالدها إيل نفسه مرتين بضـــربه على الرأس حتى يترف دمه إن لم يستجب لطلبها . ويرد في أحد النصوص أن عنات تســـلّي نفســـها بمذبحة يسقط ضحيتها " ناس من الشرق وناس من الغرب " ، أي من جميع

جهـــات العـــالم، وتتخذ لنفسها من أيديهم المقطوعة ورؤوسهم المفصولة زينة ، وهي تخوض بدمـــائهم. وتظهـــر في الرسوم الأوغاريتية في الغالب عارية ، وأحياناً وهي تحمل خوذة على رأســـها ، وتلـــوح بـــيديها بالأسلحة . وقد وصلت عبادة عنات إلى مصر مع الهكسوس ، وتدعوهـــا النصوص الهيروغليفية " ربة السماء ، وسيدة الآلهة " ، وسمّى الفرعون سيتي الأول عربة القتال الخاصة به باسمها تيمناً بها، كما دعا رعمسيس الثاني إحدى بناته " بنت عنات "، ولقـــب نفســـه " بطل عنات " ، وسيفه " عنات المنتصرة " . وهناك أسماء أمكنة في فلسطين وأسمـــاء عـــلم ورد ذكرها في أسفار العهد القديم باسمها ، مثل " حصن بيت عنات " ، وعنا تـــوت ( الـــيوم عناتا ) ، وبن عنات ... وعنات هذه هي عشتار في بلاد ما بين النهرين ، وعشـــتروت في كـــتاب العهـــد القديم ، وتقابل الإلهة أفروديت عند الإغريق ، وفينوس عند الرومان ، وإيزيس عند المصريين القدماء ، وتمثل كوكب الزهرة . ومن اللافت أن تأثير الوثنية عند اليهود لم ينقطع حتى في زمن سليمان الملك في كتاب العهدالقديم حيث يبني سليمان للربة الكنعانية معبداً في شرقي أورشليم[1] ، كما بنى لغيرها من الآلهة ، وفعل مثله غيرها من الملوك .

يقـــف الإلـــه ( إيل ) على رأس مجمع الآلهة الكنعاني ، ويُعَدُّ أباً للآلهة وللبشر ، وملكاً علـــيهم جميعاً ، ما عدا ( بعل ) الذي أزاح الإله الطيب والعجوز ( إيل ) عن الحكم جانباً . فهو الإله الشاب الممتلئ قوة وحيوية، الذي يبدو في الرسوم الأوغاريتية شاباً منتصب القامة ، ويتقدم بخطى موزونة ، وهو يضع قلنسوة مذهبة على رأسه ، ويرتدي إزاراً مطرزاً ، ويمد يده اليســـرى إلى الأمـــام وفيها رمح أو يصدر عنها البرق ، ويحمل في اليد اليمنى هراوة أو أداة أخـــرى للقتال . إنه يمثل إله الطقس برعده وبرقه ، وصواعقه كل التمثيل . أحبّه السكان في كل مكان من الشرق القديم ، في سورية خاصة ، وفي آسية الصغرى ، وبلاد الرافدين ، وكان يحمـــل أسماء أخرى ، مثل : أَدَدَ ، أدّو ، أد ، تيشوب ، حدد . ومرد ذلك إلى وضع المنطقة المـــناخي الـــتي كانـــت تعتمد على السقاية الطبيعية بمطر السماء أكثر من اعتمادها على ري

---

[1] ـــ سفر الملوك الأول ١١ / ٥ ، ٣٣ . سفر الملوك الثاني ٢٣ / ١٣ .

الأنهار. ويعني اسم الإله بعل " الرب ، السيد " . وكثيراً ما كان يُعْرَف في النصوص نسبة إلى الأماكن التي كان سيدها، فهو بعل صيدون ( صيدا ) ، وبعل جبَل ( جُبْلة / جُبَيل / بيبلوس) وبعل لبنان، وبعل حران ... كما كان للمدن الفينيقية ( بعلة ) ، واشهرها كانت بعلة جبيل.

وكان الأوغاريتيون يعتقدون أن مسكن ( بعل ) على جبل صفان ( الأقرع اليوم ) الذي يبلغ ارتفاعه ١٧٧٠ م فوق سطح البحر . وكان الأوغاريتيون يرونه من بعد ( ٥٠ ) كم بوضوح ويعتقدون أن قصره الذي بناه بإشراف إله الحرف والفنون كوثر كان المكان الذي يصدر عنه صوت بعل ، فيدوّي الرعد ، ويلمع البرق ، وتنهمر الأمطار ، وترتعش أبدان البشر خوفاً وهي تتطلع إلى السماء . وإذا اختفى ( بعل ) حل الجفاف ، والقحط ، والمجاعة ، والبؤس . والإله ( بعل ) هو بطل الأسطورة المشهورة في أوغاريت . أما رمز الإله ( بعل ) فهو الثور الذي يُعَدُّ رمزاً للخصوبة في الشرق الأدنى القديم . وينسب ( بعل ) إلى ( داجان )، كما تذكر الكتابات الأوغاريتية ، الذي يُعَدُّ والده المباشر . ومن صفة السيد ( أدون ) بالكنعانية اتخذ الفينيقيون ، أي سكان الساحل اللبناني بخاصة اسم الإله ( أدونيس ) المرادف لاسم بعل ، كما صار يلفظ باليونانية بوجود النهاية ( س ) ، والأصل أدوني أي " سيدي " ، وهي اللفظة التي كانوا يخاطبون بها ربّهم . ودعوه ايضاً باسم مِلْك أي مَلِك ، وكذلك دُعِي إله صور مِلْقارت ( بالفينيقية : مِلْك قَرْت ، أي ملك المدينة )، وهو إله انتشرت عبادته في المستوطنات الفينيقية التي أنشأتها مدينة صور على سواحل البحر المتوسط ، ولا سيما في قرطاجة ( في تونس اليوم ) .

كما عبد الكنعانيون آلهة أخرى كالإله ( موت ) الذي يلعب دور الخصم والعدو الأول لبعل، فهو إله العالم السفلي ، ويتبين من اسمه أنه رب القحط والجفاف والموت . والإله ( يَمْ ) الذي هو رب البحر الذي يصرعه ( بعل ) ويُلْجِمه . وعبدوا الشمس ( شَبْش ) ، والقمر (يَرِخ) و ( إشمون ) إله الشفاء ، وداجان إله الحبوب ... وغيرهم .

## الأدب الكنعاني :

لم يصـــلنا من الأدب الكنعاني قبل قراءة النصوص الأوغاريتية شيء يذكر . وقد ازدهر الأدب الأوغاريتي، كما ازدهرت التجارة في عهد الملك نيقمادو الثاني ( حوالي ١٣٥٠ ق.م ) الـــذي شـــهد تدوين الأساطير الأوغاريتية ، وهي تمثل بحق نموذج الأدب الكنعاني ، بملامحه الشعرية وأساطيره التي ابتكرتها مخيلة الأوغاريتيين عن عالم الأرباب ومصير الآلهة وأشباههم من الأبطال الخالدين .

وتمـــثل الموضـــوعات الأدبية فكر الكنعانيين ومعتقداتهم ، وتعكس آراءهم حول الكون ومظاهره التي تتبدّى في طبيعة أرضهم التي تعتمد في خصوبتها على مياه الأمطار والندى أكثر مـــن اعتمادها على مياه الجداول والأنهار ، وتختلف بذلك عن طبيعة الأرض في بلاد الرافدين ووادي النيل ، لذلك نجد شخصية الإله ( بعل ) ، وهو إله المطر والصواعق والسحاب، تحتل مركـــز الصـــدارة في الميثولوجيا الكنعانية ، وتستقطب أكثر المدونات الكنعانية، وفي مقدمتها الأوغاريتـــية . وقد دوّن الأوغاريتيون أسطورته التي تدور أحداثها حوله على مجموعة متعددة مـــن الرُقُم إلاّ أنها تنتظم في مسار واحد يؤدي إلى فكرة الصراع بين الخير والشر ، بين الحياة والمـــوت ، بين الخصب والقحط . أو هي فكرة صراع قوى الحضارة والبناء والنظام من جهة مع الموت والدمار والفوضى من جهة ثانية ، قصة بلا نهاية .

يـــبدأ صراع ( بعل ) مع قوى الشر والدمار بالهجوم على الإله ( يَمّ ) الذي كان يسعى إلى السيطرة على ( بعل ) ، ويساعده في الانتصار عليه ( كوثر ) الذي يزوّده بأسلحة سحرية تكفل له التغلب على خصمه . فيبدو ( بعل ) على هيئة النسر الذي ينقض على خصمه الجبار المـــرة بعد المرة حتى يتمكن منه ويرديه أرضاً .لكن ( بعل ) لا يزهق روح ( يم )نزولاً عند نصيحة الإلهة عشتروت ، بل يبقي على حياته أسيراً ملك يديه ، ويكتفي بتحديد إقامته ضمن البحر ويحدّ من طغيانه على اليابسة .

بعد انتصار بعل على يَمْ يقرر بناء قصر له أسوة بالأرباب العظام الذين غدا سيدهم بعد أن انتزع السلطة من إيل أبي الأرباب الكنعانيين . ويرمز انتصاره على يَمْ إلى انتصار قوى النظام والحضارة على قوى الفوضى والعماء . كما يرمز بناء القصر إلى تصميم قوى البناء والحضارة على السعي الحثيث لترسيخ أسس العمران والتقدم ، وتبدأ بذلك دورة الحياة المتواصلة ، وانتظام أمور الكون ، واستتباب الأمان والاستقرار . ولكن لا بد من مواجهة قوى الشر والموت التي تتربص بالخير وبالحياة على وجه الأرض بمختلف أشكالها في كل مكان وزمان . فينحدى بعل الإله ( موت بن إيل )، رب العالم السفلي ورب الجفاف والقحط ، ويبعث إليه رسله الذين ينقلون إلى ( موت ) تحدّيه ، وأنه رب الأرباب من دون منازع . فيدور صراع بين الخصمين الكبيرين ، وينتصر الإله ( موت ) في البداية . فتهرع أخته وحبيبته الربة عنات مسرعة إلى ( موت ) ترجوه إعادة بعل الذي أهلكه ( موت ) إلى الحياة. ويصور كاتب النص جَزَعها على ( بعل ) ، ويصف عاطفتها وتضرّعَها بلغة شعرية ، وأسلوب بلاغي رفيع إذ نقرأ :

*كقلب البقرة على عجلها*
*وكقلب الشاة على حَمَلها*
*كذلك كان قلب عناة على بعل*

ولكنها عبثاً تحاول مع ( موت ) الشرير ، إذ تمر شهور دون أن تلقى توسلاتها لدى ( موت ) أية استجابة . ولما عيل صبرها ، وطال انتظارها ، ثارت ثائرتها على ( موت ) ، وقررت اللجوء إلى العنف والمجابهة ، وهي إلهة الحرب والانتقام الرهيب ، كما بيّنا من قبل وهاجمت ( موت ) ، كما يصورها كاتب الأسطورة إذ يقول :

*فأمسكت بموت بن إيل*
*بالسيف شطرته*
*بمذراة الحبوب ذَرّته*
*في البرية نثرت رُفاته ...*

وتعـود الحياة إلى ( بعل ) من جديد ، ويباشر نشاطه المعتاد ، فتهطل الأمطار ، وتعود الخصوبة إلى الأرض، وينتعش الإنسان والحيوان والنبات ، ويعم الخير وتكثر الغلال والمحاصيل، وتـتكاثر الأنعام بعد تغلب عنات على موت ، وقضاء بعل هو الآخر على قوى الشر الموالية لمـوت .وتكتمل بذلك الدورة الزراعية السنوية . ولكن الأسطورة لا تفسر الدورة الزراعية السنوية فحسب ، بل الغاية منها في الواقع البحث عن تفسير لأدوار الخصب والجفاف التي تمر بهـا أراضي سورية التي تعتمد على أمطار الشتاء والخريف ، وبعدها أمطار الربيع القليلة نسبياً في حياته الزراعية . فالإله بعل يُحْييها بهطولاته ويسقيها . وقد احتفظ السكان في بلاد الشام حتى عصرنا بتسمية الأراضي التي تعتمد على الأمطار في ريّها باسم " الأرض البعلية " . ويبدو أن سكان سورية القدماء من الكنعانيين والآراميين قد توصلوا إلى أن دَوْر الخصب كان يدوم سـبعاً من السنين ، وهي المدة التي بقي فيها موت عاجزاً عن التصدي لبعل ، كما يتضح من الأسـطورة . وبعد انقضاء المدة يعود القتال بين بعل وموت من جديد ، وينتصر موت على بعل الذي يختفي في عالم الموت السفلي ، فتنحبس الأمطار ، وتجف الأرض ، ويموت النبات ، ويجـوع البشر والحيوان ، ويسود القحط ، ويحل دَوْر الجفاف والجدب مدة من الزمن تطول أحـياناً أو تقصر . وهكذا يتناوب الدوران اللذان يسود في كل واحد منهما بعل أو موت ، إشـارة إلى أوضـاع سورية المناخية التي تتميز بتعاقب سنوات العطاء والخيرات ، وسنوات القحط العجاف . ويؤكد ما ذهبنا إليه في التراث الأسطوري الأوغاريتي قصةُ أقهات ، وقصةُ الـنبي يوسف في القرآن الكريم وفي التوراة التي تتحدث عن سنوات القحط السبع ، وغيرُها من الشواهد التوراتية .

وعـلى الرغم من وضوح الموضوع في أسطورة بعل التي تشبه المأثور من أساطير الشرق القـديم ، وأقـربها أسطورة دوموزي / تموز السومرية / البابلية ، وأدونيس الفينيقية ، وحدد الآرامـية ، فإنـه يتعذر التوصل إلى ترتيب الرُقُم المتعددة بحيث يتضح تسلسل فصول القصة الأسـطورية كما كانت في الأصل ، إضافة إلى أن قَدْراً كبيراً من التشويه والنقص قد أصاب الرقم المذكورة بمرور الزمن ، وبفعل عوامل الطبيعة

وتتحدث أسطورة أقهات التي صيغت بأسلوب شعري أخّاذ عن رجل صالح اسمه دانيال لم ترزقه الآلهة بولد . فيتدخل الإله إيل ويلبّي رغبته في الولد بإيعاز من الإله بعل الذي تضرع إلـيه دانيال . فينشأ الولد أقهات نشأة الرجال الشجعان ، ويُهْديه والده قوساً صنعه له رب الفنون كوثر . وعندما تراه عنات تطمع في امتلاك القوس وتعرض عليه فضة وذهباً ، ثم الحياة الأبديـة فـيأبى التنازل عن القوس، ويتهمها بالكذب لأنها لا تملك مَنْحَهُ الحياة الأبدية ، ولا تعـرف استخدام القوس . عندئذ تشعر عنات بالإهانة وتقرر الانتقام من أقهات العنيد الذي تطـاول عـلى الربة واقترف بذلك إثماً لا يغتفر . فاتجهت إلى أبيها إيل وهددته بأنها ستُدمي رأسـه إن لم يسـتجب لطلبها ويوافق على انتقامها . عنات توقِع بالشاب العقابَ عن طريق صـقر يـنقض علـيه ويخطف حياته . ثم تندم وتبكي حزناً لما حل بأقهات الذي لم تكن قد خططـت لإزهـاق روحه ، بل الإكتفاءِ بإيذائه . فتُجدِب الأرض ويحل بها القحط . ويبلغ دانـيالَ خـبرُ القحط ، ثم خبرُ موت ابنه الوحيد . فيعلن الحزن سبع سنوات . ولكن أخت أقهات تنتقم من القاتل الذي أوكلت عناتُ أمرَ التصرف مع أقهات والانتقام منه .

وثمـة أسـطورة كرتْ التي تتحدث عن ملك أسطوري نكبته المصائب وتسلطت عليه الأوبئة ، ثم تزوج ابنة ملكٍ أنجب منها سبعة أولاد ، ذكوراً وإناثاً ، كما أشار عليه الإله إيل ، خـلال سبعة أعوام عوضته عما حصل . ثم يقع كرت في المرض ، فتسوء أحوال البلاد وتحل بهـا المجاعـة إلى أن ينقذه الإله إيل بعد أن يسأل الأرباب أن تشير عليه بما يجب فعله . ولكن القصـة تبقى من دون نهاية ، لأن الرُقمُ غير كاملة ، وكذلك البداية التي تبدو لنا أيضاً ناقصة. ومـن المعتقد أن قصة كرت فيها من النقاط ما نجده في الأساطير الأخرى والقصص المعروفة لدى شعوب الشرق القديم ، وفي أسفار العهد القديم ، ولدى الإغريق ، وغيرهم من الشعوب فالمصائب التي حلت بكرِت تذكرنا بالمحن التي حلت بأيوب ( التوراتي ) .

## الكتابة لدى الكنعانيين :

مرت الكتابة بمراحل متعددة حتى وصلت إلى ما نعرفه اليوم من كتابات تُدْعى أبجدية أو ألفبائية . المرحلة الأولى هي المرحلة التصويرية التي كان يعبر فيها الإنسان عن الأشياء التي يريد أن يكتبها بصورها .

والمـــرحلة الثانـــية هي المرحلة المقطعية ، وكانت طريقتها تعتمد على كتابة الألفاظ بعد تقطيعها إلى مقاطع صوتية تذكرنا بالتقطيع العروضي في الشعر إلى حدٍ كبير .

أما الألفبائية أو الأبجدية فهي التي تعرفها اليوم معظم كتابات العالم ، ويُرْمَز فيها إلى كل صـــوت على حدة برمز هو الحرف . ولعل الكنعانيين لم يقدموا للإنسانية هدية أجلّ وأعظم مـــن الكـــتابة الأبجديـــة التي كان لهم الفضل الأول في ابتكارها : في أوغاريت ، وفي جبيل الـــتي يدعوهـــا الاغريق بيبلوس Byblos التي اشتقوا منها لفظة Bible المعروفة بمعنى " الكتاب المقدس "

ففي أوغاريت عثر علماء الآثار في عام ١٩٢٩ على رقم مسمارية تختلف في أشكالها عن الكـــتابات المسمارية المألوفة من سومرية وأكّدية . فظنوا أنها كتابة مقطعية . ولكن بعد عدة أشهر توصل علماء الكتابة المسمارية ، وفي مقدمتهم ألماني هو Hans Bauer باور ، والفرنسيان دورم Edward Dhorme وفيرولـــو Charles Virolleaud إلى فـــك طلاسم هذه الكتابة التي تشـــتمل على ثلاثين شكلاً مسمارياً. بينها ثلاثة اشكال تمثل الهمزة بأشكال مختلفة : مفتوحة ومضـــمومة ومكســـورة . وبعـــد حوالي ست وعشرين سنة من العثور على أول تلك الرقم اكتُشِـــفَت كِسْـــرة من رقيم تضمنت قسماً من الأحرف المذكورة وإلى جانبها ما يقابلها من المقـــاطع الأكّدية ( البابلية ـــ الآشورية

أ ، ب ، ج ، خ ، د ، هـ ، و ، ز ، ح ، ط ، ي ، ك ، ش ، ل ، م ، ذ ، ن ، ظ ، س[١] ، ع ، ف ، ص ، ق ، ر ، ث ، غ ، ت ، أُ ، إِ ، س[٢] .

وتأكد لنا أن هذه الكتابة هي أقدم كتابة أبجدية ( ألفبائية ) عرفها تاريخ البشرية . وتكتب حروفها من اليسار إلى اليمين ، ويُعتقد أن تاريخ اختراع هذه الكتابة في أوغاريت يعود إلى القرن ( ١٥ )ق.م . ثم تقلص عدد حروف الأوغاريتية في الزمن القريب من هلاك أوغاريت في نهاية القرن ( ١٣ ) وبداية القرن ( ١٢ ) ق. م إلى ( ٢٢ ) حرفاً ، وغدت قريبة من الكتابة الفينيقية والعبرية الكنعانيتين .

أما **الكتابة الفينيقية** التي يمثل هيئتها القديمة نص فينيقي وُجِدَ على قبر ملك جبيل أحيرام يرقى تاريخه إلى عام ١٠٠٠ ق.م تقريباً ، فقد تمّ اختراعها قبل ذلك طبعاً ، في مدينة جبيل . وتختلف عن الكتابة الأوغاريتية من حيث الشكل تماماً : فقد ذكرنا أن الكتابة الأوغاريتية ذاتُ شكل مسماري . أما الكتابة الفينيقية فيبدو لنا أن أشكال الحروف فيها تدل على أصل صوري. فشكل حرف الألف أصله شكل رأس الثور، والثور في اللغة الكنعانية اسمه ( ألف ). وشكل حرف الباء أصله شكل صورة البيت ، والبيت في اللغة الكنعانية اسمه ( بيت ) . وشكل حرف الجيم أصله صورة الجمل ، والجمل في اللغة الكنعانية اسمه ( جيمل ) ... وهكذا حتى نصل إلى ( ٢٢ ) حرفاً . وقد استدل الباحثون على أن أسماء الحروف مشتقة من الأشكال المأخوذة منها ، أما لفظها فيعود إلى لفظ الصوت الأول من الصورة أ، ب، ج، د، ... إلخ . وبذلك استدل الباحثون على تأثير للكتابة الهيروغليفية المصرية، أو على تأثر بالهيروغليفية من حيث الشكل ، لا من حيث المبدأ بهذه الكتابة التصويرية ، كما نجد تأثير الأوغاريتية بالسومرية / الأكّدية من حيث الشكل المسماري أما المبدأ فمختلف كُلّيّةً .

بقيت الكتابة الأوغاريتية محلية ، ضمن حدود المملكة الصغيرة ، بينما انتقلت الكتابة الفينيقية عن طريق التجار الفينيقيين ( الكنعانيين ) إلى العالم القديم غرباً إلى المستعمرات الفينيقية ، وإلى شعوب البحر الأبيض المتوسط كلها . فأخذها الإغريق ( حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ) ، واحتفظوا بأسماء حروفها ، فقالوا : ألفا ، بيتا ، جاما ، دلتا ... وبترتيبها إلى حد كبير بعد أن طوّعوها بحيث تناسب لغتهم وأصواتها ، واستخدموا حروف الحلق

للتعـبير عن الأصوات الصائتة . ثم نقل الرومان عن الإغريق ، وغيرهم من الشعوب الأوربية هـذه الكـتابة بعد أن طوروا أشكالها ومنهم انتشرت فيما بعد ، واستخدمتها لغات العالم الغـربي : الإنكلـيزية ، والفرنسـية ، والألمانية والإيطالية ... واقتبسها الأشقاء الآراميون ونشروها في العالم الشرقي ... ووصلت هذه الكتابة إلى العرب العدنانيين عن طريق السريان في الحيرة فنشأ الخط الكوفي ، وعن طريق إخوانهم الأنباط فنشأ الخط النسخي الحجازي .

دُوِّنَـت الكـتابة الفينيقية بحروف منفصلة من اليمين إلى اليسار ، بينما سلك الإغريق ، ومـن تبعهم لاحقاً اتجاهاً معاكساً من اليسار إلى اليمين بعد أن كتبوا في البداية من اليمين إلى اليسار .

ولا بد أن نذكر أخيراً أن الفينيقيين اشتهروا بقدرتهم الملاحية فكانوا أول من قام في بداية القـرن السادس ق.م بالدوران حول إفريقية ، وذلك بتكليف من الفرعون نيكاو الثاني ، كما وصـل أهل قرطاجة الفينيقيون في بداية القرن الخامس ق.م إلى جنوب غربي بريطانية بسفنهم الـتي عـلموا فن صناعتها للإغريق كما علموهم الكتابة ، ونقلوا إليهم الحضارة ، وتاجروا بالـزجاج والأنسـجة ، وجلبوا المعادن التي صنّعوها في مدنهم ، ثم أعادوا بيعها في الأسواق العالمـية آنـذاك ، فكانوا بحق أول شعوب العالم في فن الملاحة والتجارة . وقد عبر عن ذلك حزقـيال في السفر الذي يحمل اسمه من أسفار كتاب العهد القديم ( الإصحاح ٢٧ ـــ ٢٨ ) حـين ذكر صور التي ترمز لكل الفينيقيين : *ياصورُ ، أنت قلتِ أنا ( سفينة ) كاملة الجمال . تخومك في قلب البحار . بنّاؤوك تمموا جمالك ، عملوا كل ألواحك من سرو حرمون . أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوه لك صواري. صنعوا من بلوط باشان ( حوران والجولان ) مجاذيفك . صنعوا مقاعدك من عاج مُطَعَّم في البقس من جزائر كتّيم . كتان مطرز من مصر هو شراعك لـيكون لك راية . الأسمانجوني والأرجوان من جزائر أليشة كانا غطاءك. حكماؤك يا صور الـذي كانوا فيك هم ربابينك . شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا قلاّفوك . جميع سفن البحر وملاّحوهـا كـانوا فـيك ليتاجروا بتجارتك ... ترشيش تاجرتك بكثرةِ كل غنِى بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك ... بآنية النحاس أقاموا تجارتك ... ومن بيت*

*توجَرْمَة ... بنو دَدَان جزائر كثيرة تجارُ يدكِ . أدوا هديتك قروناً من العاج والأبنوس . أرام تجـــارتك بكثرة صنائعك تاجروا في أسواقك بالبَهْرمان والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت ... تاجروا في سوقك بحنطة ... وعسل وزيت وبَلسان . دمشق تاجرتك ... إلخ*

[ أسمـــاء مـــدنٍ ودول وبضـــائع شتى يذكرها حزقيال وهو يرثي صور بعد سقوطها على يد نبوخذ نصر الثاني لتكون عبرة لليهود المتمردين على إرادة الله ... ][٢] .

---

[2] ــ لمزيد من الاطلاع أنظر : أحمد ارحيم هبو ، تاريخ الشرق الأدنى القديم ( ١ ) سورية ، صنعاء وبيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٩ ، ص ٢٣٣ .

# سكان فلسطين

## عند غزو القبائل الإسرائيلية في نصوص العهد القديم

# سكان فلسطين

## عند غزو القبائل الإسرائيلية في نصوص العهد القديم

— ١ —

"العهد القديم" هو اسم كتاب اليهود المقدس ، كما اصطلح على تسميته، ويقابله "العهد الجديد"، أي الكتاب الذي يحتوي على الأناجيل الأربعة المعروفة عند المسيحيين . ويطلق على الكتابين كليهما ، العهد القديم والعهد الجديد ، اسم " الكتاب المقدس " .

أما كتاب العهد القديم نفسه فيسميه اليهود كذلك تنخ نسبة إلى الحروف الثلاثة التي تبدأ بها أقسامه الثلاثة. فالتاء أول حرف من كلمة " توراة "، وهذه تعني (الشريعة والقانون)، أي الشريعة التي أتاهم بها موسى عليه السلام، والنون أول حرف من كلمة " نبيئيم " أي "الأنبياء" . والخاء الذي هو في الكتابة كاف ، ولكن لفظه يتحول إلى خاء بحسب قواعد اللفظ في اللغة العبرية، هو أول حرف من كلمة كتوبيم ، أي " مكتوبات " بمعنى "النصوص الدينية" من شعر وتاريخ وغيرهما من الكتابات التي ليس لها صلة بالشريعة والدين .

فالعهد القديم يشتمل إذن على ثلاثة كتب ، أو أقسام ، هي : التوراة ، والأنبياء ، والمكتوبات ، وينقسم كل كتاب منها إلى أسفار ، وتتوزع الأسفار على إصحاحات .

أما كتاب التوراة فيتألف من خمسة أسفار هي : سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر اللاويين ، وسفر العدد ، وسفر التثنية . وينسب اليهود التوراة إلى النبي موسى عليه السلام ، وتدعى لذلك باسم " أسفار موسى الخمسة " مع أن مضمونها يشير في بعض مواطنه إلى أنه

ليس واضعها. وتتضمن أسفار التوراة أحداثاً تاريخية مر بها العبريون (أو العبرانيون) كما كان أبناء إبراهيم عليه السلام من ابنه إسحاق يُدْعَون ، ثم صاروا يدعون إسرائيليين نسبة إلى "إسرائيل" الذي هو ( يعقوب بن اسحق بن إبراهيم ) نفسه .

وبنو إسرائيل هم الأسباط الإثنا عشر ، أي القبائل الإسرائيلية التي غزت فلسطين واتخذتها موطناً لها ، كما تروي أسفار العهد القديم، ولا سيما أسفار التوراة وأسفار الأنبياء .

أما أسفار المكتوبات فيُعنى بعضها برواية أحداث الإسرائيليين بعد استيطانهم فلسطين .

ويتفق الباحثون على تاريخ غزو القبائل العبرية لأرض كنعان ـــ كما كانت تدعى فلسطين في التوراة ـــ في نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي ، أي في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

وإذا عدنا إلى المصادر التاريخية الأساسية التي ترفدنا بالمعلومات المباشرة عن هذه الفترة وعن الفترة التي سبقتها ، فإننا نجدها عزيزة ، قليلة. ويتصدر تلك المصادر ما يعرف باسم " رسائل تل العمارنة " التي ضمها أرشيف فرعون مصر أمنحوتب الثالث(١٤١٣ـــ ١٣٧٧ ق.م) وخليفته أمنحوتب الرابع (١٣٧٧ـــ١٣٦٠ ق.م) الذي عرف بإصلاحاته الدينية وعبادته التوحيدية فاتخذ اسم " إخناتون " . وقد كتبت تلك الرسائل بلغة العصر الدبلوماسية وهي اللغة البابلية القديمة، وتعد خير مصدر تاريخي يوضح أوضاع فلسطين ويبين العلاقات السائدة آنذاك بين حكام مدنها من جهة، وبين أولئك وأسيادهم الاسميين فراعنة مصر من جهة ثانية ، إذ إن نفوذ المصريين كان يبدو ضعيفاً من خلال القسم الأعظم من تلك الرسائل التي تخص شؤون فلسطين .

أما المصدر الثاني فهو النصوص التي عثر عليها علماء الآثار في بوغاز كوي التركية ـــ ختوشا الحثية ، والتي تضم وثائق تاريخية نقشت باللغة الحثية وباللغة الأكدية .

والمصدر الثالث يتمثل في أخبار فراعنة الأسرة التاسعة عشرة سيتي الأول (١٣٠٨ـــ ١٢٩٠) ورمسيس الثاني (١٢٩٠ـــ ١٢٢٤) عن حملاتهما المتكررة على سورية

بغية إعادة النفوذ المصري إليها بعد الوهن الذي أصابه في عهد آخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة . ويضاف إلى هذه الأخبار ما خطته يد موظف الحدود المصري أنستازي[1] من وصف لطبيعة فلسطين ومختلف سكانها ، وما لاقاه رمسيس الثاني من مصاعب أثناء إخماده ثورات سكان المناطق الفلسطينية الجبلية . ثم ما تركه الفرعون ميرنبتاح بن رمسيس الثاني ( ١٢٢٤ ــ ١٢١٤ ق.م ) من أخبار عن حملته التي جردها ضد المتمردين من سكان فلسطين في سنة حكمه الخامسة حيث يرد اسم شعب إسرائيل لأول مرة في نصوص غير النصوص التوراتية ، إذ يطلب أمراء الثائرين السلام : فيصيحون " شالوم " أمام جيشه الجرار[2] . غير أن المصدر الوحيد الذي يُعنى بتاريخ فلسطين بالتفصيل في الفترة التي نعالجها هو الأسفار الأولى من كتاب اليهود المقدس وتتصدرها التوراة ، أي أسفار موسى الخمسة ، ثم الأسفار التالية لها وهي : القضاة وصموئيل والملوك ، وجلها يصرف اهتمامه إلى تاريخ اليهود القديم . أما القيمة العلمية التي تتمتع بها هذه الأسفار فهي رهن الكتب والمناقشات العلمية التي دارت حولها : بين متحمس منحاز يرى في كل كلمة فيها عين الحقيقة ، وبين ناقد موضوعي ينفي علميتها ويعرف دوافع كتابها وصبغتهم العقائدية من خلال الأساليب المختلفة التي جمعت مادتها ودونتها . وقد مضى الوقت الذي كانت تعد فيه نصوص كتاب العهد القديم مصدراً تاريخياً علمياً ، بعد أن ظهرت الكشوف الأثرية في الشرق الأدنى مع نهاية القرن التاسع عشر.

---

(1) - Gardiner ،A.H. ،Egyptian Hiratic Texts, Series I ،part 1 : The Papyrus Anastasi I ، ANET ( 1911 ), 475 f ،Fischer Weltgeschichte 3,S 198

(2) ــ يقول الفرعون في أخباره مفتخراً بانتصاره : فقال الأمراء وهم خائفون : شالوم ( نريد السلام ) وتعرضت كنعان لكل البلاء ، وسقطت عسقلان وحزر .. وأهلكت إسرائيل ( عن بكرتها) ولم يعد لها من ذرية وتحولت خارو ( أي فلسطين وسورية ) إلى أرملة لمصر .. ويعتبر ذكر إسرائيل هنا أول ذكر في الوثائق التاريخية القديمة ، مع أن الباحثين أنكر قراءة اسم إسرائيل على هذا الوجه .

Fischer Weltgeschichte 3,S . 200 ،257 ،267 .

ولكننا رغم ذلك لا نستطيع أن ننفي تأثيرها في كُتّاب تاريخ الإنسانية، وحتى في كُتّاب التاريخ العربي القديم الذين طعموا تآليفهم بالإسرائيليات المشوهة دون تحقق أو تثبت ، ودون أن يكلفوا أنفسهم مشقة التفكير في صحة ومنطق ما كانوا ينقلون .

— ٢ —

كيف كانت أوضاع المنطقة التي تقع فيها فلسطين في نهاية العصر البرونزي، وهي الفترة التي غزت فيها القبائل العبرية فلسطين ، وما هي الظروف التي أتاحت لها النجاح في عملية الغزو والاستيطان ؟

يتبين من المصادر التاريخية المذكورة أن فلسطين بخاصة وسورية القديمة بعامة كانتا ترزحان لقرون عدة تحت النفوذ المصري الذي كان يقوى ويضعف بحسب القوى التنافسية في المنطقة وبحسب قوة الحكام وحنكتهم العسكرية .

ولقد ذكرنا أن فرعوني الأسرة التاسعة عشر سيتي الأول وخليفته رمسيس الثاني استطاعا إعادة النفوذ المصري إلى سورية وفلسطين . ولكن الحثيين كانوا يطمعون في السيطرة على المنطقة ، إلى أن اتفق الجانبان بعد معركة قادش التي جرت في العام الخامس من حكم رمسيس الثاني (١٢٨٥) على الصلح ، واقتسام المنطقة بعد مضي سنوات من الحرب الباردة بين فرعون مصر والحثيين زمن حكم ختّوشيلي الثالث ( ١٢٦٩ ). كانت المنطقة إذن مصدر نزاع وتنافس بين القوتين الكبريين آنذاك مصر في الجنوب ، والحثيين في الشمال . ولكن فلسطين لم تعرف آنذاك حكم المصريين الصارم ، بل كثيراً ما كان الفراعنة يضطرون إلى العودة إلى فلسطين لإخماد حركات العصيان والتحرر . فلقد ترك سيتي الأول لوحات تخبر عن حملاته على بعض المناطق الفلسطينية حيث يذكر أسماء المدن الكنعانية التي أخضعها والطرق

التي سلكها جيشه بدءاً من شمالي سيناء عبر غزة إلى بحيرة طبرية ، وإلى جانب ذلك رسومات تمثل شكل الأقوام الذين هب لتأديبهم ، من مثل بدو الشاسو Shaso والكنعانيين . ومما يلفت النظر حديثه في إحدى لوحاته عن نصره المؤزر في العام الأول من جلوسه على العرش الذي أحرزه على جماعة العبيرو . وهؤلاء هم خبيرو رسائل تل العمارنة وماری من قبل ، وكذلك آسية الصغرى الحثية في القرن الرابع عشر، وفي أوغاريت[٣]. وقد وجد عدد من الباحثين رابطة بينهم وبين العبريين. ونحن نعتقد بأن أولئك الخبيرو/العبيرو هم أجداد العبريين ، فوجودهم في هذه المنطقة وحديث سكان سورية ومصر، ووصف التوراة لحال العبريين في مصر ، من حيث طبيعة حياتهم وأعمالهم في السخرة وتأدية الخدمات التي تطلب منهم عنوة أو طواعية دفعاً للحاجة وطلباً للقمة العيش ، كل هذا يحملنا على الاعتقاد بما ذكرنا من العلاقة الواضحة بين تلك الجماعة ، ولا نقول ذلك الشعب ، وبين العبريين الذين دخلوا فلسطين في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر . فالخبيرو/العبيرو لم يكونوا شعباً خاصاً كما كانت الشعوب، بل كانوا مجموعات مختلفة المنشأ تنتشر في بقاع كثيرة من الشرق القديم ، لا تملك أرضاً ولا وطناً ، بل ولا يربطها شعور بالانتماء إلى أي بلد ، لم يكونوا ينتسبون إلى الحكام ولا إلى فلاحي الأرض وعمالها. كنت تراهم في خدمة حكام المدن الفلسطينية الذي يناوئون السيطرة المصرية جنوداً مقاتلين زمن رسائل العمارنة وبعده ، أي من زمن الأسرتين التاسعة عشر والعشرين المصريتين [٤]. كما تراهم يهاجمون بعض المدن الصغيرة لينهبوا ما يستطيعون فيطلب حكام المدن الفلسطينية مساعدة الفرعون ، منذرين بزوال السيطرة المصرية

---

(3) ــ للصدر السابق ، ص ١٨٩ وما بعدها ص ١٩٦ ، ٢٠٦

Noth ‹M. ‹Geschichte Israels ‹S. 38 .

(4) - Bottero ‹Le probleme des Habiru 1954 .

وانظر كتابنا : تاريخ الشرق القديم ١ ، سورية ، ص ٢١٤ .

وهيبتها. ويرد في التوراة نفسها شيء عن العبريين الذين لا يختلفون في وصفهم عن طبقة الخبيرو التي ذكرناها ، في سفر الخروج 2,21 وفي سفر التثنية 12,15-15.

ففي سفر الخروج نقرأ : " إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً ". وفي سفر التثنية : " إذا بيع أخوك العبراني أو أختك العبرانية وخدمك ست سنين ففي السنة السابعة تطلقه حراً .. واذكر أنك كنت عبداً في أرض مصر ففداك الرب إلهك " . ويرد في وثيقة تعود إلى زمن رمسيس الثاني أن ( العبيرو ) استخدموا في أعمال البناء التي أمر بها الفرعون في شرقي الدلتا ، ولاسيما عاصمته التي دعاها نسبة إليه بررعمسسو، ومما يدل على أن استعباد اليهود واضطهادهم في مصر كان في زمنه ، وأنهم خرجوا من مصر في زمنه أو زمن خليفته مير ينبتاح [٥].

وضع المنطقة كان يتميز إذا بسيطرة مصرية تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تلاشت في نهاية الأسرة التاسعة عشر وبداية الأسرة العشرين (حوالي النصف الأول من القرن الثاني عشر ق.م)، ولم يبقَ منها إلا الاسم فقط في زمن رمسيس الرابع ( ١١٥٠ ) الذي وجد المنقبون في مجيدو ( تل المتسلم في حوض نهر المقطع ) قطعة من لوحة كتابية تذكره ، وتعتبر آخر أثر يدل على النفوذ المصري في فلسطين . ومن ثم تركت فلسطين للأقدار ولمصيرها الخاص .

أما الحثيون فكانوا مشغولين بأمرهم وبما أصابهم من هجوم شعوب البحر الساحق على إمبراطوريتهم وعلى مناطق الشرق الأدنى الغربية. ففي آثار الكرنك وثيقة تتحدث عن الفرعون ميرينبتاح، (١٢٢٠ ق.م تقريباً)، وتذكر أنه أمر بإرسال سفن محملة بالحبوب إلى

---

(٥) - Fischer Weltg . 3,S . 172 .

الحثيين كي يستطيعوا البقاء على قيد الحياة[٦]. أما في الشرق فكانت بوادر نهوض الآشوريين تلوح في الأفق.

في هذه الظروف التي تتميز بخلو المنطقة من أية قوة عظمى تفرض سيطرتها على منطقة فلسطين والتي تبدو مدنها نفسها دولاً متمزقة يتنازع حكامها ويقتتلون طمعاً بتوسيع رقعة حكمهم ، استطاعت القبائل الإسرائيلية التسلل إلى أرض كنعان لتبدأ الانتشار في فلسطين ، قبائل غريبة لا تمت إلى فلسطين بصلة. وهذه الحقيقة لا تنكرها التوراة ، إذ لا تعطي القبائل العبرية صفة السكان الأصليين، بل تجعلهم بدواً قدموا في فترة معينة من الصحراء ليتخذوا فلسطين موطناً يستقرون فيه . فكانوا عشائر متفرقة توحدت لأول مرة في فلسطين ، حتى العشائر والقبائل نفسها لم تكن قبل الاحتلال قد اتخذت الشكل الذي بدت فيه كل واحدة منها من بعد[٧].

**— ٣ —**

بعد أنَ تعرفنا على الظروف العامة التي كانت تسود المنطقة، سنتعمق الآن قليلاً في أحوال فلسطين قبل الغزو الإسرائيلي ، ونبين تركيبها السكاني .

كانت فلسطين تُعْرَف من قبل الشعوب المجاورة باسم " أرض كنعان" مما يدل على أن الكنعانيين السكان الأوائل ، فكان هؤلاء يدعون في رسائل العمارنة ( كِنَخّي ، كِنَخْني )

---

(6) — ويرد في التوراة ( التكوين ١٥ ، ١٠ ) : فقال لإبرام إعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ... Noth 54

(7) - Smith ,S ‹The Statue of Idrimi 1949 ‹Al bright ‹in: BASOR (1950) I ‹P . 11-20

من المعروف أن الكتابة المسمارية لا تستطيع التعبير عن الأصوات الحلقية ، مثل الحاء والعين ، فتعمد إلى الإستعانة بأقرب الأصوات إليها مخرجاً ، فتستعمل الخاء مكان العين أو تجعلها ألفاً ممالة طويلة e . ومثال ذلك اسم الملك المشهور حمو رابي الذي يكتب بالخاء خمورابي ، وأصل الخاء فيه عين = عمورابي وليست حاء ( كما يلفظ في العبرية ) ، ولا خاء ، كما يكتب في المسمارية ، نسبة إلى الإله الأموري (عمو) و(رابي) ، أي " كبير " وإذا لفظت الباء مهموسة P فتعني لفظة رابي " الشافي " .

Kinakhkhi، Kinakhni . وفي كتابةٍ للملك ألالاخ إدريمي ( كِنَخْنيم ) ، أي موطن تجار الأرجوان، ومنه التسمية الإغريقية Phoinix ، كما كان فلاحو قرطاجة يسمون أنفسهم أحياناً زمن أوغسطين ( القرن الرابع والخامس ) خناني[٨] . ويُعْرَف الكنعانيون تاريخياً بأنهم يمثلون الموجة السامية الثانية التي جاءت في نهاية الألف الثالث ق.م بعد الأكديين من شبه الجزيرة العربية ، من الخزان البشري السامي ، الموطن السامي الأول، إلى المناطق الزراعية الشمالية ، ثم انتهت إلى الاستقرار في غربي سورية بين طوروس في الشمال وخليج العقبة جنوباً فسموا نسبة إلى أقصى مناطقهم في الجنوب ، أي أرض كنعان ، كما تدعى في التوراة أيضا[٩] . ومن المعتقد أن القسم الأساسي منهم كان قد ولى وجهه شطر الشرق فأسس سلالة حاكمة يمثلها حمورابي ( ١٧٩٢ – ١٧٥٠ق.م) . فهؤلاء يتميزون بأسمائهم التي تختلف عن تركيب أسماء سامیي بلاد الرافدين السابقين ، وتتطابق مع تركيب الأسماء الكنعانية ، ولهذا فإن Th. Bauer دعاهم " الكنعانيين الشرقيين " في كتابه الذي أعطاه نفس الاسم (عام ١٩٢٦) رغم أن تسمية هؤلاء بالعموريين بحسب الاصطلاح الأكدي للمناطق الغربية أفضل، تمييزاً لهم من كنعانيي سورية[١٠]. ومما يلفت النظر احتفاظ هؤلاء بالأصوات الحلقية خلافاً للغة الأكدية ، وإدخال حرف ياء المضارعة على الأصل الثلاثي للفعل . كما تُظْهِر لغتهم مطابقة كبيرة للصيغ الاسمية المعروفة في اللهجات الكنعانية ، من فينيقية وعبرية وأوغاريتية. ومن الأمثلة الأخرى التي تذكر على أولئك الكنعانيين الشـــــرقيين / الأمـــوريين غير سكان بابل ،

---

(8) - Handbuch der Orientalistik ،III (Semitistik) ،S. 4 of ،Maisler ،B ،in: BASOR (1946) ،P. 102 ،Speiser ، EA ،Language 12 (1936) ،P.121.

انظر كتابنا سورية ، ص ١٠٣- ١٠٥

(9) - Kupper ،JR ،Les Nomades en Meso potamie au temps des rois de Mari ،P.173.

(10) - Brockelmann ،K. ،In: HO ،III ،40.

ماري وتوابعها كعانة وهيت وغيرها من المدن باتجاه حران[11] وأسرة شمشي أدد في آشور المعاصرة لأسرة حمو رابي في بابل ، ومملكة يمحاض ومملكة قطنا في سورية .

وقد أثبتت الحفريات الأثرية وجود العنصر السامي في فلسطين منذ الألف الرابع قبل الميلاد وبداية العصر البرونزي ، بل قبل هذا العصر بزمن طويل [12]. كما تؤكد الدراسات اللغوية قِدَم العنصر السامي من خلال تحليل أسماء الأمكنة الموغلة في القدم والتي طرأ عليها مع مرور الزمن بعض التغيير. وتأتي أسماء الأنهار والجبال في المقام الأول. فثمة اسم جبل الكرمل، بمعنى "بستان مشجر"، وطابور ، بمعنى "هضبة"، وجلبوع، أي "سُرّة" ، ونهر الأردن وروافده اليبّوق (نهر الزرقاء)، والأرنون (وادي الموجب)، ونهر كيشون (المقطع). ويظهر أن كل أسماء المدن الباقية التي كانت مأهولة بالسكان في الألف الرابع والثالث قبل الميلاد سامية صرف بلا شك.

أما المدن الكنعانية والعمورية فتعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد. وغالباً ما كانت تلك الأسماء تدل على القبائل السامية القديمة ، وبخاصة ما كان منها ينتهي بكلمة عم، بمعنى "شعب"، من مثل يبلعم (في منطقة قبيلة مناسة)، وينعم (في منطقة سبلون). أو ما يبدأ بكلمة بيت، مثل: بيت شمش (اسم لأربع مدن)، بيت برج، بيت لحم، بيت إيل (شمال القدس)، بيت عنت (في منطقة نفتالي)، بيت شان، وقد نستطيع أن نستدل من خلال المثال "بيت لحم" الذي بقي لفظاً من دون تغيير، أما من حيث المعنى فقد كان الاسم "بيت لحم" الكنعاني يعني "معبد (الإله) لخم" ثم أصبح يعني في العبرية "بيت الخبز، الفرن" وفي العربية نفهم منه مكان

---

(11) - Noth ،30 ،Anm. 1.

(12) - Albright ،W.F. ،Archaologie in Palästina ،S.175=Archaeology of Palestine 2.5.

اللحم، ونستدل من ذلك أن الاسم الأصلي قد يبقى في شكل ما رغم اختلاف المفهوم عند الأجيال والشعوب المتعاقبة[١٣].

كان سكان المنطقة ساميين إذن. ولكن شعوباً أخرى دخلتها على فترات متقطعة، من مثل الحوريين الذين عرفوا في سورية منذ منتصف الألف الثاني ق.م[١٤] وهم شعب غير سامي، كما لا ينتمي إلى الشعوب التي تتكلم لغات هندية – أوربية، ولكنهم أقرب إلى شعب الأورارتيين الذي كان يسكن هضبة أرمينية في النصف الأول من الألف الثاني ق.م.

وقد انتشر أولئك الحوريون في بلاد الرافدين وشرقي دجلة وبلاد الشام. ومنها أوغاريت حيث خلفوا العديد من الآثار الكتابية، وسكنوا المدن وكانوا من سادتها بلا شك. وقد دخل هؤلاء فلسطين زمن ضعف المصريين وغزو الهكسوس لمصر. ولكن أعدادهم كانت قليلة بلا ريب ولا تقاس بكثافتهم السكانية في قلب سورية. كما كانت عناصر هندية أوربية تسكن فلسطين، غير أن أعدادها كانت أقل بكثير من الحوريين كما يبدو من الوثائق التاريخية المصرية بخاصة (المسماة نصوص اللعنات)، وهي النصوص التي تعود إلى الفترة الأخيرة من حكم الأسرة الثالثة عشرة، أي أواخر القرن الثامن عشر ق.م والتي تذكر أعداء المصريين فتلعنهم، وكذلك نصوص العمارنة، ونصوص ماري وأوغاريت.

ولكن أولئك الطارئين على البلاد كانوا سرعان ما يذوبون في العنصر السامي فيتخذون اللغة الكنعانية لغة لهم رغم سيطرة قسم كبير منهم على الحياة السياسية، فاستمرت الكنعانية لغة للبلاد حتى حلت شقيقتها الآرامية محلها.

---

([13]) - Fischer Weltg 3 ،128 f.

([14]) — سفر التكوين 15،19 – 21. العدد 23، 22، 24، 20. صموئيل الأول 15، 1، 30، 29، 27، 10. يشوع 3، 10، 9، 1، 11،3، 24، 11. القضاة 3، 5 التثنية 7، 1 ....

ويتبين من خلال الحفريات الأثرية أن المناطق السهلية الزراعية الواقعة شمال وجنوبي الكرمل أكثف المناطق سكاناً زمن العمارنة في النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م، وتليها المناطق الواقعة شمالي الغور. أما مناطق الجليل والمرتفعات الجبلية وشمالي بحر الميت فقد كانت قليلة السكان، ما عدا منطقة سيشم (تل بلاطة) قرب نابلس اليوم التي تقع وسط الكتلة الجبلية الوسطى في واد مفتوح باتجاه الغرب، ومنطقة القدس التي كانت مأهولة بالسكان منذ بداية الألف الثاني، كما يتبين من نصوص اللعنات المصرية، إضافة إلى بيت لحم وحبرون (الخليل). فالحياة السياسية والاقتصادية لسكان فلسطين كانت تنشط إذن في المناطق السهلية وفي مناطق الهضاب دون المناطق الجبلية والمرتفعات التي كانت تقيم فيها الأقليات المختلفة دون الكنعانيين سكان فلسطين الأصلاء الذين كانوا يفضلون المناطق التي تسمح بالزراعة وتتوفر فيها الشروط اللازمة لها من أراضٍ خصبة ومياه. والتوراة تؤكد هذه المعلومات (سفر العدد، الإصحاح ١٣ ، ٢٩) حيث تتحدث عما رآه الجواسيس الذين بعثهم موسى لاستطلاع فلسطين قبل غزوها: "العمالقة يسكنون أرض الجنوب، والحثيون واليبوسيون والعموريون يسكنون في الجبل ، والكنعانيون يسكنون عند البحر وعلى جانب الأردن". ويصف أولئك البلاد فيقولون إنها تفيض لبناً وعسلاً، ولكنهم يحذرون أشقاءهم من السكان الأصليين إذ ينسبون إليهم طول القامة ومظهر الجبابرة فيقولون لهم "وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة ، فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم" (العدد ١٣ ، ٣٣).

بنو عناق والعمالقة والحثيون واليبوسيون والعموريون والكنعانيون هم من تذكرهم التوراة في هذا السياق ، ويرد ذكر هؤلاء في أماكن أخرى منها إلى جانب أسماء عدة من مثل الفرزيين والجرجاشيين والحويين أو الحوريين، ونجد ذكر هؤلاء في سفر التكوين والعدد

وصموئيل والقضاة وفي سفر يشوع بخاصة[١٥]. وهنا نتساءل من هؤلاء الذين تردد التوراة ذكرهم وإلى أي من الأقوام القديمة ينتمون؟.

إن البحث والتدقيق في هذه الأسماء يبين أن غالبها تسميات مختلفة، ومترادفات متعددة لشعب واحد، هو الشعب الكنعاني السامي، ففلسطين هي أرض الكنعانيين[١٦] والكنعانيون كانوا في فلسطين يعيشون في مدن كانت كل منها دولة تدار شؤونها من قبل حاكم بقي تابعاً لفرعون مصر فترة طويلة من الزمن، إلى أن ضعف شأن المصريين، فتجرأ حكام دول المدن في فلسطين على اتخاذ لقب ملك. فاليبوسيون والفرزيون والجرجاشيون كنعانيون تارة ، وتارة نراهم يسمونهم عموريين. فاليبوسيون مثلاً، وهم سكان القدس وما يحيط بها، نرى التوراة تسميهم مع حلفائهم عموريين (سفر يشوع ٥،١٠) "فاجتمع ملوك العموريين الخمسة ملك أورشليم وملك حبرون وملك يرموت وملك لخيش وملك عجلون..." .

وفي سفر التكوين حيث ترد أسماء الشعوب (١٥،١٠ — ١٩) نقرأ: "وكنعان ولد صيدون بكره وحثاً ، واليبوسي والعموري والجرجاشي والحوي والعرقي والسيني... وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني ...".

ثم نرى "يهوه" يريد أن يقود شعبه "إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً. وإلى مكان الكنعانيين والحثيين والعموريين والفرزيين واليبوسين" (سفر الخروج ٨،٣). فإذا بنا نقف أمام تسميات

---

(15) ــ سفر التكوين ٦،١٢ "وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض" عند وصول إبرام (إبراهيم) إلى فلسطين قادماً من حران. وبعدُ عودة إبراهيم من مصر وافتراقه عن ابن أخيه لوط: "وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض" تكوين ٧،١٣.

ويلاحظ أن أرض كنعان (= فلسطين) لا تدعى أبداً باسم آخر على الرغم من تعدد أسماء الشعوب التي تذكرها التوراة. وتروي التوراة أن إسحاق يصرف ابنه عن الزواج من بنات حث (سفر التكوين ١،٢٨) بعد الفقرة الأولى مباشرة، أي أن حث هو كنعان.

(16) ــ أنظر أيضاً: سفر يشوع ١٠ ، ٥ ، ٢٤ ، ١٥ ، ١٨ ، يشوع ١١،٢٤: "فحاربكم أصحاب أريحا الأموريون والفرزيون والكنعانيون والحثيون والجرجاشيون والحوريون واليبوسيون ...".

مختلطة ورد اسم اليبوسيين فيها مع الكنعانيين وكأن لا علاقة بينهم وبين هؤلاء ، أو كأنهم لا ينتمون لا إلى الكنعانيين ولا إلى العموريين ، فتجعل الفرع في أهميته كالأصل ، كما لو قلنا الدمشقيين والحمويين والحلبيين والسوريين والعرب، أو العمانيين والإربديين والأردنيين والعرب، أو الصنعانيين والتعزيين والعدنيين واليمنيين والعرب.

ولكننا نلاحظ وكأن كُتّاب التوراة يميزون بين سكان الجبال والمرتفعات فيسمونهم عموريين ، وبين سكان السهول والساحل فيدعونهم كنعانيين بشكل عام، كما سبق أن ذكرنا "العمالقة يسكنون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والعموريون يسكنون في الجبل والكنعانيون يسكنون عند البحر وعلى جانب الأردن "(سفر العدد ١٣،٢٩ ، يشوع ١١،٣). أما الحثيون والحوريون فهم أقليات غير سامية ولا نشك في أن بقايا منهم كانت زمن الغزو الإسرائيلي تقطن في فلسطين، والمدن منها بخاصة فتذكرهم التوراة بين ما تذكره من أسماء، ولكنها تؤكد صبغة البلاد الكنعانية، إذ تدعوها "أرض كنعان" من غير أي تسمية أخرى.

وهي أيضاً أرض العموريين التي يَعِدُ بها "يهوه" إبراهام (سفر التكوين ١٥،١٦)، أي أن الكنعانيين هم العموريون في التوراة ، ولو لم تصرح بهذا الاسم، والعموريون هم الكنعانيون. ويرد اسم هذه الشعوب في سفر القضاة، وهو السفر الذي يخبر عن الفترة التي تلت الغزو وبداية الاستقرار ، ويلفت النظر في تاريخ هذه الحقبة ما يتكرر من مخالفة شعب الله المختار وعقوقه للرب . "فهؤلاء هم الأمم الذين تركهم الرب ليمتحن بهم إسرائيل كل الذين لم يعرفوا جميع حروب كنعان .. أقطاب الفلسطينيين الخمسة وجميع الكنعانيين... فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والعموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم .." قضاة( ٣، ١-٦).

أرض كنعان كما تدعى فلسطين في التوراة كانت مأهولة بالسكان الذين يشكل الكنعانيون الغالبية العظمى إذن، وهؤلاء كانوا في كل بقعة منها، رغم تعدد الأسماء في التوراة وهذا الأمر إن دل على شيء ، فإنما يدل ـــ باعتقادنا ـــ على عدم وضوح الصورة عند كَتَبة التوراة حين خطوها بأقلامهم بعد مضي زمن ليس باليسير على غزو فلسطين، إذ إن بداية كتابتها كانت ربما زمن داوود إن لم تكن بعده، أي بعد عبور الأردن الأول بأكثر من قرنين ، أما جمع أسفارها فلم يتم قبل القرن الخامس قبل الميلاد. ولا ننسى أن الاعتماد على الذاكرة ونقل المعلومات من جيل إلى جيل بوساطة الرواية الشفهية يعتريه كثير من التشويه والتصحيف، بل إن أهم سمة يتصف بها هي التحريف والمبالغة . ومما لا ريب فيه أن معلومات التوراة لا تستند على أساس علمي راسخ، شأنها في ذلك شأن كل الكتب القديمة التي تعنى بتاريخ الشعوب، والتي تعتمد في مادتها وموضوعاتها الرواية الشفهية. فسبب اختلاط الأسماء عند كُتّاب التوراة يعود إلى عدم الوضوح أولاً، وإلى المبالغة في كثرتها لإظهار عظمة اليهود وقوتهم من خلال تمجيد "يهوه" إلههم الذي مكن لهم تذليل كل الصعوبات التي كانت تعترض طريقهم في أثناء احتلال الأرض الموعودة. فلو قيل للأجيال القادمة إنّ أجدادهم لم يجدوا إلا شعباً ضعيفاً ، وبأنهم لم يجدوا سوى الكنعانيين المسالمين المنصرفين إلى زراعتهم وإلى أعمالهم المعاشية اليومية، لما تمكنوا من رسم الصورة التي تبدو لنا ممتلئة بالأحداث الجسيمة والمعارك الطاحنة والبطولات الخارقة. وهذه الصفات هي أهم ما يجب أن يراعيه كاتب الرواية الرائعة والملحمة العظيمة. فثمة شعوب كثيرة كانت تسكن فلسطين بحسب الصورة التي تبدو من خلال مطالعة الأسفار التاريخية ، وكثرة الشعوب يعني كثرة المقاتلين والأعداء الذين يجابهون شعب "يهوه المختار"، وانتصار الشعب الإسرائيلي الواحد على شعوب كثيرة يعني في هذه الحال انتصاراً عظيماً غير عادي، ويعني مجداً مؤثلاً لا مجد بعده. وهو لا يختلف في معناه عن

انتصار داوود ، الغلام اليافع غير المجرب وغير المسلح على جوليات البطل الفلسطيني الصنديد، المدجج بالسلاح وصاحب الخبرة والتجربة. وإلى جانب الكنعانيين كانت تقيم أقليات من حوريين وحثيين غير ساميين. أما في الجنوب فكان بنو عناق ينتشرون في المناطق القريبة من حبرون (الخليل). وهم شعب عملاق كان الغزاة يخشونه كما مر بنا (عدد ١٣،٢٨ — ٢٩، تثنية ١، ٢٨، ٢، ١٠) وكان هؤلاء والعمالقة الذين كانوا يقيمون على حدود مصر من ألد أعداء الاسرائيليين . لذلك فإن يشوع يبيد العناقيين "فلم يتبق عناقيون في أرض بني إسرائيل لكن بقوا في غزة وجت وأشدود" (يشوع ١١،٢٢).

وهؤلاء كنعانيون بحسب قول التوراة نفسها: "وسار يهوذا على الكنعانيين الساكنين في حبرون". وكان اسم حبرون قبلا قِريةَ أربع. وضربوا شيشاي وأخيمان وثلماي (القضاة ١،١٠)، وهؤلاء الثلاثة هم أبناء عناق (العدد ١٣،٢٢).

وكذلك فإن الاسرائيليين لا ينسون وقوف العمالقة في وجههم وصدهم حين خرجوا من مصر ساعين إلى احتلال أرض كنعان ، فيحرض صموئيل شاؤول ملك إسرائيل الأول على قتل العمالقة وإبادهم (صموئيل الأول ١٥، ٢-٣، ٣٠،١). وكان هناك الفلسطينيون ، بقية شعوب البحر المدمرة، الذين احتلوا الساحل الفلسطيني الجنوبي وبعض المناطق الداخلية واستوطنوا في الوقت الذي كان الغزو الإسرائيلي قد بدأ وبعد ذلك بفترة وجيزة المراكز المصرية سابقاً ، كغزة مثلاً، واعتبروا أنفسهم مكان المصريين ، وأخذوا في فرض سيطرهم على المناطق المجاورة ، ونجحوا في ذلك أيما نجاح ، إلى أن وصل داوود إلى الحكم وبدأ يكبدهم خسارات لم تقم لهم بعدها قائمة وذابوا في السكان المحليين.

دخل الغزاة فلسطين فوجدوا فيها الكنعانيين إذن يشكلون الأكثرية الساحقة من السكان وكان هؤلاء يتجمعون في مدن كثيرة تنتشر في مواقع مختلفة من البلاد وهي تكثر في المناطق

الخصبة الصالحة للزراعة، ولكنها تقل في المناطق الجبلية القاحلة، وكانت تلك المدن تتألف من بيوت متراصة يحيطها سور ينفتح على أراضٍ زراعية تكفي حاجة سكانها. وكان كنعانيو فلسطين يعيشون آخر أيام العصر البرونزي ، وقد خلفوا وراءهم تراثاً حضارياً يفخرون به بَهَرَ الغزاة وأخذ من نفوسهم كل مأخذ . فعوضاً عن التأثر بالغزاة ، تأثر الغزاة بهم: فاتخذوا اللغة الكنعانية لغة لهم وكتابتها كتابة لهم. حتى ديانة اليهود التوحيدية لم تكن بمنجاة من خطر الديانة الكنعانية الوثنية التي تحذر التوراة من خطر الوقوع في حبائلها (تثنية ١،٧ - ٦ ، قضاة ٣،٢ يشوع ٧،٢٣)[١٧]، فالخوف من تأثير الديانة الكنعانية الوثنية في اليهودية، هو الذي دفع الإسرائيليين الغزاة إلى القضاء على السكان الأصليين ومحاولة استئصال شأفتهم، بل إبادتهم وإلا فاستعبادهم. وإن أبقوا عليهم فالغاية تنبئ التوراة عنها، وهي تجديد قوى الإسرائيليين في صراعهم معهم، فإن انهزموا أمامهم تابوا إلى الله وأحسوا بقدرته وبدوره الفعال في حياتهم.

ويبدو لنا تأخر الإسرائيليين الحضاري من خلال بعض النصوص التوراتية التي تتحدث عن المعارك التي جرت بين الإسرائيليين الغزاة وبين الكنعانيين. فجموع الإسرائيليين كانت تقف مشدوهة بل خائفة ـــ بحسب تعبير التوراة ـــ أمام قوات الكنعانيين التي كانت تضم عربات القتال الحديدية (يشوع ١٧، ١٦، ١٨، قضاة ١، ١٩، ٤)" فباعهم الرب بيد يابين ، ملك كنعان الذي ملك في حاصور .. فصرخ بنو إسرائيل إلى الرب لأنه كان له تسعمائة مركبة من حديد وقد ضايق بني إسرائيل بشدة عشرين سنة" (قضاة ١،٤ — ٣).

ويتبين لنا من خلال التنقيبات الأثرية أن المدن الكنعانية التي تعود إلى العصر البرونزي أحسن حالاً من المدن التي بناها الإسرائيليون في العصر الحديدي[١٨]، والتي تبدو آثارها في

---

(17) ـــ ففي هذا السفر يشوع ٢٢،٢٣ نقرأ "فالآن انزعوا الآلهة الغريبة التي في وسطكم وأميلوا قلوبكم إلى الرب إله إسرائيل".

(18) - Noth 132 ،Fischer Weltg. 3 ،S. 211.

غاية السوء والضياع، مما يدل على تفوق الكنعانيين وخبرتهم في البناء وتشييد المدن. وشتان ما بين الإنسان المتحضر المستقر وبين البدوي المتنقل. ويلاحظ نشوء المدن الإسرائيلية في المناطق الجبلية أولاً ، حيث الكنعانيون أقل ، كما رأينا ، وليسوا بحاجة إلى براعة وتفوق في التسليح وامتلاك الأسلوب الحربي ليتمكنوا من مجابهة السكان الأصليين [١٩]. ومن المعلوم أن استخلاص الحديد واستعماله كان معروفاً عند الحثيين منذ القرن الرابع عشر ق.م. ولكن انتشاره واستعماله في المناطق الأخرى بدأ بعد سقوط الدولة الحثية في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فعُرف في سورية وفلسطين. ومن الطبيعي أن تفيد منه صناعة الأسلحة والأدوات الزراعية. ورغم ذلك فإن الإسرائيليين كانوا آخر من التفت إلى الإفادة من الحديد. فهل كان ذلك جهلاً منهم أم تمسكاً بالتقاليد اليهودية[٢٠].

تلك كانت ظروف أرض كنعان ، وتلك كانت العناصر السكانية التي ذكرتها النصوص التوراتية ، وهي رغم كثرتها فإنها عناصر لا تتعارض مع ما يعرفه التاريخ ، ولكنها تؤكد أمراً واحداً وهو أن القبائل الإسرائيلية التي غزت فلسطين واستوطنتها لم تجد بلداً خالياً من السكان. بل وجدت شعباً سامياً متقدماً في المدنية والحضارة ، فغزت الأرض واغتصبتها وسعت إلى التخلص من الشعب الكنعاني حتى كُتب لها النجاح أيضاً، ولكن إلى حين، إذ لم يأت القرن الأول والثاني بعد الميلاد ، حتى عاد الغزاة إلى التشرد على يد الرومان ، فصاروا أقلية في أرض كنعان، أو فلسطين ، كما صارت تدعى.

---

[19] - Albright Archäologie 112 ‹The Role of the Canaanites in the History of Civilization ‹in: The Bible and the Ancient Near East ‹hg. von G. E. Wright 1961 ‹P. 328-362.

[20] - Gordon ‹C. ‹Geschichtliche Grundlagen des Alten Testaments ‹S. 141.

# قصة الخلق في الأساطير الشرقية القديمة

# قصة الخلق في الأساطير الشرقية القديمة

المشـــرق العربي القديم موطن الحضارة الإنسانية الأول ، ومهدها الأصلي ، كان مصدر إشـــعاع فكـــري ، غني بالأدب بأجناسه المختلفة ، وفي مقدمتها الأسطورة . وعندما نقول المشرق العربي ، أو الشرق القديم ، إنما نقصد بذلك في المقام الأول اليوم مناطق جنوب غربي آســـية بما تضم من بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية ، أو ما يدعى عند المستشرقين : سورية ، وبلاد ما بين النهرين وشبه جزيرة العرب إضافة إلى مصر .

كانت لغات هذه المناطق ، وهي : اللغة الأكدية بفرعيها البابلي والآشوري ، والكنعانية بفـــروعها الاوغاريتـــية والفينيقية والعبرانية ، والآرامية ، والعربية ، من أصل واحد ، اصطلح الباحـــثون على تسميتها باللغات السامية. وإلى جانب هذه اللغات كانت اللغة السومرية التي ســـبقتها كتابةً في جنوبي العراق ، كما عاصرت هذه اللغة في وادي النيل اللغة المصرية القديمة التي استمرت حتى عصر البطالمة الإغريق .

إنهـــا لغات الحضارة الأولى التي عرفها الإنسان والتي عبر بها عن كل حاجاته الاقتصادية والدينـــية والاجتماعية ، وصاغ بها أفكاره وآراءه ومكنونات صدره ، ونظم بها أولى قصائده الشعرية وملاحمه وأساطيره ، ودوّن بها علومه الطبية والفلكية والرياضية وتشريعاته .

أما الكتابة التي استخدمتها هذه الشعوب فكانت متنوعة : بدأ السومريون في جنوبي بلاد ما بين النهرين بالكتابة السومرية التصويرية ، كما فعل المصريون بالكتابة الهيروغليفية .

ثم مـــا لبـــث السومريون أن طوروا كتابتهم إلى كتابة مسمارية مقطعية صارت صالحة ليكتـــب بهـــا معظم سكان الشرق القديم . فأخذها عنهم الأكديون البابليون والآشوريون، وطوعوهـــا لتناسب أصواتهم الخاصة وهي الحاء والعين والضاد والظاء والقاف والغين التي لا تعرفها السومرية .

ثم ظهرت الكتابة الأبجدية على الساحل السوري في أوغاريت التي أوجدت نظاماً ألفبائياً للكتابة يتألف من ثلاثين رمزاً تمثل ثمانية وعشرين صوتاً، وكان لهذه الحروف شكل مسماري. كمـــا ظهر في جبيل نظام كتابي ألفبائي ، صار من بعد أصلاً لكل كتابات العالم الألفبائية و لم يـــزل ، بينما بقيت الكتابة الألفبائية الأوغاريتية محلية ، و لم يكتب لها الانتشار كحال الكتابة الهيروغليفية التصويرية .

يقـــول كريمـــر ، عــــالم الدراسات المسمارية المعروف ، متحمساً : الحضارة بدأت من ســـومر. ومــــن سومر وصلتنا بالفعل أقدم النصوص الأدبية ، بل أقدم الآثار الأدبية بأجناسها المختلفة ، من مثل : النقوش الملكية التي كانت تتضمن موضوعات سياسية وتشريعات قانونية (قانون أورنمو ، لبيت عشتار ... أوروكاجينا / انتميينا)، إلى جانب سردٍ لأعمال البناء وإقامة المشـــاريع العمرانـــية والاقتصـــادية ، والمعارك الحربية ... ، الأساطير والملاحم ، والأمثال ، والمناظرات وحكايات الحيوان ، أدب الحكمة ، الحكايات الفكاهية الساخرُة ، المدائح الدينية والأدعـــية والابتهالات ... هذا كله نجده في آداب المشرق العربي القديم ، ولكن أكثره متوافر في الأدب البابـــلي والمصري ، ويعود ذلك إلى الاستقرار السياسي الذي كانت تنعم به بابل ، ومصر بخاصة ، وإلى وجودٍ عواصم ومدنٍ كبرى تقوم حولها دولة ، وإمبراطورية في بعض من العصـــور التاريخية ، فتتجمع في حواضرها جاليات وأقليات وشعوب متنوّعة ، تجتذب ذوي الطمـــوح والأفكار والمواهب الفريدة ، كما نرى اليوم في القاهرة ، حيث تشتمل على نجوم الأدب والفـــن ، ويطمـــح كـــل ذي موهبة لشد الرحال إليها دون غيرها من المدن في بلاد العرب.

ولمـــا كانـــت الأســـاطير من حيث الوفرة تطغى على الجوانب الأدبية الأخرى ، فإننا سنتوقف عندها هنا .

والأســـطورة كـــلمة معرّبة ، كما يبدو ، عن الإغريقية *history* وتعني القصص المتصل بـــأحداث فريدة حدثت في زمن موغل في القدم ، أبطالها كائنات خارقة ، تتحرك في أماكن خيالـــية لا يتصـــورها العقل أو يدركها ، تتصارع فيما بينها ، وتتعايش . ومن موضوعاتها

الرئيسة : خلق الكون وما فيه من سماء وأرض وبحار ، وكواكب ، وإنسان ، ونبات ، وحيوان ... وهي تاريخ مقدس ، وتقوم في جميع الأديان الوثنية مقام العقيدة ، كما يقول روبرت سميث [1] في كتابه " دين الساميين ( ادنبره ١٨٨٩ ) " وتشكل أهم عناصر الدين القديم.

وهي كذلك دين وتاريخ وفلسفة [2] ، تمثل صوراً من صور الفكر الإنساني البدائي ، ونظرة الإنسان البدائي اللامنطقية إلى العالم من حوله . إذن هيْ قصص وحكايا غير معقولة في زمننا ، لكنها كانت معقولة في زمن مؤلفيها وأصحابها .

وقد ظهر في الغرب منذ أواخر القرن الثامن عشر عدد من الباحثين الذين انصرفوا إلى دراسة الأساطير عند الشعوب ، وظهر علم جديد يُعنى بهذا النوع من الدراسات يُعرف باسم الميثولوجيا *Mythology* ، أي العلم الخاص بحكايا الآلهة والأبطال . وظهرت مؤلفات كثيرة تتحدث عن الميثولوجيا الإغريقية ، و الميثولوجيا المصرية ، و الميثولوجيا السورية ، و الميثولوجيا الرافدية ، والحثية ، و الميثولوجيا عند العرب [3] وغيرها . ...

وإذا عدنا إلى الشرق القديم فإننا نعتقد مع الباحث الألماني الكبير فوز زودن [4] أن أساطير الآلهة التي كانت تروي قصصاً عن الآلهة ، واستطاع الإنسان أن يستوحي منها إجابات عن تساؤلات مهمة مطروحة في حاضره آنذاك ، هي في الغالب أقدم بكثير من الأساطير المدونة . ولكن ليس بإمكاننا أن نستخلص من الأساطير المدونة سوى إشارات غير واضحة إلى الأساطير ما قبل الأدبية . كما نعتقد أن الأساطير الموغلة في القدم قد وَجدت أحياناً مكاناً لها في إطار نصوص لاحقة. أما الأساطير المدونة فهي صنفان :

---

[1] ـــ راثفين ، الأسطورة ، ص ٦١ . K. K. Ruthven, Myth

[2] ـــ محمد عبد المعين خان ، الأساطير والخرافات عند العرب ، ص ٢٠ .

[3] ـــ انظر : في طريق الميثولوجيا عند العرب ، لمؤلفه محمود سليم الحوت ، دار النهار ، بيروت ١٩٨٣ م .

[4] ـــ ف . فون زودن ، "مدخل إلى حضارات الشرق القديم " ، ترجمة : د. فاروق إسماعيل ، مراجعة د. أحمد ارحيم هبو ( قيد الطبع )
Wolfram von Soden, Ein führung in die Altorientalistik. Darmstadt 1985.

**صـــنف** أعاد بتأثير أفكار محددة صياغةَ الموروث القديم ، وحوّره إلى حد كبير يتناسب والعصـــر الـــذي دُوِّنَ فيه ، وأفكار أهل العصر وآراءهم ورغباتهم ، ( كما نلمح لدى قراءة الـــتوراة المتداولة ) وأغناه أحياناً بقَصَصٍ جديد . وتنتمي إلى هذا الصنف معظم أساطير الخلق الـــتي لا تهتم بمسائل خلق الكون والكائنات الحية ، والأدوات الضرورية للحياة فحسب ، بل تهتم كذلك بتنظيم الكون بعد صراعات قاسية مع قوى الفوضى أيضاً .

**وصنف ثان** لنا أن نطلق عليه اسم الأساطير الإبداعية أو الابتداعية ، لأن الموضوع الذي تـــدور حوله مستمد إلى حدٍ ما من الأساطير القديمة ، ولكن صوغه وأسلوبه جاء مختلفاً بحيث تـــبدو لـــنا هـــذه الأساطير جديدة ، حتى أن مؤلفها صار يذكر اسمه . فظهرت نتيجة لذلك أساطير يلعب فيها الأبطال ( أنصاف ) الآلهة أو غيرهم من البشر دوراً مهماً إلى جانب الآلهة والعفاريت ، ولم تعد هذه حكراً على الآلهة وحدهم .

ولمـــا كانت الأساطير ملك شعوب العالم كلها ، ولا يُعْرَف شعب على وجه الأرض ، مـــن دون أسطورة ، لأن هذه بكل بساطة طور من أطوار الفكر الإنساني ، وعنصر من أهم عناصـــر دينه ومعتقده ، كما نوهنا ، فلا بد أن يتبوأ مخترعو الكتابة مكان الشعب السباق إلى تدوين الأساطير . وهما إثنان في التاريخ القديم :

**الســـومريون** في جنوبي بلاد ما بين النهرين ( العراق )، وهم مخترعو الكتابة المسمارية. **والمصريون** ، مخترعو الكتابة الهيروغليفية . وبانتشار الكتابة المسمارية في أنحاء الشرق القديم تم تلاقـــح الأفكار والمعتقدات ، ووصلت تصورات الشعوب المتجاورة ، وظهر تأثيرٌ وتأثرٌ بهذه الأفكـــار ، وانتقلت الأساطير ، وصارت هذه مصدر إلهام للأدباء ، ولا سيما الشعراء ، حتى وقتنا هذا . ومع التدوين والكتابة بدأ التاريخ ، وبدأ التاريخ الثقافي والفكري بشواهد مكتوبة باللغـــة السومرية وبالخط المسماري في سومر ، وباللغة المصرية القديمة وبالخط الهيروغليفي في وادي النيل .

وظهر المسرح الغنائي من ثَمّ ، لأن الأساطير كانت تُنْشَد خلال ممارسة الطقوس الدينية، وفي الاحـتفالات الرسمـية ، وكـان ثمة من يتقمص شخصيات أبطال الأسطورة ، ويؤدي أدوارهـم ، كمـا كان يجري خلال احتفالات رأس السنة في بابل ( في البابلية *akitu* ) التي كانت تستغرق عدة أيام ، وفي مدن عدة في الخريف ، ثم تحولت إلى الربيع .

كثيرة ومتنوعة هي موضوعات الأساطير الشرقية ، منها :

الخلـق ( أو الـتكوين ) ، الخلود ، الموت ، عالم السماء ، العالم الأسفل ( الجحيم ) ، العلاقة بين الإنسان والآلهة ، الطوفان ، صراع الآلهة ، العقاب الإلهي .

ونحن سنتوقف عند أسطورة الخلق من خلال مصادرها الأساسية :

إنها أسطورة ابتدعتها شعوب كثيرة في مخيلتها ، بعضها احتفظ بها في الذاكرة ، وبعضها الآخر دوّنها . وبعضها ضاعت قصته ، ولم تصل إلينا إلاّ في نتف في مدوّنات مختلفة لا علاقة لهـا أحياناً بمضمون ما دُوِّن . ولكننا نستطيع من خلال تلك النتف أن نكوّن صورة ناقصة ، علينا نحن أن نتخيل بقيتها .

ولا سبيل إلى التعرف على أسطورة الخلق عند شعب من الشعوب القديمة من غير التعمق في دراسـة اللغـة الأصلية التي دُوِّنت بها . وإذا ذكرنا أن اختراع الكتابة كان في نهاية الألف الـرابع قـبل المـيلاد ، فإننا نتفهّم مقدار الخلاف في قراءة ما دُوِّنَ بالقلم المسماري المعقد، وبالكتابة الهيروغليفية المصورة .

وسـنجد ونحـن نتحدث عن هذه الأسطورة عناصر كثيرة تشترك فيها شعوب المشرق العربي القديم ، الأمر الذي يؤكد الوحدة الثقافية ـ الحضارية لأهل المنطقة منذ فجر التاريخ .

فقـد مضى العهد الذي كان الناس يرون أنه بالإمكان دراسة تاريخ منطقةٍ ما من مناطق ما يسمى اصطلاحاً باسم " الشرق الأدنى القديم " ، أي سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر ، بمعـزل عـن بعضها . فالصلة الحضارية التي تربط بين هذه المناطق قوية ، إذ نشأت في هذه المـناطق حضارات ومدنيات لم تكن بمعزل عن بعضها ، وترعرعت على أيدي شعوب كانت

تعـــيش في بيـــئة واحدة ، وتطورت وتشابكت مع بعضها ، واتسمت على الرغم من تباين اللغـــات أحـــياناً ، والعادات والتقاليد ، بصفة واحدة تتمثل بالطابع الشرقي الذي مازها من الحضارات الأخرى المتلاحقة ، فضلاً عن سَبْقها للحضارات الأخرى ، وظهورها تلقائياً بمعزل عن أي تأثر خارجي أو احتكاك بالأمم الأخرى في بداية نشأها وظهورها .

وإذا بدأنا من **بلاد الرافدين** ، حيث ظهر السومريون الذين اخترعوا الكتابة المسمارية ، وتحمس بعض الاختصاصيين لحضارهم ، ومنهم صمويل كريمر ، إذ عزا إليهم أصول حضارة بلاد ما بين النهرين ، وجعلهم المؤسسين الأوائل لمقومات الحضارة والعمران ، فإننا نرى أهم كـــانوا أول من دوّن الآراء والتصورات والأفكار الدينية التي دخل الكثير منها إلى معتقدات الديانـــة العـــبرانية والمسيحية وغيرها من ديانات الشعوب الشرقية ، ولا سيما في بلاد ما بين الـــنهرين ، الأكديين والبابليين والآشوريين والحثيين والميتانيين والحوريين ، والكاشيين ، وعن العبرانيين وصل أثره إلى الحضارة الحديثة .

ومن هذه المعتقدات الدينية تبرز قصة الخلق عندهم . ومصدرنا في هذا الموضوع هو تلك المقدمة التي وردت في قصيدة سومرية ، عنوانها " جلجامش وانكيدو والعالم الآخر " إذ نقرأ :

"(١) بعد أن أبعدت السماء عن الأرض ، (٢) وبعد أن فُصلت الأرض عن السماء ، وبعد أن عُـــيِّنَ اسم الإنسان ( خُلِق الإنسان ) ، (٤) وبعد أن أخذ السماء آن ( إله السماء ) ، (٥) وبعد أن أخذ الأرض إنليل ( إله الفضاء )" .

ومعنى ذلك : في زمن ما كانت السماء والأرض متحدتين ، وكان بعض الآلهة موجوداً قبل الفصل بين السماء والأرض ، فأخذ آن السماء ، وأخذ إنليل الأرض .

وفي رقـــيم يعـــدد الآلهـــة الســـومرية تحمـــل الإلهة نَمُّو صفة "الأم التي ولدت السماء والأرض "، ونســـتنتج من معنى اسم نَمُّو في السومرية الذي يعني " البحر الأول " أن السماء والأرض من خلق البحر الأول .

وفي قصيدة تتحدث عن خلق الفأس وتدشين تلك الآلة الزراعية ، نقرأ :

" أنلـيل الـذي أخرج البذور من الأرض ، أراد أن يبعد السماء عن الأرض ، وأراد أن يبعد الأرض عن السماء ... " ، وهذا يعني أن الإله الذي فصل السماء عن الأرض هو إنليل.
كما نستطيع أن نرتب عملية الخلق الأولى على الوجه التالي :

في الـبدء كـان " البحر الأول " . من هذا البحر ولد الجبل الكوني المؤلف من السماء والأرض المتحدتين . السماء ( آن ) كانت في اعتقادهم ذكراً ، والأرض ( كي ) كانت أنثى. ومـن اتحاد هذين الإلهين وُلِدَ الإله ( إنليل ) وذلك بمقتضى تصورهم للآلهة على هيئة البشر . وعـندما فصل ( إنليل ) السماء عن الأرض واتحد بالأرض ( أمه ) ، هيأ لتنظيم الكون ، أي خَلْـق الإنسان والحيوان والنبات ، وتأسيس المدينة . أما الأجرام السماوية كالقمر والشمس والكواكـب والنجوم ، فإنهم عدّوا إله القمر ( نّنّا ) ابناً للإله إنليل ، وإله الشمس ( أوتو ) ، وإلهة الزُّهرة ( إنانا ) ولدي القمر ، كما يشار إليهما دائماً في النصوص السومرية .

ومـن مصـدر آخـر ، وهو أسطورة طريفة ذات طبيعة بشرية تفسر ولادة الإله القمر وولادة ثلاثة من الآلهة الآخرين الذين حُكِمَ عليهم أن يقضوا حياتهم في العالم الأسفل ، نعلم ، كما جاء في النص التالي :

" في الوقـت الـذي لم يكن فيه الإنسان قد خُلِقَ بَعْدُ، ويوم كانت مدينة نيبور مأهولة بالآلهـة فقط، كان فتاها هو الإله ( إنليل ) ، وكانت عذراؤها هي الإلهة ( ننليل ) . والمرأة العجوز فيها هي أم ( ننليل ) ؛ وبعد أن اعتزمت هذه الإلهة العجوز تزويج ابنتها ( ننليل ) من ( إنليل ) أوصت ابنتها أن تغتسل وتتمشى بعد ذلك على شاطئ النهر ، حتى يراها ذو العينين الجميلـتين ويقترن بها . وفعلاً حدث ما خططت له العجوز ، فكان اللقاء ، وكان الكلام ، وأراد الوصال ، ولكنها صدّته عنها ، متذرعة بأنها لا تحتمل الجماع ( مهبلها صغير ، وشفتاها صغيرتان لا تعرفان التقبيل ) ، ولكنه وقع في هواها ، واغتصبها في لقاء آخر ، فحملت بالإله ( نانّا ) ، إله القمر . فغضب منه الآلهة لفعلته المنافية للأخلاق ، ونَفُوه إلى العالم الأسفل على الـرغم من أنه كان ملكهم . ولكن ننليل لحقت به ، ولم تشأ أن تبقى وحدها ، وتبعته وهو في طريقه إلى منفاه القسري ، فخاف على ابنه أن يولد في العالم السفلي المظلم ويسكن فيه ،

فدبر خطة لتضليلها عندما التقى في طريق ترحاله بثلاثة من الآلهة الصغيرة المسؤولين عن العالم الأسـفل، قبل أن يلج فيه ، فاتخذ هيئة كل واحد منهم على التوالي ، وتقمص شخصيتهم ، واتصـل بإنليل المرة بعد الأخرى ، فحملت بثلاثة من آلهة العالم الأسفل ، وصار هؤلاء بدلاً من أخيهم ( نانّا ) الذي كان ( إنليل ) يريد له أن يصعد إلى السماء .

وينسـب إلى إنليل الذي تصفه النصوص بأنه أبو الآلهة ، ملك السماء والأرض ، ملك جميع البلدان ، يُنْسب إليه أنه الذي أخرج جميع البذور والنباتات والأشجار من الأرض . وأنه صنع المحراث والفأس ؛ ولولا إنليل لما بُنِيت المدن ، ولما أُقيم مُلْكٌ ، ولا وُلِدَ كاهن ، والأنهار لولاه ما جلبت مياهها الفيض والإرواء ... .

ويُعْـزى إلى الإلـه ( إنكي ) وهو ثالث الآلهة الكبار بعد ( آن ) و( إنليل ) ، وهو إله الحكمـة ، يُعْزى إليه أكثر من أي إله آخر تنظيم الأرض بحسب قرارات ( إنليل ) ، فهو في اعـتقادهم الإلـه المنظم والخالق لكل ما له صلة بالظواهر الطبيعية والثقافية اللازمة للعمران والحضـارة . ومصدر ذلك أسطورة تحمل عنوان " إنكي ونظام العالم " ، ويظهر فيها إنكي وهو يقرر مصير بلاد سومر.

والإله الرابع من بين الالهة الخالقة هو ( الإلهة الأم نِنْخُرساج ، نِنْماخ ) ، ويعدّها بعضهم زوجـة الإله ( آن )، وأنهما معاً كانا أبوي جميع الآلهة، وعرفت باسم ( نِنْتو ) أي " السيدة الوالـدة "، وكانوا يرون فيها " أم " جميع الأشياء الحية ، والإلهة الأم ، فهي التي قامت بدور مهم في خلق الإنسان في إحدى الأساطير ، ونراها في أسطورة أخرى تلد سلسلة من الولادات الإلهية .

ويتبين من النصوص المختلفة أن خلق الإنسان إنما كان للقيام بخدمة الآلهة وتأمين القوت لهـا ، ولما كانت تلاقيه من مصاعب جمة في الحصول عليه . وقد تمت عملية خلقه من الطين عـلى يد ( إنكي وننماخ ) ، كما ذكرنا ، بوساطة الإلهة الأم ( نَمّو ) . وفي بعض الروايات يُذْكـر أن البشـر نبتوا كما ينبت العشب من الأرض بعد أن فتح ( إنليل ) ثقباً في الأرض

بواســطة المعــول . وعلّل السومريون وجود المرضى والمعاقين ذوي الخَلْق الشاذ ، والذين لا جــنس لهم ، والذين لا يُنْجِبون ، على أن خَلْقَهم تمّ والإله الخالق إنكي والإلهة ننماخ كانا في حالة من السكر بعد مأدبة كبرى أقاماها احتفالاً بخلق الإنسان .

ننتقل بعد قصة الخلق عند السومريين إلى **البابليين** الذين خَلّفوا في قصيدة تعليمية تُعْرَف بــأول ألفاظ السطر الأول باسم ( إنوما إيلش ) أي " عندما هناك في الأعالي" لم يكن للسماء اســم ، أي لم تكن موجودة . خلّفوا تصورهم عن خلق الكون ، وهو تصور لا يختلف كثيراً عما نعرفه عند السومريين من حيث المبدأ ، غير أن القصة كلها أُلفَتْ سعياً وراء بيان السبب في ارتقــاء الإلــه مردوك إلى مرتبة ملك الآلهة ، بعدما كان إلهاً محلياً لمدينة بابل المغمورة قبل ظهــور أســرة حمــورابي ، ملكها الشهير الذي توصل إلى السيطرة على بلاد ما بين النهرين بكامــلها بوســاطة حنكــته السياسية وقدرته على التخطيط العسكري الفذ ، فارتقى بذلك ( مــردوك ) إلى مرتــبة إله الدولة الأعظم . ونجد في مطلع القصيدة ( إنوما إليش ) التي يعود تاريخ تأليفها إلى مطلع القرن الرابع عشر ق. م . حديثاً قصيراً عن أصول الآلهة ، إذ كان ثمة عمــاء ، خواء أزلي انبثق عنه في البدء إلهان يمثلان المياه الأولى : ( أبسو ) ، إله المياه العذبة ، وهو ذكر ؛و ( تيامت ) إلهة المياه المالحة زوجة ( أبسو ) . ونتيجة لامتزاجهما ( زواجهما ) ظهــرت الآلهــة الأخــرى ، وظهر ( آنو ) الذي أنجب ( نوديمود ) ، وهذا لقب كان الإلة ( إنكي / إيا ) يُعرَف به . وعندما كثرت أعداد الآلهة ، عكّرت هذه صفو الإله الأصل أبسو والهــدوء الذي كان يعيش فيه من قبل ، فقد نشأت أجيال من الآلهة ، وكان كل جيل منهم يفوق من سبقه، حتى انعقدت ألوية الحكمة بينهم للإله ( إيا ) ابن ( آنو ) ، وازداد ضجيجهم وسعيهم إلى التبديل والتغيير، الأمر الذي اقلق أبسو ، وحمله على التفكير بخطة للتخلص منهم. غــير أن ( تيامــت ) ، زوجــته ، قالت له : " وكيف نقضي على من خلقناهم بأنفسنا ؟ إن مسلكهم معيب حقاً ، ولكنه شيء متوقع" . ولم ينتظر ( إيا ) حتى ينفذ أبسو خطته ، بل بــادر إلى شن المعركة ضده بعد أن قام بتخديره وسلب إرادته عن طريق السحر ، وأفناه في نفســه ، وبــنى بيــته فــيما كــان يشــغله ( أبسو ) نفسه وعاش فيه مع زوجته . وصار

( إيا ) منذ ذلك الوقت إله الماء العذب الذي يغدقه ويتحكم به ، وتصدر عنه الأنهار وتمتلئ به البحيرات والجداول، وتنبثق عنه الينابيع . ثم أنجب ( إيا ) ابنه ( مردوك ) المعجزة ، الذي فاقت قدرته كل الحدود . ثم عاودت ( تيامت ) ذكرى زوجها ( أبسو ) ، بعدما استمرت الآلهة في مسلكها ، وجاءت الآلهة القديمة إلى ( تيامت ) وحرضتها على إبادة الآلهة الجديدة . فاختارت ( تيامت ) الإله ( كنْجو ) قريناً لها بعد أن أغوته وسلمته ألواح الأقدار ، وجعلت تحت إمرته الكواسر والزواحف والتنانين الهائلة وغيرها من الكائنات الرهيبة. وعندما عجز الآلهة الصغار متفرقين ومجتمعين أمام ( كنجو) والكائنات الرهيبة ، سواء بالمداهنة أم بالعنف ، التجأوا إلى ( مردوك ) لقيادتهم ، وفوضوه بالسلطة المطلقة ، وخلعوا عليه قدراتهم ، وأسرار أسمائهم، وارتضوه ملكاً عليهم. فتعدد لقاؤه مع (تيامت)، بالسحر تارة وبالحرب تارة أخرى ، حتى تصيّدها بشبكة ، وأطلق عَليها ريح السموم ، فملأت جوفها ونفختها ، عندما فتحت فمها لابتلاعه ، فقيّدها ، وذبحها ، والتفت إلى حليفها ( كنجو ) ، واسترد منه ألواح القدر ، وختمها بخاتمه واستودعها في مكنون صدره . ثم عاد إلى ( تيامت ) فبقرها ، وقسمها نصفين ، مثل نصفي صدفة البحر . وجعل نصفها الأعلى سماء ، ونصفها الأسفل أرضاً . وعيّن في السماء حرساً ، ونظم ماءها ، وعين مواضع الآلهة فيها . وأرسى الأرض وجبالها ، والدجلة والفرات ، وفجّر العيون والينابيع ... وبعد تأسيس مدينة بابل وإنشاء معبدها الخاص بمردوك تجتمع الآلهة كلها في احتفال النصر ، مادحة ممجّدة الأسماء الخمسين للإله مردوك .

كانت هذه الأسطورة تُتلى في احتفال مهيب في رأس السنة البابلية ( أكيتو ) ، حيث يتقمص الملك شخص ( مردوك ) ، مع ما يقام فيها من مراسم دينية أخرى . وقام الآشوريون في عهد الملك سنحريب بوضع إلههم آشور مكان مردوك في الأسطورة .

وتذكر الأسطورة خلق الإنسان الذي تم من دماء الإله ( كنجو ) بعد أن قتله مردوك ، لأنه اتُّهِم بدفع تيامت للثورة والقتال. وتذكر سبب خلق البشر أيضاً ، وهو خدمة الآلهة ، ليخلد هؤلاء إلى الراحة، ولا يقلقوا على تأمين قوتهم اليومي .

ونطلع في أسطورة أخرى ، هي أسطورة أتراخاسيس[5] ، على عملية خلق الإنسان الأول ( لوللـــو ) ، التي تذكر اسم مؤلفها أو كاتبها ( نور إيا ) . وتبدأ هذه بجملة " عندما كانت الآلهـــة ( مازالت ) بشراً " ، أي لم يكن قد حصل تمييز بين الإله والإنسان بعد . آنذاك كان يتوجـــب عـــلى مجموعة الآلهة ( إيجيجي ) أن تقوم بأعمال السقاية ، وتأمين المياه للشرب ، وتـــأمين القوت للآلهة كلها وفي مقدمتها ( الأنوناكي ) التي تفرض سيطرتها عليها. فوحدت كلمـــتها لمجابهة المتسلطين ، وأعلنت تمردها ، بعدما ناءت هذه الطائفة من الآلهة بمشقة العمل أربعـــين عاماً ، وحملت المشاعل معلنة احتجاجها أمام قصر الإله الأعظم ( إنليل ) . واستشار إنلـــيل حاشيته وقد رأى خطورة الموقف ، فأشاروا عليه بخلق الإنسان كي يحمل النير عوضاً عنهم ، ويخدم المعبودات ، ويكد من أجل إقامة معابدها وتوفير قرابينها .

وعملاً بمشورة ( إيا ) ، رب الحكمة ، عهد الآلهة إلى الربة الأم ( ننتو ) التي لقبت بلقب مـــامي ( أو مامـــا ) بـــأن تخلق الإنسان الأول . وأعانها ( إيا ) فأعد لها الطين النقي الطاهر ومارس عدداً من الشعائر حين إعداده ، وذبح ( كنجو ) ، فسالت دماؤه ، وتفلت ننتو على الطـــين ومزجته بلحم الضحية ودمه ، وشكلت من الطين سبعة ذكور وسبع إناث ، وقدرت تســـعة أشهر لحمل الإناث . وبين دقات الطبول وقراءة التعاويذ خرج الإنسان الحي ، وأتاها الأربـــاب يقبّلون قدميها عرفاناً بجميلها ، واستحقت أن توصف لذلك بسيدة الالهة ( بيليت إيلي Bélet ilim ) .

ثم تتابع الأسطورة الحديث عن البشر ، وضجيجهم وصخبهم ، ما يذكّرنا بضجيج الآلهة الشابة الذي يتسبب في غضب أبيهم الأول ( أبسو ) ، ولكن هذه المرة الذي يضج ويصخب هـــم البشـــر الذيـــن كثرت أعدادهم فأقلقوا الإله ( إنليل ) الذي قرر إرسال الطوفان عليهم ليفنيهم ، بعد أن ابتلاهم مرات ومرات بالمجاعة ، وإرسال الرياح ... .

---

[5] ـــ وهي الأسطورة التي تصف ( الطوفان ) ، مثل ملحمة جلجامش .

وثمة نصوص بابلية أخرى تتحدث عن خلق الكون في مقدمة تعويذات سحرية تُستَخدم في مجالات ومناسبات مختلفة . ويتفق معظمها على أن الخلق تمّ بدءاً من الماء ، وأن مردوك هو الـــذي خلق الإنسان من الطين ، وخلق الحيوانات والأنهار والنباتات . وبعضها يشير إلى خلق الزوجين البشريين الأوليين ( = آدم وحواء ). إذ نجد في نص عُثِر عليه في مكتبة آشور بانيبال في نيـــنوى، عـــبارة تذكـــر أن ( إيا ) قام بخلق زوجين شابين وأعلى من شأنهما فوق جميع المخلوقات .

أمـــا في **سورية** حيث أقام الكنعانيون على الساحل منذ مطلع التاريخ المكتوب ، وأقاموا حضـــارتهم الخاصـــة التي كان لها تأثير مباشر في ثقافة كريت وثقافة اليونان ، كما يتبين من الأســـاطير اليونانية ، من مثل أسطورة ( قدموس ) ، الإله الذي جاء من فينيقية وعلّم اليونان الكـــتابة، وأسطورة ( يوروبا ) التي سمّيت القارة الأوربية نسبة إليها ، فإن معلوماتنا عن قصة الخلـــق عـــندهم محدودة ، على الرغم من اكتشاف مدينة أوغاريت التي قدمت لنا معلومات كثيرة عن الديانة الكنعانية ، ودحضت أكاذيب توراة اليهود المزيفة ، اليهود الذين غزوا أرض كنعان ، ونسبوا الكنعانيين إلى حام على الرغم من أخذ لغتهم العبرية عنهم .

ثمـــة أســـطورة تتحدث عن الإله ( بعل ) الذي ينتصر على الإله ( يم ) بعد قتال بينهما ســـاعده فيه ، ويسر له سبل الانتصار عليه بعض الآلهة ، بتهيئة سلاحين ماضيين ، قضا بهما ( بعل ) على ( يم ) الذي استفز ( بعل ) وحاول بسط سيادته عليه .

إنـــنا نســـتنتج من هذا النص أن الإله ( بعل ) ، وهو إله المطر والغيوم والصواعق ، وإله الخصب، ويشبه في دوره في مجمع الآلهة الكنعاني الإله السومري إنليل، والإله البابلي مردوك، اللذيـــن صـــارا ملكـــي الآلهـــة عـــلى الـــرغم من أنهما لم يكونا في الأصل يرأسان مجمع الآلهة . بل كان قبلهما ( آن )، وعند الاوغاريتين الإله ( إيل ) ، نستنتج من انتصار ( بعل ) عـــلى (يم ) إله مياه البحر ، انتصار إله النظام والعمران على إله الفوضى والدمار ، إذ يشرع بعل بعد القضاء على ( يم ) ، كما يبدو ، بتنظيم الكون ووضع أسس الحضارة ، ويبني بيتاً له ، هو معبده على جبل صفون ( الأقرع اليوم ) .

## قصة الخلق التوراتية :

التوراة العبرية المعروفة كتاب دونه اليهود بعد عودهم من السبي البابلي الذي قام نبوخذ نصر في عام (٥٨٦) ق.م ، وكان ذلك في زمن قورش الثاني ، ملك الفرس الأخميني (٥٥٩ ــ ٥٢٩ق.م ) الذي سمح لهم بالعودة إلى أورشليم . وهم يدَّعون أنها من صنع موسى عليه السلام . نقرأ في هذه التوراة ، فيما يدعى باسم سفر التكوين :

" في البدء خلق الرب السموات والأرض . وكانت الأرض خراباً يباباً . وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الرب يرف فوق وجه الماء . وقال الرب ليكن نور فكان نور ... وفَصَلَ الرب بين النور والظلمة ، ودعا الرب النور نهاراً والظلمة ليلاً.. وكان مساء ، وكان صباح، يوماً واحداً . وقال الرب ليكن جلد في وسط المياه ، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه . فعمل الرب الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد ... ودعا الرب الجلد سماء . وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً . وقال الرب لتجتمع المياه تحت السماء ، إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة ، وكان كذلك ودعا اليابسة أرضاً ، ومجتمع المياه دعاه بحراً ... وقال الرب لتنبت الأرض عشباً وشجراً ... وشجراً ذا ثمر . فأخرجت الأرض بقلاً وعشباً وبقلاً ... وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً " ... وهكذا يذكر النص التوراتي تفاصيل عملية الخلق في ستة أيام نلخصها بالشكل التالي :

غَمْرٌ عظيم لانهايةَ له وظلامٌ دامس

ــ اليوم الأول : يخلق الرب النورَ ليفصلَ بين النهار والليل

ــ اليوم الثاني : خلق السماء .

ــ اليوم الثالث : خلق الأرض ، اليابسة والبحر ، إنْباتُ الأرض العشب والشجر والبقول .

ــ اليوم الرابع : خلق الشمس والقمر ، والنجوم . الشمس لحكم النهار ، والقمر لحكم الليل.

ــ اليوم الخامس : خلق الحيوانات المائية وطيور السماء .

ـ اليوم السادس : خلق الحيوانات البرية ، وخلق الإنسان " وقال الرب نعمل الإنسان على صورتنا كَشَبَهِنا فيتسلطون على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض . فخلق الرب الإنسانَ على صورته ، على صورة الرب خلقه ، ذكراً وأنثى זכר ונקבה خلقهم . وباركهم الرب وقال لهم أثمروا ، واكثروا واملأوا الأرض ... وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً سادساً .

" وفرغ الرب في اليوم السابع من عمله .. فاستراح في اليوم السابع ... وبارك الرب اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح . استراح في العبرية שבת واسم اليوم שבת

هذا في الاصحاح الأول وفي جزء من الاصحاح الثاني من سفر التكوين .

وثمة رواية ثانية لخلق العالم يُذْكَر فيها الربُّ باسم مركب יהוה ( يهوه بعد أن كان يُذْكَر بلفظ ( الوهيم ) " يوم عمل الرب יהוה الإله אלהים الأرضَ والسمواتِ وكلُّ شجرِ البرية لم يكن بعد في الأرض ، وكل عشب البرية لم ينبت بعد ، لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض ولا كان إنسانٌ ليعمل الأرض . ثم كان ضبابٌ يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض ... وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمةَ حياة ، فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً . ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرةَ معرفة الخير والشر ..." . ثم يَرِدُ ذكر الأنهار التي تخرج من الجنة ، ومنها دجلة والفرات ...

ثم نقرأ " وأخذ الرب آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها .. " .

وقال الرب الإله : ليس جيداً أن يكون آدم وحده ، فأصنع له مُعيناً نظيره . وجبل الرب الإله كل حيوانات البرية وكل طيور السماء ... فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً . وبنى الرب الإله الضلع التي اخذها من آدم ، امرأة وأحضرها إلى آدم . فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ، ولحم من لحمي . هذه تدعى امرأة

لأنها من امرئ أخذت אשה איש لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً . وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لايخجلان .

ونجد في نص آخر ( المزمور الرابع والسبعين ) إشارة إلى صراع تم بين الإله يهوه والتنين لوياثان إذ نقرأ " أنت شققت البحر بقوتك ، كسرت رؤوس التنانين على المياه ، أنت رضضت رؤوس لوياثان ، جعلته طعاماً للشعب ، لأهل البرية .. " قد يكون النص هنا على غموضه يشير إلى قضاء الإله يهوه على اتنين ، الحيوان الهائل قبل بدء عملية الخلق ( كما يقول فراس السواح ١١٤ ) تشابهٌ واضحٌ بين النص العبري ، ونص إيلوما إليش البابلي وعملية الخلق التي قام بها مردوك .

**في مصر :**

مدينة منف ( ممفيس ، قرب القاهرة ) كانت من أقدم العواصم المصرية القديمة ، وفيها ظهرت أقدم الأساطير المصرية عن خلق الكون ونشأته ، وكان إلهها ( بتاح ) الذي قد يعني اسمه معنى " الصانع ، أو الفتاح / الخلّاق " عندهم الإله الذي أوجد نفسه بنفسه ، وأبدع الكون ومعبوداته وناسه وحيواناته وديدانه عن قصد منه ورغبة . وكان سبيله إلى الخلق هو سبيل القلب واللسان ، أي الفكر والكلمة . فكرة تدبرها قلبه أو عقله ، وأصدرها لسانه وكان لفظ القلب عندهم يعني مايشمله مثله في اللغة العربية من معاني العقل والفكر والإرادة . كما عني لفظ اللسان معنى أداة النطق والأمر والكلام . وهكذا اتجهوا بفكرة الخلق والخالق في مذهبهم إلى التجريد والمعنوية ، وعدلوا بها عن مادية التجسيد في مذهب ( أونو / عين شمس) كما سنرى . وأوشكوا أن يرهصوا ببعض ما أكدته الكتب السماوية حين ردوا الخلق إلى القلب واللسان بمعنى الإرادة والأمر ، واقتربوا بذلك من قول التنزيل الحكيم " الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون " ( آل عمران ،٤٧ ) ولم يعتبروا ربهم خالقاً فحسب وإنما اعتبروه مشرعاً وعادلاً أيضاً ، ولم يفسد عليهم سمو تفكيرهم غير اعترافهم

بوجود أرباب كثيرين إلى جانبه ، وسوّغوا ذلك بأنه خلقهم من نفسه ، فصاروا صوراً منه أو أقانيم له .

ينسب إلى مدينة ( أونو / عين شمس ) شمال شرقي منف ( القاهرة ) اقدم مذهب ديني لتفسير نشأة الوجود ، وقد مر هذا المذهب بتطورات فكرية كثيرة ، وبدأ بصورة مادية ، ثم مال إلى المعنويات شيئاً فشيئاً . ولم يسجله المصريون كتابة إلا بعد تأليفه بقرون طويلة ، وفي صوره الناضجة رد أصحابه عناصر الكون وأسباب عمرانه إلى (٩) أرباب ، وتخيلوا فيما سبقها محيطاً مائياً أولياً لاحس فيه ولاحياة ، يسمى (نون ) . ومن هذا المحيط الأولي ظهر الإله الخالق ( أتوم ) الذي أوجد نفسه بنفسه ، وعاش فريداً حتى ذرأ من نفسه عنصرين مقدسين ذكراً وأنثى ، وهما ( شو) روح الهواء والفضاء والنور ، و ( تفنوت ) روح الرطوبة والندى . وتولد عن اجتماع هذين العنصرين ذكر وأنثى قدسيان ايضاً ، هما ( جب ) رب الأرض ، و( نوت ) ربة السماء . وظل هذان متصلين حتى أذن الخالق بانفصالهما . فرفع ( شو) السماء بربتها إلى أعلى عليين ، وملأ ما بينها وبين الأرض وربها بنوره وأنفاسه ، ولكن بعد أن تولد عن ربي الأرض والسماء في فترة اتصالهما أربعة أبناء ، ذكران وأنثيان : (أوزير (يس ) و ( ست ) و( إيزيس /ايسة و( نبت حت ) / نفتيس . ومثل هؤلاء الأربعة الرعيل الأول المقدس الذي جمع بين الألوهية والبشرية ، وبدأ به تنظيم عمران الكون ، كما تم به تاسوع ( أونو/ عين شمس ) الأكبر .

وفي عهد الملك أمنحوتب الرابع ( إختاتون ١٣٦٤ـ١٣٤٧ ق.م ) ظهرت دعوته للتوحيد ، إذ نادى بإله واحد لاشريك له ، ولا محل لتعدد الأرباب والربات إلى جانبه ، ليس هو آمون الذي تقمص دور الخالق في عصر الدولة الحديثة ١٥٦٧ ـ ١٠٨٥ ق .م ) ولكنه آتون الذي ألف الأناشيد التي تمجده وتناجيه :

ربٌّ أحدٌ دون شريك ، برأتَ الدنيا وكنت فرداً .

خلقـــتَ البشـــرَ والأنعام ، وكل ما يسعى على الأرض بقدم ويحلق بجناح في الفضاء ، وأقطار سوريا والسودان وأرضَ مصر .. ودبرت للجميع شؤوهم ، فأصبح لكل فرد رزقه ، وتعين لكل فرد أجله ..

ما أجملَ تدبيَرك ربَّ الخلود . فيضانٌ في السماء لأهل القفار وحيوان الفلا ومايدبُّ على قدم .إنكَ تعطي الحياةَ للجنين في أحشاء النساء ، وإنك تصنع من النطفة الرجال ، وإنك أنت الـــذي يعنى بالطفل في بطن أمِّه .. إنكَ تهبُ نسيمَ الحياة لكل إنسان خلقْتَه ، عندما ينـــزل ( الطفـــل ) من بطن أمه ليتنفس في اليوم الذي يولد فيه تفتح فمه وتمده بكل ما يحتاج إليه . وإذا صاح الفرخ في بيضته فإنك تهبه الهواء ليبقيه حياً ثم تمده بالقوة حتى يثقب بيضته ..

ما أكثر مخلوقاتك ، وما أكثر ما خفي علينا منها ..

أنت الذي صنعت الدنيا بيديك ، فأحييت حيوانها وكل من يسعى فوق أقدامه .

أنت الذي صنعت الدنيا بيديك ، وخلقت الناس كما شئت أن تصوِّرَهم .. "

ـــ لقـــد كـــان لتمجيد رب أخناتون وأناشيده تأثير لا يخفى على المطلعين على آداب الشرق في مزامير داوود ( المزمور ١٠٤) من مزامير العهد القديم ، وربما في الأدب الكنعاني إذ كان أخناتون يبعث الدعاة إلى كل مكان من أرجاء الإمبراطورية المصرية .

هـــذا غيض من فيض مما استطعنا تلخيصه من النصوص الأسطورية بلغاتها السومرية والبابلية والآشورية والأوغاريتية والعبرية ، والمصرية القديمة ، وعسى أن نكونُ وفّقنا فيما أردنا إيصاله ... .

# إبـلا أولى دول الساميين

# إبلا أولى دول الساميين

ينوّه الملك الاكدي سرجون (شَرّوكين ٢٣٤٠ ـــ ٢٢٨٤ ق.م) الذي أسس أول دولة سامية في بلاد الرافدين في حولياته بأنه وطّن العزم على توسيع مساحة البلاد التي بسط عليها سيادته ، فتوجه بفتوحاته في العام الثالث من حكمه إلى الشمال الغربي من بلاد بابل في أولى حملاته ، واحتل توتول الواقعة على نهر الفرات ، ثم تابع سيره حتى مدينة ماري (تل الحريري) . ثم جهز حملة ثانية إلى سورية في العام الحادي عشر من حكمه ، ووصل إلى شمالي سورية ، فغزا إبلا ثم تجاوزها إلى يرموتي الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، ومن ثم توجه إلى جبال الأرز التي قد تعني جبال لبنان أو جبال الامانوس . ثم يقول مبالغاً إنه تابع الزحف بجيشه حتى جبال طوروس ، وغزا مدناً كثيرة ، ومناطق شاسعة تقع في قلب الأناضول ، وعبر البحر الأبيض المتوسط إلى بلاد القصدير (ربما جزيرة قبرص أو شواطئ آسية الصغرى الجنوبية)[١] .

وسواء كانت أخبار سرجون صحيحة أو من قبيل الافتخار بإحراز الانتصارات المتتالية على أمم وبلاد متعددة ، فإن ذكره إبلا يُعَدُّ شاهداً على قدمها ، وأنها كانت معروفة في عصره . وذات شأن بين حواضر الشرق الأدنى القديم . إلا أن الباحثين لم يُوَفَّقوا في العثور على موقعها وتحديده . بل كانوا يُقَدّرون أن أطلالها تختفي في مكان ما من شمالي سورية ، وعند مجرى الفرات الأعلى[٢] . حتى قُيِّض للبعثة الإيطالية بإشراف باولو ماتييه التي باشرت التنقيب عام ١٩٦٤ في تل مرديخ الواقع على بعد ٦٥ كم إلى الجنوب من مدينة حلب ، أن تنجح في الكشف عن آثار إبلا عندما وقع بيدها في أثناء الحفريات المتواصلة في عام ١٩٦٨ ، بقيةٌ من تمثال نُقش عليه بالمسمارية اسم ملك إبلا "إبيت ليم بن اجريش خيب" . وتأكد

1 - D.O Edzard in: FW, 2, S. 102, H. Klengel, Geschichte und Kultur Altsyriens, S. 23.

2 - Fischerweltgeschichte, 2, S. 118.

للبعثة أن الحفريات كانت تجري في إبلا نفسها بعد أن تم الكشف عن موقع يعود تاريخ استيطانه إلى العصر البرونزي القديم ، حيث عثر على القصر الملكي، وفي داخله عثر عام ١٩٧٥ على المحفوظات الملكية (الأرشيف الملكي) التي تشتمل على أكثر من ستة عشر ألف رقيم ، وكان حوالي أربعة عشر ألف رَقيم منها يصطف على رفوف خشبية في الحجرة الخاصة بالأرشيف ، وقد صُنِّفت الرُّقُم بحسب الحجم ، أو الموضوع ، قبل أن تطالها آثار التدمير الذي حل بالقصر بكامله حوالي عام ٢٢٥٠ ق.م. وكان عدد كبير من الرُّقُم في حال لا تحمل على الرضا . إذ لم يتجاوز عدد الرقم الكاملة منها الألفين . ووصل عدد الأقسام الباقية من الرقم المهشمة ذات الأحجام الكبيرة إلى حوالي أربعة آلاف . أما ما تبقى من الرقم فكان يمثل قطعاً صغيرة . وعلى الرغم من ذلك فإن تعرضها لنار الحريق الذي دمر القصر كان مفيداً لها ، إذ حفظها في وضع مناسب بعد أن شُوِيَتْ عن غير قصد . وكان بينها رقم مستديرة الشكل ، وأخرى مربعة ومستطيلة بأحجام تتراوح بين ٢ ــ ٣٦ سم من حيث الطول .

تمثل الكتابة المسمارية على الألواح الطينية النوع المعروف في بلاد الرافدين ، ويشير أسلوب كتابتها إلى صلات قوية ببلاد سومر . أما لغة النقوش المذكورة فهي سامية وتمثل أقدم لغات المجموعة الشمالية الغربية من اللغات السامية التي نعرفها في أشكالها المتأخرة في سورية القديمة بفرعيها الأساسيين الكنعاني والآرامي . ولسوف تكشف الدراسات التي بدأت منذ بضع سنوات عن سمات لغة إبلا ، وخصائصها وستزودنا الأبحاث عنها بمعلومات هامة عن تاريخ اللغات السامية .

وتشتمل كتابات إبلا على موضوعات متنوعة ، ومنها النصوص الاقتصادية التي تشكل الجزء الأكبر منها ، وأكثر هذه النصوص ذو صلة بتجارة إبلا المزدهرة . وإلى جانب هذه النصوص ثمة رسائل وأوامر ذات طابع إداري متنوع الموضوعات ، ومراسيم ملكية ومعاهدات مع المدن والدول الأخرى في سورية وفي بلاد الرافدين ، وقوائم بأسماء المدن التابعة لإبلا ، وعقود تجارية ، وبعض النصوص الأدبية ، وقوائم لغوية تتضمن ألفاظاً إبلائية كُتِبَتْ مقابلها ألفاظ سومرية تؤدي معناها ، تمثل نوعاً من المعاجم الأولى في التاريخ ، وتدل على علاقات

إبلا ببلاد الرافدين والمناطق المجاورة لها ، وعلى تواصل حضارتها بحضارة الشرق القديم الذي كانت السومرية لغته الأولى آنذاك قبل أن تحل الاكدية محلها .

يعود تاريخ نصوص إبلا المكتَشفة إلى الربع الثالث من الألف الثالث قبل الميلاد . وتُعَدُّ نتيجة لهذا أقدم النصوص التي عُثِر عليها على الأرض السورية ذاتها حتى اليوم ، وذات أهمية كبيرة في دراسة تاريخ سورية وتاريخ الشرق الأدنى القديم ، وفي إلقاء أضواء جديدة كاشفة على حضارة المنطقة وعلاقات دولها السياسية والاقتصادية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد ، وليس من شك في أن الوثائق الكتابية خير شاهد على عمل الإنسان ومنجزاته ، ولاسيما إذا كانت من صنع يده ، ودُوِّنَتْ في العصر نفسه .

## الحياة السياسية والإدارية :

ازدهرت إبلا في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وعاصرت دول المدن السومرية في جنوبي بلاد الرافدين ، كما يبدو من حديث سرجون الاكدي الذي شمل إبلا بفتوحاته في سورية الشمالية والغربية ، وأخضعها لسيادته . ولكن سرجون لا يذكر أسماء الحكام الذين اجتاح مدنهم ، والملوك الذين بسط سلطانه على بلادهم ، حتى نحدد الفترة التي حكم فيها ملوك إبلا ، ومَنْ منهم عاصر الملك الاكدي وتعرض لهجومه وخضعت المدينة في زمنه لسيطرة الأكديين. وتقدم نصوص إبلا أسماء ستة من الملوك الذين تعاقبوا على حكم إبلا، استطاع الباحثون أن يستخلصوها من بين ثنايا النصوص وهم: إجريش خلام ، إركب دامو ، أرإنّوم ، إبريوم ، إبِّي زِكير ، ذو بوحو ادا[٣] الذي يرد ذكره في الوثائق ولياً للعهد ، ولا يطلق عليه لقب الملك ، ولسوف تكشف البحوث الجارية عن معلومات مفيدة تسهم في جلاء الغموض الذي يكتنف علاقة هؤلاء الملوك ببعضهم ، وتجيب عن أسئلة الباحثين فيما يتصل بالزمن الذي وصل فيه أولئك الملوك إلى العرش ، إذ يحتمل أن الملك لم يكن يصل في إبلا إلى

---

3 ـــ الجديد حول المشرق القديم ١٧٥ . II. Klengel, S, 26

الحكم عن طريق الوراثة ، بل كان يُنْتَخَب لمدة محدودة من الزمن قابلة للتجديد ، كما يتبين من وضع الملك إبريوم الذي جدد حكمه أربع مرات متتالية على الأقل ، وكان حكمه أطول حكم شهدته إبلا[٤].

ومن اللافت أن النصوص تورد اسم إجريش خلام ، وهو الملك السابق ، واسم إركب دامو ، وهي تتحدث عن الملك إبريوم . وقد يزكي ذلك أن الملك لم يكن يبقى طوال حياته حاكماً ، بل كان يصل إلى الحكم آخر ، فيتولى الحكم ، ويتنحى الملك السابق ربما لتقدم سنه للملك الجديد ، دون أن يتأثر وضعه الاجتماعي ، فيحتفظ بتقدير الناس له وبامتيازات مختلفة.

وكان الملك يحمل اللقب السامي الإبلوي (ملك) ، أو اللقب السومري (إن) الذي يعني "الحاكم" ذا الصفة الدينية ، والذي كان حكام المدن السومرية في عصر بداية الأسرات يستخدمونه قبل أن يستبدلوه بلقب (لوجال) الذي يعني "الملك" ولاسيما في أوروك. ويبدو لنا من النصوص أن ملوك إبلا كانوا يُؤلَّهون بعد وفاتهم وتُقَدَّم لهم القرابين بانتظام .

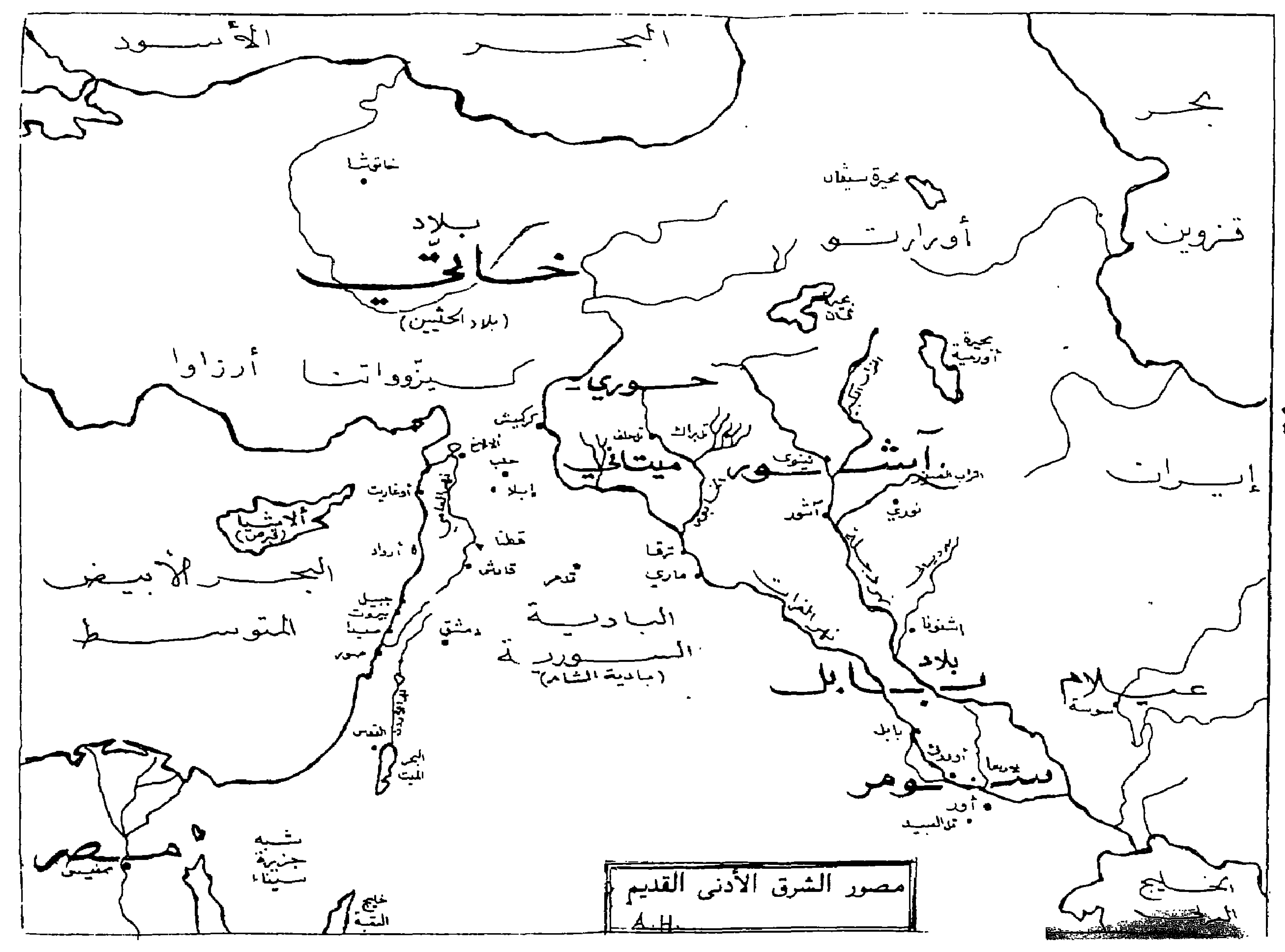
ويبدو أن الملك لم يكن ينفرد وحده بالسلطة في البلاد ، ويحكمها حكماً مطلقاً ، بل ثمة دلائل تؤكد أن مجلساً للشيوخ كان له دور فعال في الإشراف على حسن سير الأمور في الدولة ، ومن ذلك أن "الشيوخ" كان يرد ذكرهم في النصوص بعد اسم الملك مباشرة وقبل أسماء الملوك السابقين ، وأن بناء مجلس الشيوخ كان ينتصب فوق الأكروبوليس في إبلا غير بعيد عن القصر الملكي[٥] ، ربما ليكونوا قريبين من الملك الذي كان يرجع إلى رأيهم في اتخاذ القرارات الهامة . وكان أعضاء مجلس الشيوخ من زعماء العائلات الغنية المتنفذة لذلك فإن الملك كان يحسب حساباً لهم .

---

4 ـــ الجديد حول الشرق القديم ١٧٨ .

Pettinato, Ebla Nuovi Orizzonti della Storia, Milano 1986, p. 137.

5 — H. Klengel 28.



مصور الشرق الأدنى القديم
A.H.
البحر الأسود
بحر قزوين
بلاد خاتي
(بلاد الحثيين)
خاتوشا
كيزوواتنا
أرزاوا
أورارتو
بحيرة سيفان
بحيرة فان
بحيرة أورمية
حوري
ميتاني
آشور
نينوى
آشور
نوزي
كركميش
ألالاخ
حلب
إبلا
أوغاريت
الألاشيا (قبرص)
قطنا
قادش
أرواد
تدمر
ترقا
ماري
البحر الأبيض المتوسط
جبيل
بيروت
صيدا
صور
دمشق
البادية السورية
(بادية الشام)
القدس
البحر الميت
نهر الأردن
نهر العاصي
نهر الفرات
نهر دجلة
الزاب الأسفل
إيران
عيلام
سوسة
اشنونا
بلاد بابل
بابل
أوروك
لجش
سومر
أور
تل العبيد
مصر
منفيس
شبه جزيرة سيناء
خليج العقبة
الخليج العربي

وقد يكون لذلك دلالة على أن مجلس الشيوخ لم تكن له صفة استشارية فحسب ،وإنما كان يضع الخطوط الرئيسية لإدارة الدولة وتطويرها ، ويرسم سياستها الداخلية والخارجية التي كان على الملك أن ينفذها ، وأن يلتزم على غرار الحكومات الديمقراطية بالعمل بموجبها[٦] ، ويؤيد ذلك أن النصوص الإدارية تذكر مجلس الشيوخ الذي يسمى في اللغة الإبلوية (أَبّو) إلى جانب الملك ، وكانت تقارير القادة العسكريين بخاصة تُوَجّه إلى الملك والشيوخ .

وإذا صح ذلك فلنا أن نعد مملكة إبلا أول الممالك الشرقية التي كان ملوكها لا يملكون سلطان الحكام المستبدين ، بل كانوا يديرون البلاد بمشاركة من مجلس الشيوخ .

كما كان الملك يعتمد في إدارة قطاعات الدولةِ المختلفة على مجموعة من الموظفين الكبار الذين يحملون اللقب السومري (لوجال)[٧].

أما إدارة الشؤون الاقتصادية فكانت مسؤوليتها تقع على كاهل موظف كبير يحمل لقب (أدانوم) أي (السيد) ، الذي كان يرأس عدداً كبيراً من الموظفين .

ويتبين من النصوص المكتشفة أن البلاد كانت تتوزع على أقاليم متعددة يدير شؤونها ويتدبر أمورها حكام يدعى الواحد منهم أوجولا UGULA ، أي "الوالي ، المشرف" ، وكان هؤلاء في معظمهم من أبناء العائلات المقربين إلى القصر[٨] .

---

6 — لم يكن هذا الأسلوب في الحكم غريباً عن شعوب المنطقة ، فقد كان جلجامش بطل الأسطورة المعروفة في الأدب السومري وملك أوروك يرجع في الأمور الخطيرة إلى مجلس الشيوخ طالباً المشورة والتوجيه ، كما فعل عندما هاجم ملك كيش مدينته واشتط في طلب الجزية منه .

(7) — وتعني كلمة لوجال السومرية في الأصل "الرجل الكبير" . ثم استخدمت للإشارة إلى الملك السومري بعد أن كان عدد من المدن السومرية في عصر بداية الأسرات يقوم على رأسه حاكم يدعى إنْسي الذي يعني "النائب ، الوكيل" . إشارة إلى أنه نائب الإله ووكيله في الحكم .

(8) — A. Archi, About the Organisation of the Eblait State in SEB, 1982.

وكان على كل حاكم أن يجمع الضرائب من المواطنين بحسب فئاتهم المهنية وأن يسلمها إلى الخزينة العامة للدولة . ويظهر غنى الإقليم ومستواه الاقتصادي من خلال النصوص الاقتصادية والإدارية التي كانت تشير إلى كميات من الفضة يدفعها حاكم الإقليم سنوياً ، تتفاوت كمياتها من لإقليم إلى آخر .

ويشير استخدام الألقاب السومرية : إن ، لوجال ، أوجولا ، يشير إلى العلاقة الوثيقة التي كانت تربط إبلا والمدن السومرية ، وانتشار اللغة السومرية من دون شك .

كانت مملكة إبلا تسيطر على جزء كبير من سورية يمتد بين نهر الفرات شرقاً والبحر المتوسط غرباً، وبين جبال طوروس شمالاً ومنطقة حمص جنوباً ، وهي منطقة تتألف منها أراضي أقاليم إبلا ، ولكن كان لإبلا نفوذ سياسي يتجاوز المساحة المذكورة التي يصعب رسم حدودها إلى المناطق الواقعة على مجرى الفرات الأوسط حيث تقع مدينة ماري شرقاً حتى تصل إلى ما وراء نهر دجلة في شمالي بلاد الرافدين . ويشير إلى ذلك تقرير عسكري حرره قائد يدعى إنا داجان إلى ملكه في إبلا بعد معركة وقعت بين جيش إبلا وجيش ماري ، خرج منها الجيش الإبلوي منتصراً . ويذكر فيه سير المعركة ، ووقائع الحملة العسكرية ، وإخضاع ماري بعد هزيمة ملكها إبلول إيل .

وقد يكون حرص إبلا على تأمين الطرق التجارية المتجهة إلى المشرق والتي تلامس حدود ماري الشمالية لتعبر مناطق الجزيرة العليا وتصل إلى جنوب بلاد الرافدين عبر آشور سبباً في نشوب الأزمة بين المملكتين ، ووقوع الحرب بينهما . ونتيجة لانتصار إبلا وهزيمة ماري كان على هذه المملكة أن تخضع لحكم إبلا ، وأن تدفع الجزية لها .

ويذكر إنا داجان في وثيقة اقتصادية أن ما وقع في يده من غنائم في المعركة المذكورة ، أو في معركة أخرى ضد ماري ، كان ٢١٩٣ مينه من الفضة و١٣٤ مينه من الذهب .

وكان نصيب ملك إبلا وحده من الجزية ٨٥ بالمئة ، بينما احتفظ قائد الحملة المنتصر بالباقي[٩] . كما يذكر القائد العسكري أن ملك ماري المهزوم دفع وحده من حر ماله " ١١٠٠ مينه فضة و٩٣ مينه ذهباً" ، بينما دفع بقية المبلغ "شيوخ ماري" .

ومن اللافت في هذا التقرير أن ملك ماري يحمل لقب "ملك ماري وآشور" . وآشور الواقعة على نهر دجلة هي المدينة المعروفة في شمالي بلاد الرافدين ، وعاصمة المملكة الآشورية في زمن لاحق ، والتي كانت تعد مركزاً تجارياً مزدهراً في الألف الثالث قبل الميلاد . وإن انتصار إبلا على ماري التي كانت تسيطر آنذاك على آشور يعني أن نفوذ إبلا امتد إثر خضوع ماري لها حتى آشور في الشرق . أما آشور فلعلها استعادت استقلالها نتيجة لتبعية ماري لإبلا، وكانت إبلا الطرف الأقوى في المعاهدة التي عقدت فيما بعد بين إبلا وأشور[١٠]. كما راعت المعاهدة المذكورة مصالح الطرفين ونظمت العلاقات التجارية بين الجانبين اللذين أصبحا متجاورين بعد سيطرة إبلا على ماري ، وحريصتين على تبادل المنافع ، وتأمين الطريق التجارية الدولية .

لم تكن المعاهدة مع آشور الوحيدة ، بل ثمة وثائق أخرى تؤكد اتساع علاقات إبلا الاقتصادية والسياسية مع الدول المجاورة . ومنها معاهدة سياسية مع مملكة تدعى خمازي الواقعة إلى الشرق من نهر دجلة في شمالي إيران يستند إليها نص رسالة موجهة من أمين القصر الملكي باسم ملك إبلا إركب دامو إلى ملك خمازي يطلب إليه فيها إرسال فرقة من الجنود البواسل إلى إبلا[١١] . وفي هذا ما يدعو إلى الاعتقاد بأن المعاهدة بين البلدين كانت تنص على الدفاع المشترك وعلى التعاون في المجال العسكري على الرغم من اتساع الشقة وبُعْد المسافة بين إبلا وخمازي ، وتشير في الوقت ذاته إلى وصول نفوذ إبلا إلى مناطق مجاورة لإيران

---

9 — H. Klengel, Geschichte und Kultur Altsyr. 27.

10 — H. Klengel 27.

11 — المصدر السابق نفسه .

في أقصى الشرق . ويبدو أن علاقات إبلا السياسية كانت تمتد جنوباً حتى فلسطين ، وتصل إلى قبرص في الغرب وكبادوكية في الأناضول شمالاً . وكانت لإبلا علاقات تجارية واسعة ، كما تؤكد الوثائق الاقتصادية في الأرشيف الملكي ، مع مصر القديمة ، وماري ، وإيمار ، وحرّان ، وكيش (السومرية) ، ودلمون (البحرين) ، ومارتو ، إريتوم ، كركميش (جرابلس) ، وحماة وغيرها من المدن والدويلات التي لم يستطع الباحثون تحديد مواقعها بعد .

ويتبين من دراسة الكتابات الإبلوية أن ازدهار إبلا السياسي كان أيام ملوكها الذين ربما عاصروا الأسرة الرابعة من فراعنة مصر الذين اشتهروا ببناء الأهرامات (ولاسيما الملك خفرع) وكان لهم نشاط تجاري واسع مع الساحل السوري حيث يقع ميناؤها المفضل جبيل ، ولعل المؤكد أن الأرشيف الملكي في إبلا يعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد ، ومع ذلك يصعب علينا اليوم الإفادة من نصوص الرقم الإبلوية في تحديد تاريخ بداية المرحلة التي يعود إليها الأرشيف الملكي الذي يشمل حقبة من الزمن تصل إلى ١٥٠ عاماً ، لأنها تفتقر إلى النصوص ذات المضمون التاريخي . ولكن الأمل مازال معقوداً على قراءة الأرشيف بكامله لاستخلاص المعلومات المفيدة تاريخياً في المستقبل .

ويعتقد الباحثون أن التزامن الوحيد الواضح الذي توصلوا إليه حتى الآن بين ملوك إبلا وملوك المنطقة يقع بين الملك الثالث لإبلا أر إنّوم وبين إبلول إيل ملك ماري الذي كان حكمه قبل عصر سرجون الأكدي . ولما كانت أسماء بعض المدن الجنوبية من بلاد الرافدين ترد في نصوص إبلا المالية والتجارية ، مثل كيش وأداب ، كما يرد ذكر الملك ميساليم (واسم إله مدينته زابابا) الذي يرجع تاريخ حكمه إلى بداية القرن السادس والعشرين قبل الميلاد ، فإن تاريخ إبلا يرقى إلى حوالي عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد[١٢] .

---

12 ـــ الجديد حول الشرق القديم ١٧٨ ١١٨ ، Edzard, FW, 2, S, 59 .

ومن اللافت أن أسماء بعض ملوك جبيل وحران وخمازي لها ذكر في نصوص إبلا الاقتصادية ، إلا أن تعرض النصوص الإبلائية لذكرهم لا يفيد في تاريخ زمن حكمهم ، لأن تاريخ هذه المدن القديم نفسه بحاجة إلى تدقيق وتمحيص .

ونخلص من ذلك إلى أن بدايات نشأة مملكة إبلا تعود إلى نهاية النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد . وقد قيض لهذه الدولة أن تزدهر اقتصادياً لوقوعها في منطقة زراعية خصبة تؤمن لها إنتاجاً زراعياً وافراً ، وعلى طرق التجارة الرئيسية في سورية التي كانت تتصل ببلاد الرافدين من الشرق ، وبسورية الداخلية وفينيقية والجزيرة العربية ومصر عبر شبه جزيرة سيناء وفلسطين في الجنوب ، وبآسية الصغرى في الشمال .

كما أفادت إبلا من اقتصادها المزدهر في إقامة دولة قوية عرف أهلها توظيف إمكاناتها وموقعها في الإشراف على قسم كبير من سورية خير توظيف ، وفي إنشاء العلاقات التجارية والسياسية مع جيرانها التي أسهمت في تقوية الدولة وعززت أمنها ، وضمنت لها التطور والرخاء ، ووفّرت لها مركزاً مرموقاً بين دول المنطقة .

ثم عقب ذلك ظهور دولة سرجون الاكدية في بلاد الرافدين التي مدت سلطانها غرباً إلى البحر الأبيض المتوسط ، وكان على إبلا التي يبدو أن قوتها العسكرية لم تكن كافية لصد الأكديين أن تسقط أمام هجماتهم .

وقد تعرض سرجون لذكر إبلا ، كما مر بنا ، في حولياته التاريخية ، وجعلها بين الحواضر التي غزاها في طريقه إلى البحر الأبيض المتوسط ، لكن من المستبعد أن تستغرق إقامته في المناطق البعيدة عن مقر حكمه في جنوبي بلاد الرافدين مدة طويلة . ولعل وجوده في شمالي سورية كان عابراً ، وكذلك احتلاله لها ، وإنْ حمل لقب "ملك الجهات الأربع" ، وهو لقب فخري أطلقه ملوك كثيرون بعده على أنفسهم تفاخراً وتمجيداً لذاتهم ، ويعني إدعاء السيطرة على العالم كله بجهاته وأركانه الأربعة .

وعندما خلفه ابنه ريموش (٢٢٨٤ ــ ٢٢٧٥ ق.م) في الحكم اتخذ لنفسه لقباً مشابهاً وهو "ملك البحر الأعلى (أي البحر المتوسط) ، والبحر الأسفل (أي الخليج العربي)" ، ولكنه كان في الواقع يكافح منذ اللحظة الأولى التي جلس فيها على عرش والده في سبيل الحفاظ على سلطة الدولة الأكّدية في أقرب المناطق إلى مركزها أكّد ، ولم يكن ملك المناطق كلها التي تقع بين الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط في أي حال من الأحوال .

ولم تتغير الأوضاع في زمن خليفته مانيشتوسو كثيراً . ثم كان على نارامسين (٢٢٦٠ ــ ٢٢٢٣ ق.م) حفيد سرجون ، أن يخمد ثورات المدن البابلية ، وانتفاضة عيلام ، وغيرها من الأقاليم في الشمال وفي الغرب حتى ماري التي قامت في وجه الاكديين ، وسعت إلى التخلص من نير سيطرتهم ، وفي ذلك دلالة على أن إمبراطورية سرجون الاكدية لم تهنأ بسعة سلطانها على البلاد التي وصل إليها مؤسس الإمبراطورية طويلاً . ولما كان نارامسين لا يقل عن جده سرجون طموحاً وعزيمة فإنه يذكر كذلك أنه مد سلطانه من عيلام شرقاً حتى جبال الأرز (الامانوس أو لبنان) غرباً ، ومن آسية الصغرى في الشمال إلى ماجان (بلاد عمان اليوم) في الجنوب الشرق . ويفتخر بأن جيوشه وطئت أراضي وبلاداً لم يغزُها أحد قبله ، فبزّ بذلك جده ، وتفوق عليه ، وسمى نفسه كجده "ملك العالم" . وفي عداد المدن التي اجتاحها يأتي نارامسين على ذكر إبلا التي يقول عنها مبالغاً في سياق الحديث عن المدن التي أخضعها "منذ الأزل ، منذ خُلِق البشر لم يُخْضِعْ أي ملك من الملوك أرمان (حلب ؟ ) وإبلا . بسلاح نيرجال (الإله) فتح نارامسين القوي الطريق وأعطاه (أي الإله داجان) أرمان وإبلا، وأهداه جبال الامانوس ، جبال الأرز والبحر الأعلى . وبسلاح داجان الذي جعل مملكته كبيرة أخضع نارامسين القوي أرمان وإبلا .." (١٣) .

---

— (13)
Gelb, Kienast, Die alt akkadishen Königsinschriften des dritten Jahrtausends v. Chr. Stuttgart. 1990, P. 255

وهذا يعني أن إبلا تعرضت مرتين للغزو الأكدي ، الأولى في عهد سرجون ، والثانية في عهد حفيده نارامسين . وتؤكد النصوص الحثية التي عُثِر عليها في أرشيف العاصمة خاتوشا (بوغازكوي اليوم) ، ذكرى غزوة نارامسين التي لم تكن إذن من ضرب الخيال والمبالغة ، بل حدثت فعلاً .

وتدل آثار الحرائق والتدمير في قصر إبلا على أن المدينة تعرضت لغزو خطير أدى إلى سقوط مملكة إبلا ، ووضع نهاية لمجدها وسلطانها في المنطقة ، ويُعْتَقد أن نارامسين هو الذي قضى على مجد هذه المملكة . ولكن هذه النهاية لا تعني أن مدينة إبلا دُمِّرت ، وانتهى أمرها ، بل يتضح من الوثائق التاريخية أن أهلها استمروا في أعمالهم التجارية ونشاطهم الاقتصادي ، وأنها بقيت قروناً بعد حملة نارامسين مقراً لحكام المنطقة ، فقد كان ملك لجش السومري جوديا (٢١٤٤ ــ ٢١٢٤ ق.م) ، كما تذكر نصوصه ، يتعامل مع كل المناطق التي وصلت إليها جيوش أكد من قبل ، ويصل تجاره إليها سلماً ، ومنها مدينة إبلا التي كان التجار يستوردون منها الأنسجة الكتانية وأخشاب الصنوبر . كما يرد ذكر المدينة في وثائق أسرة أور الثالثة في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، حيث تظهر فيها أسماء أُناس من إبلا يقومون بنشاطات في بلاد الأناضول الآشورية القديمة التي يعود تاريخها إلى بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وفي نصوص أوغاريت وألالاخ من أواخر القرن الثامن عشر حيث ترد الإشارة التاريخية التالية :

"في ذلك العام عندما اختار ملك ألالاخ أميتاكو ابنة حاكم إبلا زوجة لابنه" . ويرد كذلك اسم إبلا في قائمة البلدان التي تدفع الجزية لمصر زمن ملكها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد الذي أمر بنقش أخباره على معبد الآله آمون في الكرنك[14] .

وفي هذه الأخبار ما يؤكد بقاء إبلا مركزاً من المراكز التجارية المعروفة في سورية الشمالية بعد أفول نجمها السياسي . ولعل التجارة المزدهرة في إبلا ، ووقوف مملكتها في وجه

---

14 ــ الجديد حول الشرق القديم ١٦٢ .

الأكديين الذين كانوا يطمعون بالسيطرة على طريق التجارة ومراكزها الرئيسية في الهلال الخصيب كان من الأسباب الأولى التي حملت سرجون وحفيده نارامسين على التخلص من دولة إبلا وتدمير حاضرتها التي كانت تسيطر على التجارة في المنطقة ، وتحول دون الوصول إلى أخشاب الأرز الثمينة في جبال الامانوس وجبال لبنان التي كانت كل دول الشرق تطمع في الحصول عليها.

وتُظْهِر التنقيبات الأثرية في موقع تل مرديخ ، حيث كانت تقوم مدينة إبلا ، أن الموقع كان مدينة آهلة بالسكان بين عام ١٨٠٠ و ١٦٠٠ قبل الميلاد . ثم يبدو أنها دُمِّرت للمرة الاخيرة ، وقام مكانها بعض المستوطنات الصغيرة بين ١٦٠٠ و ٥٣٠ قبل الميلاد ، لتتحول بعد ذلك إلى بلدة صغيرة زمن الاحتلال الفارسي والعصر الهلنستي (٥٣٠ — ٦٠ ق.م) .

## الحياة الاقتصادية :

كان للموقع الجغرافي لدولة إبلا في شمال غربي سورية دور كبير في حياتها الاقتصادية . فالأرض ذات تربة زراعية خصبة ، وتصيبها كميات من الأمطار الوافرة والمناسبة لزراعة الحبوب ، من قمح وشعير، وحمص وعدس ، ولنمو الكرمة التي حصل أهل إبلا على الخمور من عنبها ، وأشجار الزيتون التي استخرجوا منها الزيت، والتين والرمان ، والكتان الذي كان سبباً في نشوء صناعة النسيج وازدهارها ، وشهرتها بين البضائع الرائجة لإبلا . ويُعتَقد أن الظروف البيئية المحيطة بمدينة إبلا كانت في الألف الثالثة قبل الميلاد إبان ازدهار الدولة أفضل بكثير مما هي عليه في الوقت الراهن حيث كان يستفاد من مياه نهر قويق الذي يمر بمدينة حلب متجهاً إلى الجنوب لري قسم كبير من أراضي إبلا الشرقية والشمالية إضافة إلى مياه نهر العاصي الذي يمر في أراضيها الجنوبية الغربية .

وكانت البراري المنتشرة في بقاعها الشرقية والجنوبية تضمن للمواشي مراعي غنية . فأفاد الإبلائيون من تربية الحيوانات ، ولاسيما الأغنام التي كانت تدر عليهم أثمانها أرباحاً طائلة ، كما يتبين من النصوص الاقتصادية التي تورد في بعض من وثائقها أعداداً كبيرة تنسبها إلى

الأفراد المالكين ، أو إلى مؤسسات الدولة والمعابد . ومن بينها نص يحدد ٧٩٣٠٠ رأس ، وآخر يتجاوز هذا الرقم ، وغيرها ينص على أعداد متقاربة ، وكأن تربية الأغنام التي كانوا يستفيدون منها للغذاء ، ومن صوفها في صناعة النسيج ، تمثل جانباً أساسياً من اقتصاد البلد ، وركناً من أركانه البارزة . كما كان المواطنون يعتنون بتربية الحيوانات الأخرى من ماعز وبقر وخنازير ، وثيران يستخدمونها في حراثة الحقول وغيرها من الأعمال الزراعية .

وقد أدى غنى إبلا من الثروة الزراعية والحيوانية إلى توفير قاعدة اقتصادية ضرورية لقيام صناعة تعتمد على الموارد المحلية . فنشأت صناعة الغزل والأنسجة الكتانية والصوفية ، حيث كان العدد الأكبر من العمال يشتغل في هذا النوع الرائج من الصناعة . ومما يؤكد أهمية الصناعة النسيجية أن ملكة إبلا نفسها ، كما يبدو من النصوص الاقتصادية في الأرشيف الملكي كان لها الإشراف العام على إنتاج المنتوجات .

كما قامت صناعات في إبلا تعتمد على المعادن المستوردة من بقاع مختلفة ، إذ كان يصلها النحاس من قبرص ، والفضة من الأناضول ، حيث كانت تقوم "جبال الفضة" كما يسميها سرجون الأكدي في حولياته[١٥] ، والذهب من مصر عن طريق مدينة جبيل الفينيقية التي كانت السفن المصرية تؤمها للاتجار مع سورية حاملة المواد المختلفة ومن بينها الذهب لتحصل على أخشاب الأرز والصنوبر خاصة وعلى غيرها من البضائع المحلية ، ويتأكد ذلك من خلال الكتابات المصرية التي عثر عليها والتي يعود تاريخها إلى زمن الملك خفرع . ولذلك نجد ذكر الحرفيين ، ولاسيما الحدادين والنجارين ، يتردد كثيراً في النصوص[١٦] .

وقامت في إبلا صناعة للحصول على معدن البرونز الذي كان صناع إبلا ينتجونه كغيرهم من صهر النحاس والقصدير وخلطهما . وكان هذا المعدن ضرورياً لإنتاج الأدوات

---

(15) — J. Bottero, in: FW, 2, 107.

(16) - ARET IV 12

المعدنية الأساسية للبيت والحقل ، وللأسلحة الحربية ، وثمة وصفات عثر عليها بين الرقم لتصنيع البرونز تحدد الإضافات والنسب التي على الصناع إدخالها على النحاس .

واشتهرت إبلا بصناعة الأثاث المترلي الخشبي الذي كانت له سمعة خاصة ، كما يبدو من إحدى الرسائل التي يوجهها ملك إبلا إركب دامو إلى الملك زيزي ، ملك حمازي التي مر ذكرها ، يقول فيها : " أنت أخي ، وأنا أخوك . وإنني سألبي ما تشتهي من طلبات يا من هو أخي . وأنت من طرفك ستلبي كل ما أطلب . أرسل لي جنوداً جيدين . إنني أرجوك ، لأنك أخي كما أنا أخوك . لقد سلمت مبعوثك إبوبو عشر قطع من الأثاث الخشبي ، وطاقمين من الموائد ... "[١٧] .

وفي هذا النص ما يشير إلى قيمة الأثاث الخشبي الإبلائي ، إذ يرسل ملك إبلا إلى حليفه ملك حمازي البعيد هدية فاخرة من المصنوعات الخشبية ، أو هو يقايضه بالجنود .

ونشطت إبلا في مجال التجارة التي كانت عماد الازدهار الاقتصادي والسياسي فيها ، مستفيدة من ثروهما الزراعية والحيوانية ، ومن منتوجاهما الصناعية ، ولاسيما المنسوجات الكتانية والصوفية ، ومن صناعة الأدوات المعدنية وأدوات الزينة والحلي ومن الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي كانت تستوردها من خارج البلاد .

وتذكر النصوص الإبلوية أصنافاً متعددة من البضائع التي كانت البلاد تصدرها ، ومنها زيت الزيتون والأغنام ، والأنسجة التي تعدد النصوص أكثر من خمسين نوعاً منها . وفي ذلك دلالة على براعة العمال الإبلويين في صناعة المنسوجات ، وهي صناعة ما زالت مناطق عدة من سورية تشتهر بها ، ولاسيما حلب ودمشق[١٨] .

---

17 — Pettinato, the Archive of Ebla, P. 97- 98, H. Klengel 27.

18 — ما زالت مدينة حلب القريبة من إبلا من أهم مدن الشرق المعاصر في الصناعة النسيجية التي تقوم على خبرة عمالها وحفاظهم على تقاليد هذه الصناعة الموروثة من القدم . كما كانت تمثل مع دمشق مركزين رئيسين من مراكز صناعة المنسوجات في الشرق الأدنى يقصده التجار الأوروبيون وغيرهم في القرون الوسطى ، حيث أقاموا فيهما قنصليات

وزاد من رواج المنتوجات الإبلوية المتعددة براعة حكامها الذين كان عندهم حس تجاري فطري ، فحرصوا على عقد اتفاقيات تجارية لتبادل البضائع مع الدول المجاورة ، ومنها آشور ، كما رأينا ، وكما يتبين من دراسة نصوص إبلا الاقتصادية التي تأتي أعدادها في المرتبة الأولى من الرقم الإبلوية التي عثر عليها في القصر الملكي ، لتسويق إنتاج إبلا الزراعي والصناعي ، وللحصول على المواد اللازمة لصناعتها المعدنية ولأدوات الزينة .

حتى الأغنام التي كانت تربيتها رائجة من أجل الإفادة من صوفها وفي الغذاء ، والتي كانت تباع للتجار الأغراب ، كانت تستوردها إبلا كذلك من جهة ثانية لحاجتها الشديدة إليها في حياتها الصناعية لحياكة صوفها وغزله ونسجه ، فالتجارة بيع وشراء .

كما عقد ملوك إبلا معاهدات سياسية مع جيرانهم لغايات أمنية وعسكرية واقتصادية ، إذ إن تجارة إبلا لا تكون في مأمن ورائجة ما لم تكن طرق التجارة آمنة والأحوال السياسية في المنطقة مستقرة ، والدولة قوية تستطيع الدفاع عن مصالحها الأساسية . وقد ضمنت سياسة ملوك إبلا الاقتصادية والسياسية استمرار إبلا مملكة مزدهرة متميزة باقتصادها القوي وتجارتها الواسعة في الشرق حتى حطم الأكديون الدولة ، ولكنهم لم يقضوا على نشاط سكانها التجاري الذي استمر قروناً عدة بعد غزو الأكديين . وثمة من يرى أن إبلا التي لم يعد إليها بريقها السياسي في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وما تلاه من زمن يعود إلى أن الأموريين قد طغوا بأعدادهم الكبيرة على مناطق الهلال الخصيب ، ومن بينها منطقة إبلا ، وأنهوا وجود مدينة إبلا السياسي في نهاية العصر البرونزي القديم ، ولم يكن للأكديين من دور سوى القضاء على عنفوانها قبل أن تطالهم موجات الهجرة الأمورية ، وتأتي على آخر ذكر لها في التاريخ القديم .

---

عدة ترعى مصالح التجار الأوروبيين فيهما وتحرص على استمرار العلاقات التجارية المتميزة فيهما مع تجار المدينتين .
ويشير إلى ذلك كثرة الخانات فيهما ، ولاسيما في حلب . وما زال اسم الدمقس Damask الذي يعني نوعاً متميزاً من القماش في اللغات الأوروبية يذكر بشهرة دمشق في العصور الوسطى بإنتاج النسيج والسيوف الدمشقية المتميزة .

## الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية :

عرف الشرق القديم مؤسسات تعليمية أقامتها دول المنطقة المتحضرة تتناسب وظروفها التاريخية . وارتبطت تلك المؤسسات بالقصر وبالمعبد لحاجتهما إلى الكتبة الذين يسجلون الواردات والصادرات من المواد التموينية والضرائب والدخول المختلفة ، ويقومون بالحسابات وأعمال الإحصاء الدورية ، وإعداد الرسائل وتجهيزها حسب الأصول المتبعة في المراسلات بين الحكام والملوك والولاة والقادة والموظفين ، وكتابة الحوليات الملكية ، وأخبار المعارك الحربية ، ونصوص المعاهدات السياسية والاتفاقيات التجارية ، وغيرها من الشؤون الإدارية والدينية . فقامت المدارس البدائية القليلة الملحقة بقصر الملك ، أو بدار الحاكم والوالي ، أو بالمعبد .

وقد كشف في إبلا عن حجرة واسعة في القصر الملكي ، وهي الحجرة التي عثر فيها على المحفوظات الملكية ، كانت تحتوي إضافة إلى الوثائق الخاصة بملوك إبلا ومراسلاتهم ، والنصوص الإدارية والاقتصادية ، وعلى نصوص تبدو كنصوص تعليمية خطتها أيدي التلاميذ المبتدئين ، وأخرى هيأها المعلمون لتدريب طلابهم على الكتابة وصوغ الجمل ، وتصريف الأفعال بحسب نماذج صرفية ونحوية تشبه إلى حد كبير الكتب المدرسية التي يدرسها الطلبة ، ويحفظون قواعد اللغة من خلالها . وبينها قوائم بأسماء الحيوانات ، وأخرى بأسماء الأسماك والطيور والنباتات ، وشتى أنواع الأحجار والمعادن والأشجار ، وكذلك أسماء الآلهة وتسميات المدن والوظائف الإدارية . وبينها كذلك قوائم تشتمل على أسماء أدوات مصنوعة من المعدن أو الحجر أو الخشب .

ولعلها لم توضع لغاية تعليمية فحسب بل لتكون نوعاً من المعاجم العلمية التي يحتاج المثقفون إليها والمتعلمون في حياتهم العلمية والعملية .

وكان في مكتبة القصر معاجم لغوية تتضمن ألفاظاً سومرية وإلى جانبها ألفاظ باللغة المحلية الإبلائية تعد حوالي ٣٠٠٠ كلمة[١٩] كانت تساعد الكتبة على الترجمة من السومرية وإليها ، كما ساعدت الباحثين المعاصرين على فهم اللغة الإبلائية ومكنتهم من تدقيق معاني ألفاظها ، وأتاحت لهم فرصاً للتأكد من معاني بعض الألفاظ والمصطلحات السومرية نفسها .

واحتوت المكتبة على نصوص أدبية ودينية ، وهي على قلة أعدادها ستكون وسيلة هامة وموثوقة للتعرف على فكر سكان إبلا وعلى عقائدهم ، وحياتهم اليومية ، وعلى أساطيرهم ، عندما تتم قراءة نصوصها المسمارية .

ومن الآثار الأدبية عشرون قصيدة ملحمية وأسطورية من القصائد السومرية والمحلية تبرز فيها شخصيات آلهة بلاد الرافدين إنليل ، وإنكي ، وأوتو ، وسين وإينانا .

ومن إنجازات الكتبة والعلماء في إبلا قائمة وضعوها تشتمل على ٢٨٩ اسماً من أسماء المدن ، أطلق عليها المختصون اسم "سجل إبلا الجغرافي" .

ومن الناحية الاجتماعية مازت النصوص الإبلوية سكان إبلا الأصليين الذين تدعوهم "أبناء إبلا" من الغرباء الذين كانوا يقيمون فيها للارتزاق أو يقومون بأعمال الخدمة العسكرية خاصة ، ويعتمد الجيش عليهم في مهماته المختلفة . وبلغ من اعتماد الدولة عليهم أن الملك إبريوم لم يجد غضاضة في أن يزوج ابنته إلى زعيم لهم .

وكان "أبناء إبلا" من موظفي الدولة والتجار والحرفيين والزراع والعمال المختلفين يتمتعون بحقوق المواطن الكاملة ، بينما لا تتوضح أوضاع الغرباء الحقوقية ، ولاسيما العاملين منهم في الجيش على أهميتهم.

وإلى جانب هؤلاء كان يعيش في المدينة الغرباء من التجار والكهان والعلماء بخاصة إلى جانب الأسرى والعبيد . وكانت المدينة تتألف من أربعة أحياء ، تتوزع على قسمين رئيسيين

---

19 ـــ الجديد حول الشرق القديم ١٧٢ .

يحيط بهما سور تعلوه الأبراج الدفاعية ، ويشرف على كل حي عشرون ناظراً يساعدهم جهاز كبير من المعاونين . وكان للسور أربع بوابات تحمل أسماء الآلهة الرئيسة لإبلا ، وهي بوابة داجان ، وبوابة بعل ، وبوابة راشاب ، وبوابة شبيش . ويقدر الباحثون أن عدد سكان إبلا كان يبلغ حوالي مئتين وستين ألفاً ، يعيش أربعون ألفاً منهم على الأقل في المدينة نفسها، ويتوزع الباقي على الضواحي والقرى القريبة .

وتورد النصوص عدداً كبيراً من أسماء الآلهة التي تبدو في معظمها كنعانية معروفة ، وتبلغ حوالي خمسمئة إله وإلهة . وهذا أمر لافت ولعله يشير إلى تدين سكان إبلا الشديد ، وإلى تعلقهم بأربابهم ، ويؤكده أن ستة أشهر من أشهر السنة كانت تدعى نسبة إلى أرباب إبلا الرئيسة ، كما أطلقوا أسماءهم على بوابات المدينة .

وكان لكل إله منهم معبد خاص يقوم فيه تمثاله الذهبي أو الفضي ، وتقام له فيه الطقوس الدينية الخاصة ، ولكل منهم كهنة يقومون على خدمته ، وعلى رعاية شؤون معبده ، وتقديم القرابين له .

ويحتل الإله داجان مكانة بارزة بين آلهة إبلا الرئيسة، فهو "إله الغيوم والسماء ، والمطر"، كما تعرفه النصوص الكنعانية المتعددة ، وكما يدل معنى "دجن" في اللغة العربية .

ثم غدا هذا الإله في النصوص الأوغاريتية والعبرية والفينيقية رباً للحبوب (ولاسيما القمح) ، لما لزراعة الحبوب من علاقة بماء المطر وغيث السماء . ولكن داجان ، كما يؤكد المعنى العربي ، في الأصل إله الطقس والخصوبة في سورية القديمة .

وقد تَسَمّى به أحد الحكام الذين راسلوا فرعون مصر وعُثِر على رسالتين له في تل العمارنة (حوالي ١٣٧٥ ق.م) . كما دعيت أمكنة في سورية نسبة إليه ، وورد ذكرها في حوليات الملك رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ــ ١٢٢٣) ، وفي زمن رعمسيس الثالث[٢٠] .

---

M. H. Pope, in: Worterbuch der Mythologie, I, S. 276- 277. — 20

ويؤكد منزلة داجان المتميزة تسمية إحدى بوابات المدينة في إبلا باسمه ، وإطلاق اسمه كذلك على الشهر الأول في التقويم الإبلائي ، وإضفاء لقب "سيد" عليه الذي اشتملت عليه أسماء الأعلام الإبلوية . كما أطلق عليه لقب "سيد البلاد" و"سيد كنعان" ، و"رب الأرباب". ولعل في ذلك كله ما يشير إلى أن داجان كان الآله الأول لإبلا ، أو رئيس الآلهة . ويزكي هذا الرأي أن أحد النصوص يصف داجان بعبارة (طليو ماتيم)، أي "طل الأرض ، ندى البلاد" .

كما يذكر سرجون الأكدي وحفيده نارامسين في حديثهما عن غزو إبلا أن الإله داجان نفسه هو الذي مكّنهما برضاه عليهما من إخضاع إبلا وسورية الشمالية بكاملها[٢١] .

وكان لداجان زوجة هي بعلة . ويعني "بعل" في اللغات السامية في الأصل "سيد ، رب ، زوج" ، فمعنى بعلة إذن "سيدة" . ولذلك كان لكل مدينة فينيقية (كنعانية) ربة تدعى بعلة . ويسمى إله الشمس في إبلا شيبيش ، وهي الإلهة (الأنثى) المعروفة في نصوص أوغاريت كذلك .

وثمة آلهة أخرى لها منزلة خاصة في مجمع الآلهة (البانثيون) الإبلوي ، ومن بينها الإله (هَدّا) ، وهو (هدد) أو (حدد) عند السوريين القدماء كافة ، ولاسيما لدى الأموريين الذين نقلوه معهم إلى بلاد الرافدين، وصار يدعى أدد أو أدو ، وهو إله العواصف والأنواء . والإله (كوكب) إله النجم ، والإله (بعل) رب الخصب عند السوريين القدماء ، ولاسيما عند الكنعانيين . والإلهة (عشتار) ، إلهة الخصب والحب والحرب في آن واحد . والإله (ليم) ، وهو الإله الأموري المعروف في ماري وحلب في أسماء الأعلام في الألف الثاني قبل الميلاد .

---

٢١ — H. Klengel 24.

## أهمية إبلا في تاريخ الشرق القديم:

هذه الأهمية التي تصل إلى درجة الثورة في مجال تاريخ المشرق العربي القديم الذي كنا لا نعرف عنه سوى المعلومات الواضحة إلى حد كبير عن مصر (في وادي النيل) وعن بلاد ما بين النهرين (الفرات ودجلة) وعن حضارتيهما ومن خلال مصادرهما الخاصة ، لن تأخذ أبعادها الكاملة قبل الانتهاء من الدراسة الوافية للنصوص الكتابية والحصول على المزيد من المعلومات الأثرية التي من شأنها أن تسد الثغرات الكثيرة في معلوماتنا عن إبلا .

لقد أتاحت لنا المعلومات المتوافرة حتى الآن:

١. التعرف على العصر الذهبي لمملكة إبلا الذي نستطيع أن نحدده بين الأعوام ٢٤٠٠ ـــ ٢٢٥٠ ق.م تقريباً . وهذا يعني أن ملوك إبلا عاصروا في أثناء ذلك الملك السومري أوروكاجينا ولوجال زاجيزي اللذين حكما في جنوبي بلاد ما بين النهرين في لجش وأوروك قبل سرجون الاكدي الذي قضى على الملك السومري الأخير .

٢. بناء على ما سبق نستطيع القول : إن مملكة إبلا السورية سبقت في تاريخها تاريخ المملكة الاكدية التي قامت بتأسيس من الملك سرجون في عام ٢٣٤٠ق.م . فإن كانت إبلا قد بلغت قمة ازدهارها وعاشت عصرها الذهبي زمن ملوكها الذين مر ذكرهم ، ولقي آخرهم نهايته على يد سرجون الذي غزا إبلا بعد حوالي عشر سنوات من وصوله إلى الحكم وإلى تأسيس دولته الاكدية ، فهذا يعني أن لإبلا تاريخاً طويلاً سابقاً للمملكة الأكدية ، وكان معاصراً لملوك المدن السومرية ، ويمتد ربما إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، أي حوالي ٣٠٠٠ آلاف سنة ق.م . وعندما عمد سرجون إلى احتلال إبلا إنما كان ذلك لما رأى من منافسة إبلا لمملكته ، وخطورة وجودها في تحقيق أحلامه التوسعية ، ووصوله إلى تجارتها المزدهرة التي تسيطر على بضائعها الأساسية من زيت ، وحبوب، وأنسجة ، ومعادن مختلفة ، وأخشاب تستهوي سكان بلاد الرافدين وسكان مصر الذين يقدرون قيمة أخشاب الامانوس ولبنان الثمينة .

٣. إن أسبقية إبلا لمملكة أكد تاريخياً يصحح معلوماتنا عن نشأة الدول السامية في المشرق العربي القديم، إذ كنا نعتقد أن أول دولة أقامها الساميون في المنطقة كانت الدولة الأكدية ، ولكننا نعرف الآن وبعد اكتشاف إبلا أقدمية هذه الدولة ، ونستطيع القول : إنها أقدم دولة للساميين .

٤. وبناء على ما سبق نقول : إن الحضارة في سورية التي كانت على صلة بحضارة ما بين النهرين ، التي اقتبست منها الكتابة المسمارية السومرية ، وبحضارة مصر في عصر الدولة القديمة ، عصر بناة الأهرام ، كانت حضارة أصيلة بكل مقوماتها ، فقد أكدت الرقم الإبلوية بما حملته من معلومات اقتصادية وجغرافية وسياسية أن سورية في تلك الحقبة من التاريخ القديم لم تكن معبراً لحضارات المناطق والشعوب المجاورة ، كما كان الاعتقاد سائداً عند الباحثين قبل اكتشاف إبلا ، بل كانت بؤرة حضارية أساسية في تاريخ الشرق القديم لا تقل في أصالتها ، وفي إنجازاتها وعطائها الحضاري عن جيرانها في شيء . لقد كانت إبلا بالتأكيد مركزاً حضارياً أساسياً في أواخر فجر التاريخ السوري ، وقد تحقق في تلك الفترة التحام الدور السياسي الطليعي بالمستوى الحضاري المتقدم . لقد كانت حضارة إبلا في بداياتها الأولى "ذات أصالة ذاتية مستقلة عن القيم الحضارية المتاخرة في بلاد الرافدين في ظل السلالات الأولى "[٢٢].

٥. في الغياب الكامل للشواهد الكتابية من الألف الثالث ق.م في سورية قبل اكتشاف إبلا أصبح بإمكاننا الآن تحديد رقع كبيرة من مسرح التاريخ السياسي الذي ظهرت عليه كل من إبلا ، وإيمار (مسكنة) ، وماري (تل الحريري) وآشور ، وأكّد، لفترة زمنية امتدت إلى خمسمئة سنة . كما توافرت من خلال الاكتشاف معلومات مفصلة عن الحياة الإقتصادية ونظام الحكم والإدارة ، والدين والأحوال المالية لأكبر مركز ، وبالأحرى قمم الحضارة في فجر التاريخ . وغدا بمقدورنا أيضاً التعرف من خلال أسماء العلم والأمكنة ، وأسماء الأشخاص ، والمدن والبلدان على جنس السكان

(22 ) ـــ ماتييه تل مرديخ ـــ إبلا أقدم مملكة عامرة في سورية ص٤٢ .

وانتمائهم العرقي ، كما صار بإمكاننا كتابة الجغرافية السياسية ليس لسورية فحسب ، بل للشرق الادنى القديم من خلال ذكر أسماء المدن والمواقع في الألف الثالث قبل الميلاد .

٦. قدّمت رقم إبلا مادة لغوية غزيرة تُعَدُّ أقدم وأوسع مجموعة لمفردات لغة سامية في سورية إلى جانب الأوغاريتية . وهذا يسهم في التعرف على قواعد وبناء اللغات السامية في الألف الثالث ق.م، ودراستها من جديد ومقارنتها مع شقيقاتها في بلاد ما بين النهرين الأكدية القديمة ، وما يليها زمنياً من لغات، وقد يقودنا إلى تصنيف جديد للغات السامية ، إذ مازال المختصون مختلفين حول الانتماء الجغرافي اللغوي للغة إبلا.

٧. إن وقوع إبلا بعيداً عن الأنهار الكبرى واعتمادها في الزراعة على الأمطار يدحض نظرية من يقول: إن الحضارات القديمة الكبرى لم تنشأ إلا على ضفاف الأنهار الكبرى ووديانها .

وأخيراً : إن اكتشاف إبلا يعطيها أهمية متميزة ، إذ إنها فتحت آفاقاً واسعة لكتابة تاريخ الشرق العربي من جديد ، ونبهت إلى ضرورة الحذر الشديد الذي يجب أن يتوخاه المؤرخ عند كتابته للتاريخ القديم . ذلك لأن تلالاً كثيرة لا تزال تنتظر من ينقب فيها وفي سورية بخاصة ، ومدناً ومواقع ورد ذكرها في حوليات الملوك ، وفي النقوش المختلفة ، لم تزل مجهولة المكان ، ولما يعثر علماء الآثار عليها بعد . وإبلا نفسها لم يكن بمقدور أحد أن يحدد مكانها حتى عام ١٩٦٨ ، وكان أحد العلماء الألمان قد خمّن في كتاب عن تاريخ الشرق القديم طبع في نهاية عام ١٩٦٤ وجود إبلا في مكان ما بين الفرات الأعلى في سورية والبحر الأبيض المتوسط .

ولم يمض على ذلك أكثر من أربع سنوات حتى عرف الباحثون مكانها في تل مرديخ ، كما رأينا .

# الفهرس

الأستاذ الدكتور أحمد ارحيم هبّو
من مواليد مدينة حلب ١٩٤١
دكتوراه في فقه اللغات السامية وتاريخ الشرق القديم
من جامعة هايدلبرج الألمانية ١٩٧٠
أستاذ في كلية الآداب بجامعة حلب
عميد كلية الآداب ١٩٨٠ - ١٩٩٠ ثم ٢٠٠١

من كتبه : المدخل إلى اللغة السريانية و آدابها - جامعة حلب
تاريخ العرب قبل الإسلام - جامعة حلب
الأبجدية ، نشأة الكتابة وأشكالها - دار الحوار - اللاذقية
سلسلة تاريخ الشرق القديم: دار الحكمة اليمانية و دار الحرف العربي بيروت
(١) سورية (٢) بلاد ما بين النهرين (٣) مصر
قاموس ألماني - عربي / دار الكتب العلمية - بيروت

## هذا الكتاب

يشتمل الكتاب على عدد من الموضوعات ذات الصلة بحضارة الساميين في منطقة المشرق العربي القديم حيث بدأت الحضارة بمفهومها الصحيح باكتشاف الزراعة ، ونشأة الكتابة ، و ظهور المجتمعات و الحكومات و تبلور المعتقدات الدينية ، و نشوء الأساطير والأدب والعلوم . و هي موضوعات تشير بوضوح إلى وحدة حضارية بيّنة المعالم من خلال عناصرها الرئيسة .

و دار القلم العربي بحلب إذ تنشر هذا الكتاب ، إنما تحرص على أن يفيد منه الباحث المختص ، و الطالب الذي يتلمّس المعلومات التاريخية و الحضارية الأكاديمية التي تعينه في سيرورته البحثية ، وتهيئ له المراجع العلمية الموضوعية عن حضارة الوطن القديمة التي تحفزه إلى الاعتزاز بها ، و السعي [illegible] نبراساً يهتدي به في بناء المستقبل الذي تستحقه الأمة العربية المعطاء.


الناشر




دار القلم العربي




ISBN : 2-8383-15